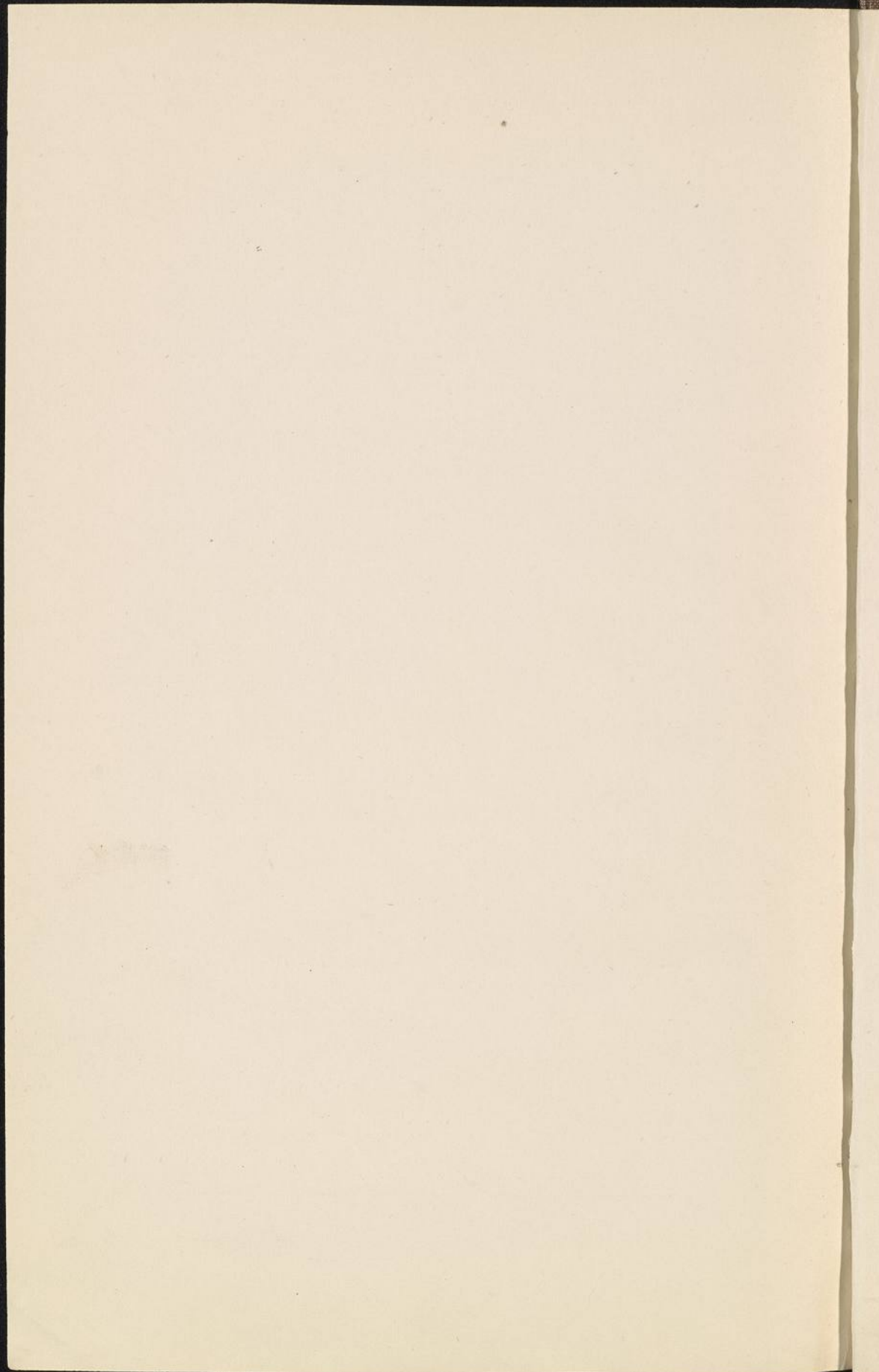
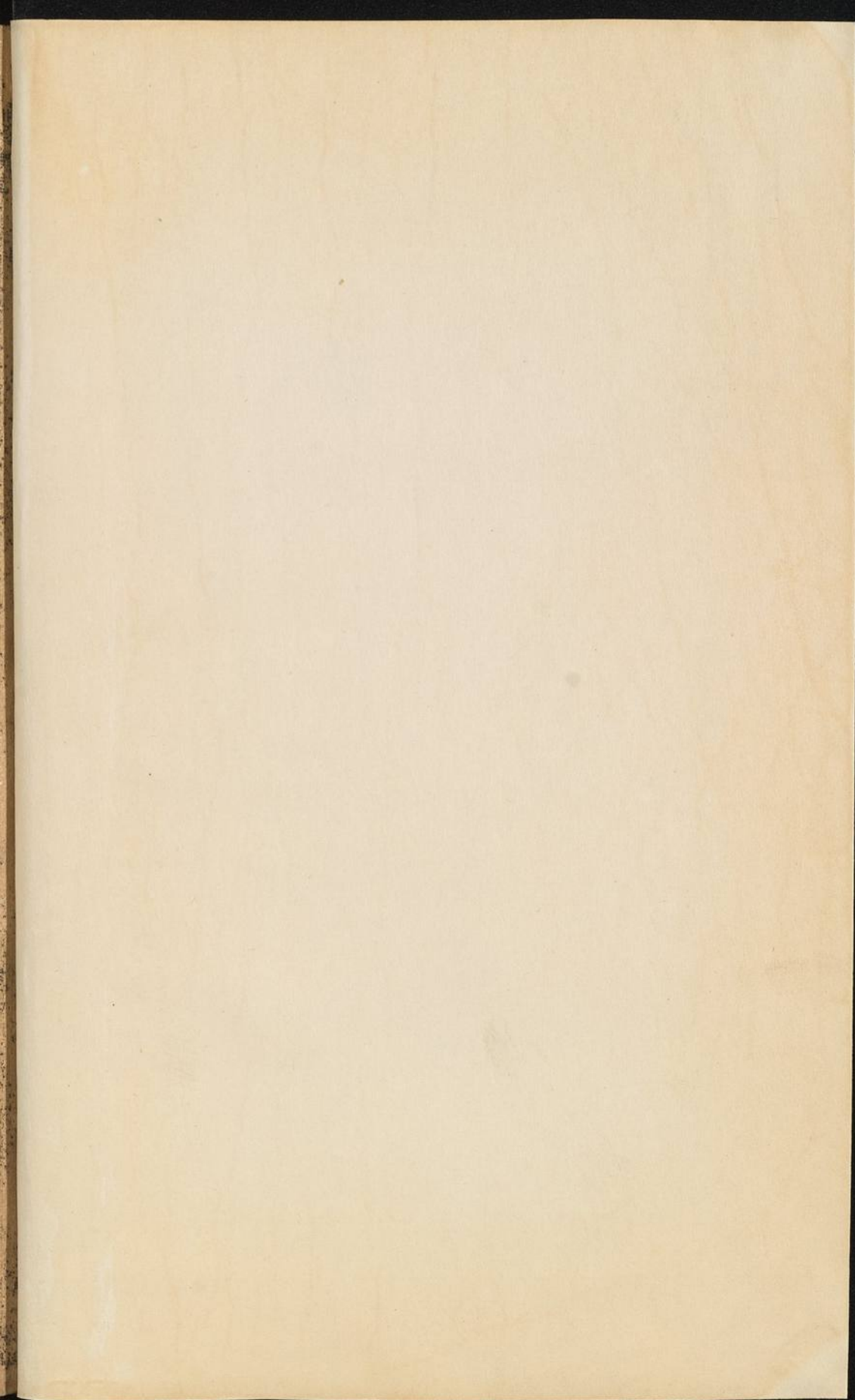


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







A 34

وزارة المعارف العمومية

الاجتهاد

فتاوى شيخ الأئمة العبرانيين

مقرر السنة الثالثة بالمدارس الثانوية

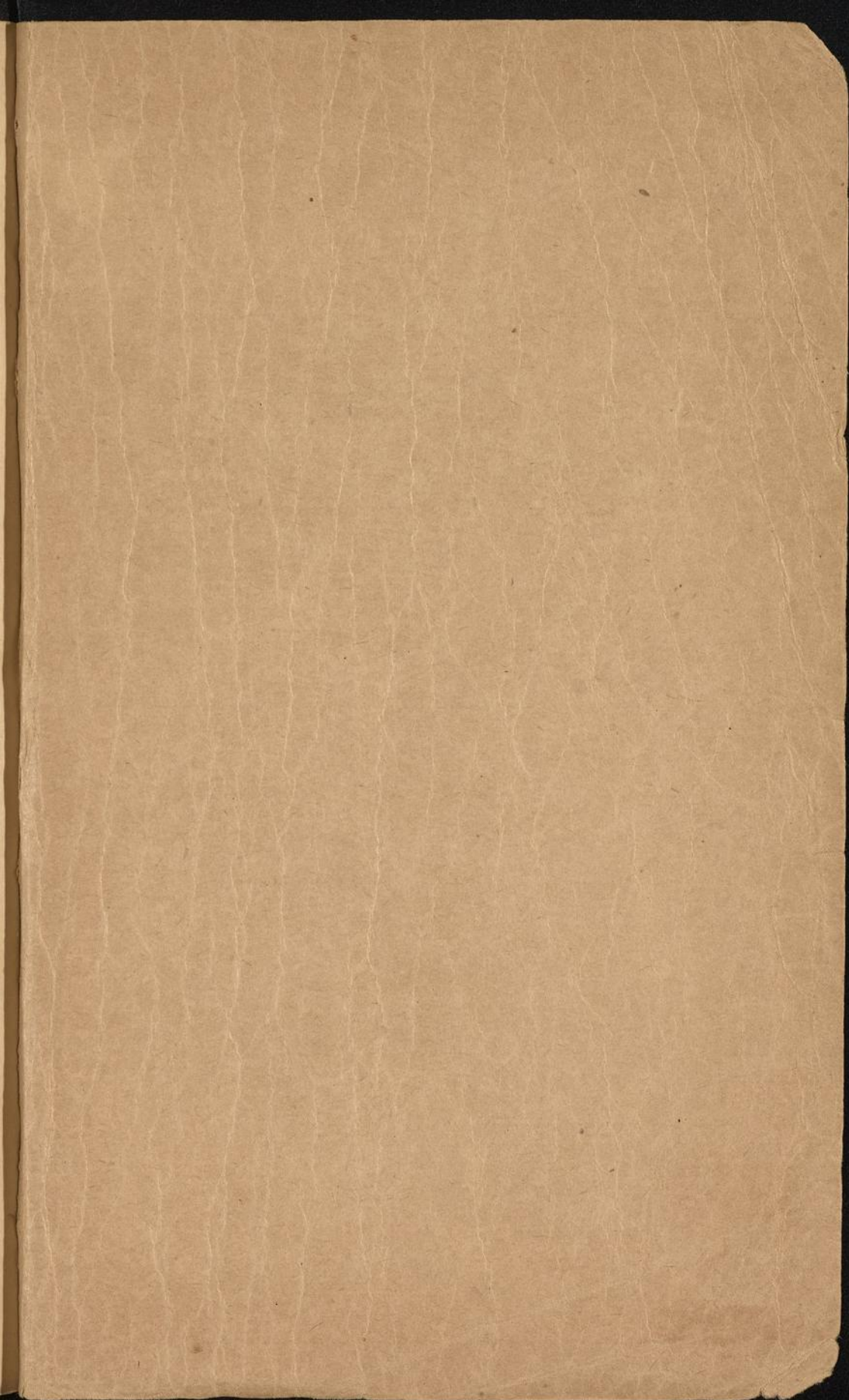
وصفته بحجة الفتوى وزارة المعارف من
طه حسين ، أحمد الاسكندري ، أحمد أمين ، علي الجارم ،
عبد العزيز البشري ، أحمد صيف

حقوق الطبع محفوظة للدار

المطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٩٣٠

505
521
522



١٩٣٠

١٩٣١

وزارة المعارف العمومية

المجيبك في تاريخ الأدب العربي

مقرر السنة الثالثة بالمدارس الثانوية

وضعت لجنة ألفتها وزارة المعارف من :
طه حسين ، أحمد الاسكندري ، أحمد أمين ، علي الجارم ،
عبد العزيز البشري ، أحمد ضيف

حقوق الطبع محفوظة للجنة

المطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٩٣٠

893.712

W 79

Ms. 14, 1955

فهرس الكتاب

العصر الجاهلي :

صفحة		
١	جزيرة العرب
٢	نسب سكانها
٣	اللغة العربية
٤	تاريخ الأمة العربية
٥	حياة العرب الاجتماعية
٧	أخلاقهم
٩	دينهم
١٠	ثقافتهم

الأدب الجاهلي :

X ١١	معنى الأدب
X ١١	تقسيم الكلام إلى شعور وثر
١٢	أسبقية الشعر
١٢	تاريخ الشعر
١٤	مسلك الشعر العربي
X ١٥	الشعر العربي
X ١٦	أغراض الشعر
١٧	أشهر شعراء الجاهلية
١٨	نموذج من الشعر الجاهلي
٢٠	تحليل لثلاث قصائد
X ٢٠	تحليل قصيدة لبيد
X ٢١	تحليل قصيدة طرفة
X ٢٣	تحليل قصيدة زهير
٢٥	النثر الجاهلي
٢٦	الخطابة في الجاهلية
X ٢٦	الأمثال الجاهلية

مكة :

X ٢٧	مركزها التجاري
X ٢٨	مركزها الديني
X ٢٩	قبيلة قريش
X ٢٩	لغة قريش

صفحة

محمد صلى الله عليه وسلم :

٣١	حياة الأولى
٣٢	بعثته
٣٣	هجرته
٣٤	حياة بالمدينة
٣٥	حجة الوداع
٣٦	شيء من أخلاقه

القرآن الكريم :

٣٧	نزوله منجما على حسب الحوادث
٣٨	جمعه في الرقاع
٣٨	كتابة المصاحف
٣٨	أغراضه ومعانيه
٣٩	أسلوبه

الحديث :

٤١	تدوينه
٤١	أغراضه
٤١	رأفته
٤٢	أثره في اللغة والأدب

وحدة الأمة العربية - أثر الفتوح في انتشار اللغة :

٤٢	الفتوح
٤٣	انتشار الإسلام واللغة العربية في البلاد المفتوحة

الحياة الإسلامية :

٤٤	المظاهر الدينية
٤٥	المظاهر الاجتماعية والسياسية

الأدب الإسلامي :

٤٧	تطور الشعر
٥٠	تكوين الأدب الإسلامي
٥٢	صورة من الحياة العربية الجديدة
٥٤	مواطن الأدب الإسلامي
٥٤	الأدب في الأمصار
٥٥	أغراض الشعر الإسلامي

صفحة	
٥٥	الغزل
٥٦	عمر بن أبي ربيعة
٥٧	تحليل قصيدة لعمر
٦٠	الغناء
٦٠	الشعر السياسي
٦٢	عبيد الله بن قيس الرقيات
٦٦	الأخطل
٧١	الفرزدق
٧٢	جرير
٧٣	مقارنة بين الفرزدق وجرير
٧٣	التقائض

الخطابة :

٧٥	دواعي الخطابة
٧٦	لغة الخطابة
٧٧	عادات العرب في الخطابة
٧٨	خطباء هذا العصر
٧٨	علي بن أبي طالب
٧٩	زياد بن أبيه
٨٠	تحليل خطبة زياد
٨١	الحجاج بن يوسف
٨٢	النثر الفني
٨٤	الثقافة العلمية والاسلامية الى آخر الدولة الأموية

العصر العباسي الأول :

٨٦	الحياة العربية في القرن الثاني للهجرة
٨٨	اختلاط الحضارات الأجنبية وتأثيرها في الأدب العربي
٨٩	الشعر في هذا العصر
٩٠	أغراضه وفنونه
٩٣	بشار بن برد
٩٣	شعره
٩٥	السيد الحميري
٩٦	مروان بن أبي حفصة

صفحة

٩٨	أبو نواس	→ X
٩٨	شعره	→ دليلاً
١٠٠	أبو العتاهية	
١٠٠	شعره	
١٠١	مسلم بن الوليد	
١٠٣	البحترى	—
١٠٤	أين الرومي	
١٠٥	ابن المعتز	
١٠٦	الخطابة والنثر الفني	→
١٠٧	أين المقفع	→
١٠٩	عمرو بن مسعدة	→
١٠٩	الجاحظ	→ X

لكن ~~هنا~~ ذكر الثقافة العلمية في هذا العصر :

١١١	المدينة
١١٢	البصرة والكوفة
١١٢	بغداد
١١٣	الفسطاط

التدوين والتأليف :

١١٣	التدوين
		(أ) التدوين في الأدب :
١١٤	الجاحظ
١١٥	المبرد
١١٥	ابن قتيبة
		(ب) علوم اللغة :
١١٦	النحو
١١٦	اللغة
١١٧	الخليل بن أحمد
١١٧	سيبويه
١١٧	الكسائي
١١٨	(ج) التاريخ والحكايات
		(د) العلوم الدينية :
١١٩	الحديث
١٢٠	الفقه

صفحة	
١٢٠ الامام أبو حنيفة
١٢٠ مالك
١٢١ الشافعي
١٢١ أحمد بن حنبل
١٢١ (٥) الترجمة - مصادرها

العصر العباسي الثاني :

١٢٢ نشأة الأوطان السياسية وأثرها في ظور آداب قومية
١٢٣ الأدب العربي في الشرق والعراق وفارس وخراسان في القرنين الرابع والخامس
١٢٣ الشعر والشعراء في المشرق
١٢٥ الشريف الرضي والبغدي والبجلي والبجلي والبجلي
١٢٦ مهيار
١٢٦ النثر الفني أو كتابة الترسل والانشاء
١٢٧ التدوين والتصنيف في المشرق
١٢٨ الخلاصة

١٢٩ الأدب في مصر والشام - زمن الفاطميين والأيوبيين
١٣٠ الشعر في مصر والشام - زمن الفاطميين والأيوبيين
١٣٦ ألفاظ الشعر وأساليبه
١٣٧ الشعراء
١٣٧ المتنبي
١٣٨ المعري
١٣٩ تميم بن المعز
١٤٠ النثر الفني أو كتابة الترسل
١٤١ التدوين والتصنيف

الأدب العربي في الأندلس :

١٤٢ تمهيد
١٤٣ حال اللغة والأدب زمن بنى أمية وملوك الطوائف - الحضارة في الأندلس
١٤٣ الشعر بالأندلس - زمن الأمويين والطوائف
١٤٤ أغراض الشعر
١٤٥ ابن هاني
١٤٦ ابن عديريه
١٤٦ ابن خفاجة

صفحة	
١٤٦	النثر الفنى في الأندلس
١٤٧	ابن شهيد
١٤٨	ابن زيدون
١٤٨	التدوين والتصنيف في الأندلس

✶ حال اللغة العربية في العصر التركي :

١٤٩	سقوط بغداد
١٥٠	مصر الممالك العربية
١٥٠	العلماء بعد سقوط بغداد
١٥١	المماليك
١٥١	هجرة العلماء الى القاهرة
١٥٢	موازنة بين هجرتين

٦ المجلد الأول
العربية الى سقوط
٦ المجلد الثاني
والثالث
١١ منقول
١١ منقول
١١ منقول
١١ منقول

مظاهر الأدب في هذا العصر :

١٥٢	أسباب ضعف النثر
١٥٣	أشهر الكتاب
١٥٤	أسباب ضعف الشعر

التأليف والمؤلفون :

١٥٧	أسباب نهوض التأليف
١٥٨	(أ) في علوم اللغة
١٥٨	(ب) التاريخ
١٥٩	(ج) الكتب الجامعة
١٦٠	الدروس والمدارس
١٦٠	كثرة المدارس
١٦١	أشهر المدارس
١٦١	أشهر المدرسين

العصر العثماني :

١٦٢	مظاهر ضعف المماليك
١٦٢	الفتح العثماني
١٦٣	النثر الفنى - ضعف النثر
١٦٤	الشعر - ضعف الشعر
١٦٥	التأليف والمؤلفون - حال التأليف
١٦٦	المدارس - تقهقر التعليم

النهضة الحديثة من الحملة الفرنسية الى الآن :

١٦٦	...	اتصال مصر بأوروبا
١٦٧	...	الحملة الفرنسية
١٦٨	...	البعثة العلمية
١٦٩	...	محمد علي
١٦٩	...	مدرسة الطب
١٧٠	...	ايقاظه الشرق
١٧١	...	تنظيم العلاقات العلمية بين الشرق والغرب
١٧١	...	اسماعيل وأتمامه ببناء جده

مظاهر النهضة الحديثة في العلم والأدب :

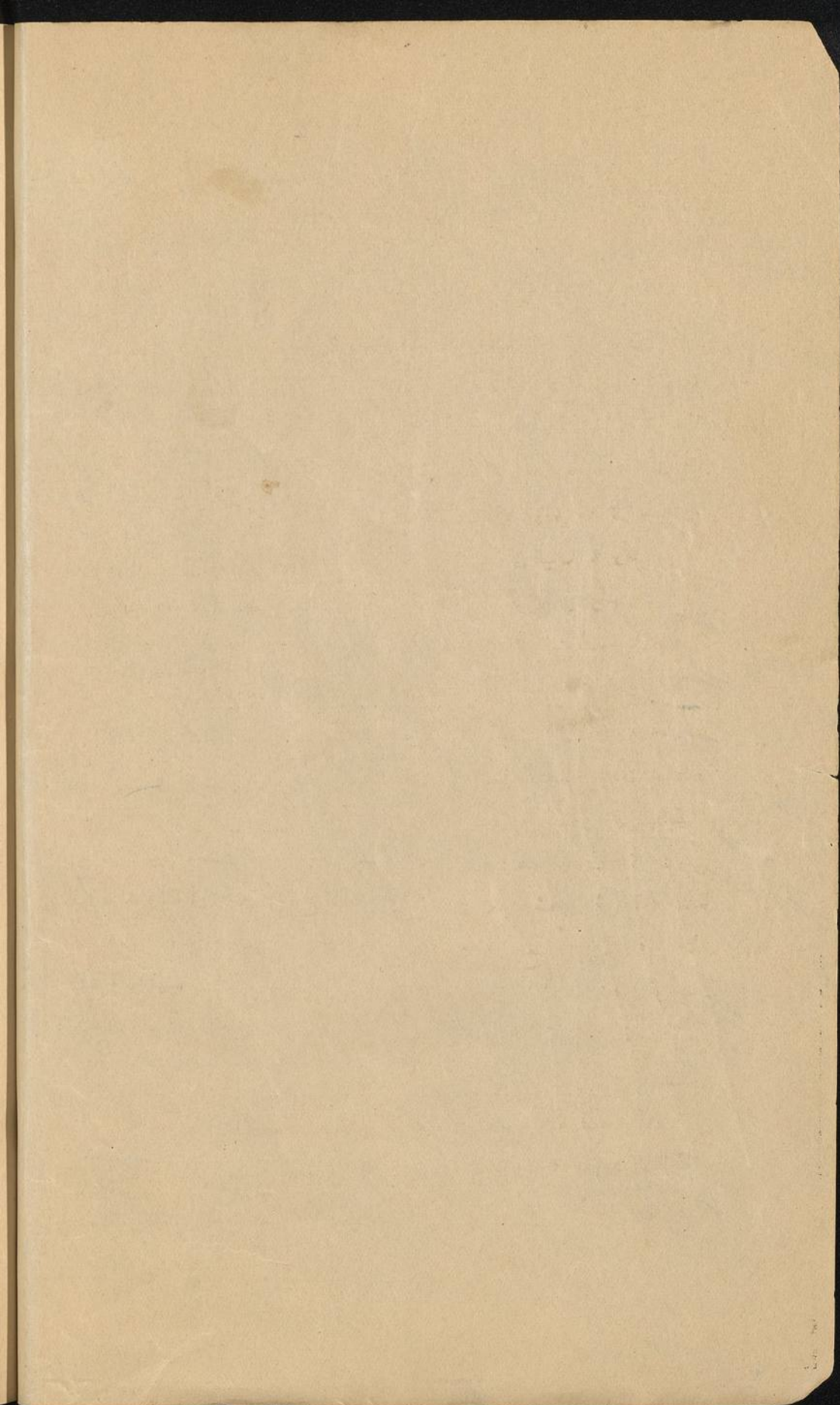
١٧٢	...	البعوث العلمية
١٧٢	...	الترجمة والتأليف
١٧٤	...	المدارس والمطابع
١٧٤	...	الأزهر
١٧٥	...	احياء الأدب القديم
١٧٦	...	الصحف
١٧٨	...	التمثيل

نهضة الأدب في أيامنا :

١٧٩	...	تمهيد
١٨١	...	تراجم لمشورى الرجال في العصر الحديث
١٨٦	...	الشعر - محافظته في الجملة على نهج الأدب القديم
١٨٦	...	أمثلة من البارودى وصبرى وحفنى ناصف
١٩٠	...	الخطابة وأنواعها
١٩١	...	الخطابة القضائية والاجتماعية
١٩٢	...	النثر - تطوره
١٩٢	...	تأثره بالأدب الغربى
١٩٣	...	أنواع النثر - النثر الاجتماعى
١٩٣	...	نثر الصحف
١٩٥	...	النثر الفنى
١٩٥	...	أمثلة من النثر الفنى فى ذلك العصر

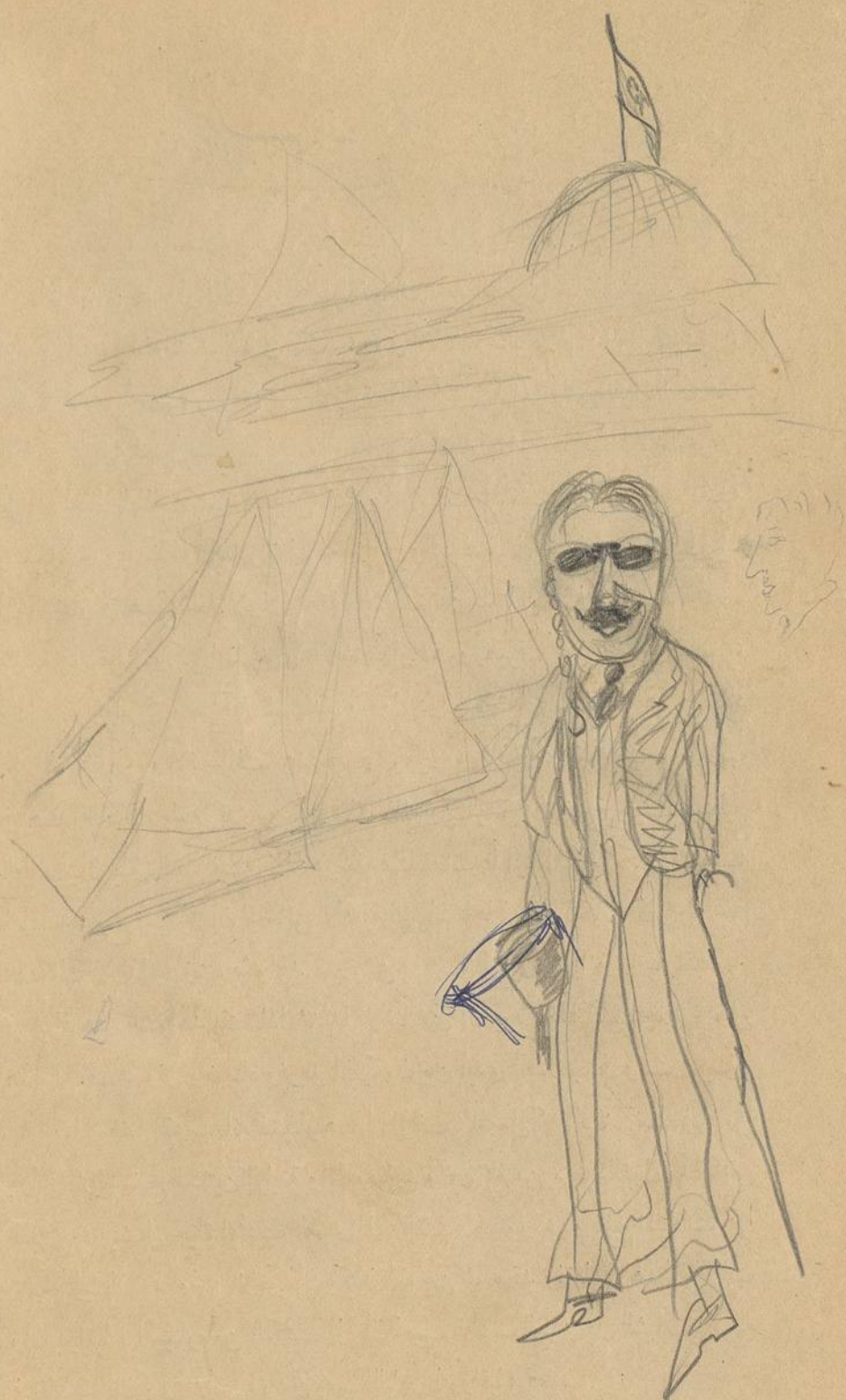
تأثره بأحياء
الأدب الغربى
القديم والإصطلاح
بالتدريج الأوروبى

١٩٥



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ومن والاه .
أما بعد : فقد أرادت وزارة المعارف أن تعيد النظر في مناهج الأدب العربي
للمدارس الثانوية فعهدت إلينا في ذلك ، وفي أن نضع كتباً تلائم المناهج الجديدة ،
فنهضنا بهذا الأمر ، ورفعنا إلى الوزارة مناهج أقزمتها ، ونحن نقدم الآن هذا
الكتاب شاملاً لمنهج السنة الثالثة ، وقد توخينا فيه كما توخينا في المنهج الحرس
على أن يحيط الطالب بما لا ينبغي أن يجهله الشاب المثقف ، من تاريخ لغته
وآدابها ، وعمدنا إلى السهولة في التعبير ، والتبسط في البيان ، لأننا رأينا
أن الإيجاز في هذا العلم لا يلائم عقل الشاب الذي لم تكن له في دراسة الأدب
سابقة ، على أنه كثيراً ما يغرى بالاستظهار ، ويصرف عن التدبر والفهم ،
وإذا كان للتعليم في مصر آفة تفسده وتحول دون الانتفاع به فأنما هي الاعتماد
على الذاكرة ، والانصراف عن النظر والتفكير ، فان رأى المعلمون والطلاب
في هذا الكتاب طولا فلا يروغتهم ذلك فانه من اليسر والوضوح بحيث يستطيع
الطالب أن ينعم النظر فيه فاذا هو ملم بما قصدنا إليه إماما يكفي لتثقيفه
وتأديبه . ومع أننا نعلم أن الحقائق الأدبية التي أثبتناها في هذا الكتاب لا تدرك حق
الادراك الا إذا عززت بشواهد كثيرة من الأدب العربي شعرا ونثرا قد اقتصدنا
في إيراد هذه الشواهد اقتصادا شديدا لأننا نرى أن يوضع لها كتاب خاص يساير
هذا الكتاب ، وقد وضعناه ونرجو أن يكون بين أيدي الطلاب في وقت قريب .
وإذا وفقنا الله سبحانه فسيتلو هذا المؤلف "المجمل" كتاب "مفصل" من
جزأين يلائم منهج السنتين الرابعة والخامسة ، وآخر يجمع من متخير القول ومصطفى
الكلام ما يمثل حياة الأدب العربي في مختلف العصور ، ويطلع الملكات على
صحيح البيان ، ونحن نرجو أن يكون الله عز شأنه قد وفقنا في هذا الكتاب
وأن يوفقنا فيما سيتلوه من الكتب إلى أن نحجب الأدب العربي إلى الشباب ونزينه
في قلوبهم فان رقى الأدب رهين بحب الناس له وأقبالهم عليه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العصر الجاهلي

الأمة العربية ، موطنها ، جنسها ، لغتها ،
حياتها السياسية ، والاجتماعية ، والعقلية

جزيرة العرب

في الجنوب الغربي من آسيا اقليم واسع الأرجاء ، تبلغ مساحته ربع أوروبا
تقريبا ، تساهل الأقدمون فسموه "جزيرة العرب" مع أن الماء لم يُحِط به من
جميع جهاته .

يتألف غربي هذا الاقليم من جزأين شهيرين : الحجاز شمالا ، واليمن جنوبا ،
أما الحجاز فقطر فقير ، قلت مياهه ، وأجذبت أرضه ، واشتدت حرارته ، يعتمد
أهله على الأودية القليلة ، والآبار الشحيحة ، لم يستطيعوا أن ينتفعوا كثيرا بالماء
الذي ينزل من السماء ، لأنهم لم يبلغوا من الفنون مبلغا يمكنهم من اختراعه واستخدامه
عند الحاجة اليه ، وأشهر مدنه مكة والمدينة والطائف .

وأما اليمن فقد اشتهر قديما بالغنى والخصب والحضارة ، كثرت أمطاره وسيوله
وعرف أهله ، بما أوتوا من فن ، أن ينتفعوا بها ، فأنشئوا السدود يسيطرون بها
على الماء جمعا وتصريفا ، وأشهر مدنه صنعاء ونجران وعدن .

وهذان القطران ، أعنى الحجاز واليمن ، أبعده البلاد أثر في حياة العرب
وفي تاريخهم السياسي والاقتصادي والأدبي .

وإذا وقع نظرك على (مصور) جزيرة العرب فأين ما ترى فيها وأبعده مدى
صحراؤها في داخلها ، وهي متنوعة في طبيعتها ، فسهلة لينة حينا ، وصلبة انتشرت
فيها الحصباء حينا ، ومفروشة بحجارة سوداء ، تسمى الحِجار ، حينا ، وهذه
الصحراء في جملتها قفر ، تسطع الشمس عليها في الحر فتلغح أرضها وأهلها ،
ويعتمد ساكنوها على ما تنبت به بعض البقاع عقب المطر فترعاه إبلهم وشياههم ،
وهم يأكلون من لحومها ، ويشربون من ألبانها ، ويلبسون من أصوافها
وأوبارها .

~~نسب~~

نسب سكانها

اعتاد النسابون أن يقسموا الشعوب إلى أجناس ويسموا كل جنس باسم
خاص يجمعها ، فاعتادوا أن يسموا الجنس الذي منه العرب الجنس السامي ، نسبة
الى سام بن نوح عليه السلام ، وعدوا من هذا الجنس البابليين والأشوريين
والعبرانيين والفينيقيين والآراميين والحبشيين ، ولكن هذا كله لا يزال موضع
خلاف بين علماء الأنساب ، كما اختلفوا في أن أصل الجنس السامي نشأ في آسيا
(في جزيرة العرب أو أرمينية أو على شاطئ الفرات) أو نشأ في إفريقية ثم نزع منها
الى آسيا .

من قديم وهؤلاء العرب ينقسمون الى عرب الشمال (الحجازيين) وعرب
الجنوب (اليمنيين) ويذكر النسابون أن عرب الشمال يرجعون في نسبهم الى اسماعيل
ابن ابراهيم عليهما السلام ، ويسمّون التزاريين نسبة الى زار من نسل اسماعيل .
لِعرَبِ يَمِينٍ وعرب الجنوب من نسل قَطَّان ، ويسمون اليمنيين أو القحطانيين ، وبين
هذين النوعين من العرب فروق ترجع في جملتها الى أن عرب الحجاز تغلب عليهم
عيشة البداوة ، وعرب اليمن يعيشون عيشة حضارة .

ولسنا نقصد أن عرب الشمال كانوا يسكنون الحجاز فحسب ، وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن ولا يتعدونها ، بل نعى أن كلا من الحجازيين واليمنيين عنصر يختلف في نسبه ودمه عن العنصر الآخر ، أو على الأقل في زعمهم . ولكن كانت بين العنصرين صلوات ، ورحل قوم من كل فريق الى موطن الآخر لأسباب يطول ذكرها ، فكان في الحجاز عرب من اليمن ، وكان في اليمن عرب من الحجاز .

وكل من اليمنيين والحجازيين ينقسمون الى قبائل :

فاليمانيون يتفرعون الى فرعين كبيرين : شعب كهلان ؛ وشعب حمير .

فشعب كهلان أشهر قبائله طيٌّ وهمدان ولحْم وكندة .

وشعب حمير أشهر قبائله قُضاعة وتَنُوخ وکلب .

والحجازيون كذلك ينقسمون الى قسمين كبيرين : ربیعة ؛ ومُضَر .

فشعب ربیعة أشهر قبائله : بكر ؛ وتغلب .

وشعب مضر أشهر قبائله قيس وتميم وهذيل وكنانة وقريش وكل قبيلة من

هذه القبائل تنقسم الى بطون وأنخاذ يطول عددها ، وكان بين هذه القبائل ، حتى

ما كان منها من أصل واحد ، من الحروب والمنازعات والتهاجي ما ملئت به

كتب التاريخ والأدب .

~~اللغة العربية~~ اللغة العربية

واذ قد ذكرنا قبل أن العرب والعبرانيين ومن اليهم يُعدون ساميين فلوغاتهم

التي يتكلمون بها تسمى لغات سامية ، فاللغة العربية احدى اللغات السامية وقد

عُرِفَتْ ، على النحو الذى نعلمه ، حول آخر القرن الخامس ليلاد .

ويذهب الباحثون في علم المقارنة بين اللغات الى أن اللغة العربية من أقرب

اللغات الى اللغة الأصلية التي تفرعت منها اللغات السامية ، نظرا لاحتباس العرب

اللغة العربية من أقرب اللغات الى اللغة الأصلية التي تفرعت منها اللغات السامية ، نظرا لاحتباس العرب

في بلادهم وقلّة النازحين منها والوافدين إليها ، وضعف العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم .

وكما انقسم العرب الى حجازيين ويمانيين انقسمت لغتهم الى مُصَرَّبِيَّة ، وحميرية وكانت هناك فروق بين اللغتين عظيمة — في الألفاظ اللغوية ؛ وفي الصيغ ، وفي التركيب وفي اللهجات . ولكن حدث قبيل الاسلام أن أخذت لغة الحجاز ، وبعبارة أدق لغة قريش ، تسود . وما زالت كذلك حتى ظفرت باللغة الحميرية ، وحتى صارت لغة قريش هي لغة جزيرة العرب جميعها ، وقد دعا الى هذه الظاهرة أسباب سياسية ودينية واقتصادية ستأتى الإشارة إليها بعد .

تاريخ الأمة العربية

ليس تاريخ الأمة العربية قبل الاسلام معروفاً محققاً لأن أكثر الأمم كانوا أهل بدو ، لم تُمكنهم بدوئتهم من أن يدقنوا تاريخهم أو ينقشوا حوادثهم ، حتى إن الذين تحضروا منهم كاليمانيين والحميريين لم يعثر الباحثون إلا على القليل من نقوشهم وآثارهم ، وإنما يعتمد الذين يؤرخون العرب قبل الاسلام على هذا القليل من الآثار ، وعلى ما كتبه عنهم أهل عصرهم من الأمم الأخرى كالليونان والرومان والمصريين والعبريين والحبشيين ، وعلى ما يستنبطون من بعض نصوص أدبية . ولنقص الآن كلامنا على حالة العرب قبيل الاسلام ، فإن اللغة العربية التي نُعنى بأدائها وتاريخها إنما عرفت في هذا العصر .

هذا العصر سماه القرآن الكريم "الجاهلية" ونسبنا اليه فقلنا العصر الجاهلي والأدب الجاهلي ، وقد يكون اشتقاق هذا الاسم من الجهل وهو ضد الحلم لما كان يغلب فيه من السفه والفخر بالأنساب والإمعان في سفك الدماء والعصبية الحادة ونحو ذلك مما كرهه الاسلام ونفر منه . وقد نُقلَ الينا كثير مما يدل على حالة هذا العصر الاجتماعية والسياسية من شعر وأمثال وقصص ، ولكنها كلها لم تدوّن في الكتب إلا في القرن الثاني والثالث للهجرة ، فكان بعضها مشاراً لنقد الناقدين ، وأخذ

العلماء والأدباء من قديم يحصونها ويصححون بعضها ويكذبون بعضها ، ولكن بجانب ذلك ورد كثير من آيات القرآن الكريم وصحيح الحديث يروى لنا الشيء الكثير عن هذه الحياة الجاهلية ويكشف لنا من غموضها .

يدلنا ما صح من تاريخهم على أنه قد أنشئ على تخوم جزيرة العرب الشمالية إمارتان كبيرتان : إمارة الحيرة في العراق بجوار الفرس ، وإمارة الغساسنة في الشام بجوار الرومان ، وكان يحكم هاتين الإمارتين أمراء من العرب يتبعون في نظامهم نظام الدول المجاورة لهم ، فإمارة الحيرة تتبع في كثير من شئونها نظام الفرس ، وإمارة الغساسنة تتبع في كثير من شئونها نظام الرومان .

وكان سكان هاتين الإمارتين وسكان اليمن في الجنوب يعيشون عيشة حضارة ، يزرعون ويصنعون ، وكثير من سادتهم مترفون "لَقَدْ كَانَ لِسَبَّأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ، وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ" وقد روى لنا الكثير عن ترف أمراء الغساسنة في الشام ، وعن حضارة الحيريين وما كان لهم من خورنق وسدير .

أما داخل الجزيرة والحجاز ، إذا أنت استنيت بعض سكان المدن المشهورة كمكة ويثرب والطائف — فكانوا أهل بدو يحرقون الزراعة والصناعة والتجارة ، ويعتمدون في معيشتهم على الابل ، ويوغلون بها في الصحراء يتطلبون منابت العشب ومرعى الشجر وموارد الماء ، ويأكلون مما تخرجه الأنعام .

حياة العرب الاجتماعية

كان سكان الجزيرة يعيشون عيشة قبائل ، فالقبيلة هي الوحدة التي يبني عليها نظام حياتهم ، وأفراد القبيلة ينتسبون الى أب واحد ، وقيل أن ينتسب اليها من لم يساهمها في نسبها الا عن طريق الحلف أو الولاء (١) .

(١) كان الأسير من قبيلة أخرى اذا لم يستطع فداء نفسه يسمونه بسمة القبيلة التي أسرته ، ويسمى حليفها . وكانوا يجيزون استرقاق الأسرى ، فاذا أعتق الأسير ظلت هناك صلة بين المعتق والمعتق وهذه الصلة تسمى الولاء .

تسود أفراد القبيلة فكرة العصبية ، فكل فرد يتعصب لقبيلته ويعنى بحفظ
نسبه ويفتخر به ، ويحنو على من يشاركه فيه ، ويسير على منهج قبيلته ، أصابت
أم أخطأت .

وما أنا إلا من غزية ان غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

والقبيلة تحمي من العدوان وتطالب بدمه ان جنى أحد عليه ، ولكل قبيلة
رئيس هو سيدها ، وهو مرجع الأفراد في اقامة العدل بينهم على حسب عرفهم
وتقاليدهم .

وعلاقة القبيلة بالقبيلة ، علاقة عدا ، — غالبا — تُغير عليها وتغنم من مالها
ورجالها ، والأخرى تبرص بها الدوائر لتنتقم منها .

يُغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا أو نُغير على وتر (١)

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى الا ونحن على شطر

من هذا تعلم أن العرب في الجاهلية ، عدا من ذكروا قبل ، لم تكن لهم
حكومة تسيطر عليهم جميعا وتُشرف على شئونهم ، لأن شرط قيام الحكومة
انتساب الأفراد الى المواطن لا الى القبائل وانحلال العصبية وقيام الجامعة
الوطنية أو الدينية مقام العصبية القبيلة ، وهي أمور لم تتوافر للعرب في جاهليتها .

كانت القبيلة تنقسم عندهم الى أسر ، ونظام الأسرة كان في هذا الطور هو
المعروف عند علماء الاجتماع : بطور السلطة الأبوية ، اذ كان الأب فيها واسع
السلطان نافذ الكلمة على كل أفراد الأسرة ، يتصرف في مالهم وفي شئونهم ،
ويقطع في الأمور دونهم ، وهو المرجع الأعلى لهم جميعا ، وكان بعض هذه الأسر
يمتاز بصفات وأعمال تجعل له الرياسة والشرف كبيت هاشم ، وبيت أمية في قريش
وبيت زُرارة في تميم وهكذا .

(١) الواتر القاتل ، والموتور الذي قتل له قبيل فلم يأخذ بدمه ، وواترين حال من الضمير

في علينا .

أخلاقهم

رأيت أن أكثر العرب أهل بدو ، ولأهل البدو صفات خاصة يتمدحون بها ويكثرون في شعرهم من ذكراها والتغنى بها ، ولعل من خير ما يمثل هذه الصفات ما جاء في قول تابط شراً . أحد الشعراء الجاهليين (١) اذ يمدح ابن عم له بأنه قليل الشكوى من الهم ينزل به ، بعيد الهممة واسع الأمل ، يسلك له شتى المسالك ، حليف الصحراء ، يُصبح في مفازة ويُمسي في أخرى ، يسير وحيدا لا يهاب ، ويركب المهالك ولا يخشى مواجهتها ، عداء يسبق الريح السريعة ، ان نام فانما تنام عينه ولا ينام قلبه ، وان صحا كانت عينه ديدبان قلبه ، وله سيف صارم ان أصاب به قرنا استقبلته المنايا متهلة ، لا يخشى الوحدة بل يأنس بها ، ويعرف مسالك الصحراء فلا يضل في سيره كما لا تضل الشمس ، وهذه صفات كما ترى هي المثل الأعلى للبدوي لا للحضري .

قد تمدحوا بالبروة وأكثروا من ذكراها ، وهو لفظ يجمع قانون الشرف ، عماده الشجاعة والكرم والوفاء ، وأكثر ما تتجلى فيه الشجاعة عندهم النزال والقتال والدفاع عن الأهل والقبيلة وتجدد المستصرخ ، وأكثر ما تتجلى فيه الكرم إيقاد النيران ونحر الجزور وإضافة اللاجئ .

كثيراً طوى شتى النوى والمسالك	(١) قليل التشكى للهم يصيبه
بحيشاً ويعرورى ظهور المهالك	بظل بمومة ويمسى بغيرها
بمنخرق من شدة المتدارك	ويسبق وفد الريح من حيث يتحى
له كالى من قلب شبحان فاتك	اذا حاص عينه كرى النوم لم يزل
الى سلة من حد أخلق صانك	ويجعل عينه ربيثة قلبه
نواجد أفواه المنايا الضواحك	اذا هزته فى عظم قرن تهلكت
بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك	يرى الوحشة الأنس الأيس ويهتدى

المومة المفازة التي لا ماء فيها . وبحيشا وحيدا ويعرورى ظهور المهالك يركبها مأخوذ من قولهم اعروريت الفرس اذا ركبته عاريا ليس عليه شيء . وفد الريح أوها والمعنى أنه يسبق الريح خلفته ، والمنخرق السريع ، والمتدارك المتلاحق ، حاص خاط والشيطان الحازم ، والقاتك الذى اذا هم بشيء فعله ربيثة القلب ديدبانه ويريد بالسلة السيف الذى يستل . أم النجوم الشمس .

فأما الشجاعة فيمثلها في نظرهم قول عمرو بن معد يكرب :

لَمَّا رَأَيْتُ نِسَاءَنَا يَفْحَصْنَ بِالْمَعْرَاءِ شِدًّا^(١)
 وَبَدَتْ "لَيْسَ" كَأَنَّهَا بَدْرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّى
 وَبَدَتْ مَحَاسِنُهَا الَّتِي تَخْفَى وَكَانَ الْأَمْرُ جَدًّا
 نَازَلْتُ كَبَشَهُمْ^(٢) وَلَمْ أَرَمِنْ نِزَالِ الْكَبِشِ بَدًّا
 هُمْ يُنْذِرُونَ دَمِي وَأُنْذِرُ إِنْ لَقِيتُ بَأْنَ أَشَدًّا
 كَمْ مِنْ أَخٍ لِي صَالِحٍ بَوَاتُهُ بِيَدَيَّ لِحَدًّا
 مَا إِنْ جَزَعْتُ وَلَا هَلَعْتُ وَلَا يَرُدُّ بَكَائِي زِنْدًا
 أَلْبَسَهُ^(٣) أَثْوَابَهُ وَخَلَقْتُ يَوْمَ خَلَقْتُ جَدًّا
 أَغْنَى غَنَاءَ الذَّاهِبِينَ أَعْدُ لِلْأَعْدَاءِ عَدًّا
 ذَهَبَ الَّذِينَ أَحْبَبَهُمْ وَيَقِيتُ مِثْلَ السِّيفِ فَرْدًا

وأما الكرم فمن خير ما يمثله في نظرهم قول عتبة بن يجر

فَقَالُوا غَرِيبٌ طَارِقٌ طَوَّحَتْ بِهِ^(٤) مَتُونُ الْفِيَا فِي وَالْخَطُوبُ الطَّوَائِحُ^(٣)
 فَقَمْتُ وَلَمْ أَجِمْ مَكَانِي وَلَمْ تَقُمْ^(٥) مَعَ النَّفْسِ عِلَاتُ الْبَخِيلِ الْفَوَاضِحُ
 وَنَادَيْتُ شِبْلًا فَاسْتَجَابَ وَرُبَّمَا^(٤) ضَمِنَا قِرَى عَشْرِ لِمَنْ لَا نَصَافِحُ
 فَقَامَ أَبُو ضَيْفٍ كَرِيمٌ كَأَنَّهُ^(٥) وَقَدْ جَدَّمَنْ فَرَطَ الْفَكَاهَةَ مَارِحُ
 إِلَى جِذْمٍ مَالٍ قَدْ تَهَيَّأَتْ سَوَامِهِ^(٦) وَأَعْرَاضُنَا فِيهِ بَوَاقٍ صَحَائِحُ

(١) المعرأة الأرض الصلبة ذات الحجارة ومعنى يفحصن بالمعراء شدا أي أنهن يؤثرن في الأرض الصلبة لشدة عدوهن .
 (٢) كبش القبيلة رئيسها .
 (٣) الخطوب الطوائح أي المصائب المهلكة ، وطوحت به حمانه على ركوب المهالك .
 (٤) شبل اسم ابنه وقرى عشر أي ضيافة عشريال لمن ليس بيننا وبينه مصادقة توجب مصالحته .
 (٥) أبو ضيف يريد نفسه .
 (٦) إلى جذم متعلق بقام في البيت قبله ويريد بجذم المال أصل المال وهو النوق التي قد نهكها ما عودها من النحر .

جعلناه دون الدَّم حتى كأنه إذا عُدَّ مألُ المَكثِرِينَ المناحِ^(١)
لنا حمدُ أربابِ المِثِينِ ولا يرى إلى بيتنا مألُ مع الليلِ رانِحِ^(٢)
قد أحبوا كثيرا وشربوا الخمر ولعبوا الميسر وشغفوا بالصيد وطربوا للغناء وتاقوا
إلى السَّمَر ، وكان هذا كله مادة لشعرهم وأديبهم .

دينهم

كان للعرب في الجاهلية دين ولكنه دين ضعيف ، لا يخلصون له ولا يصل
إلى أعماق نفوسهم ، وحسبنا دليلا على ذلك أننا ننظر فيما بين أيدينا من شعرهم
فترى فيه الصيد كثيرا ، والخمر والنساء والميسر كثيرا ، والفخر والهباء ووصف
القتال كثيرا ، ولكن قل أن نرى فيه شرحا لعاطفة دينية ، وقل أن نرى فيه ذكر
الله وتمجيده ، وقل أن نرى فيه وصفا لما كانوا يعبدون .

انتشرت اليهودية والنصرانية في بعض بقاع جزيرة العرب ، فقد كان فيها
مستعمرات يهودية من أشهرها يثرب وهي التي سميت بعدُ "بالمدينة" وكانت
اليهودية فيها آمنة مطمئنة ، كذلك انتشرت اليهودية في اليمن في أوائل القرن
السادس لئيلاد ، ولكنها كانت في نزاع مستمر مع النصرانية .

وانتشرت النصرانية في مَنَادِرَةِ الحِيرة ، وفي غساسنة الشام وسائر قبائله ،
وزاحمت اليهودية في اليمن ، وكان أشهر مراكز النصرانية في اليمن مدينة بَجْران ،
وكان القسيسون والرهبان يردون أسواق العرب يعطون ويشرون ، ويد ترون
البعث والحساب والحنة والنار ، واشتهر من شعرائهم وخطبائهم عدي بن زيد
وقس بن ساعدة ، ولكن اليهودية والنصرانية كانتا قليلتين إذا قيستا بالدين السائد
في الجزيرة وهو الوثنية ، فقد عبد العرب الأصنام ، وعظموا الأوثان ، ونصبوها
في الكعبة ، وقربوا لها القرابين ، وكان من أشهر هذه الأصنام بنات الله الثلاث ،
في زعمهم ، وهي اللات والعزى ومناة ، وكان تقديسها يكاد يعم قبائل العرب
وان كان ثم أصنام أخرى خاصة ببعض القبائل .

(١) المناح جمع منيحة وهي الناقة أو الشاة تدفع إلى الجار لينتفع بلبنها مادام بها لبن .

(٢) يقول ان مالنا قليل فأبنا بركة بفناء الدار انتظارا لضيف وهي ليست كثيرة حتى تصير سارحة
ورائحة ومع ذلك لنا من الحمد والثناء مثل ما للكثيرين ، أصحاب المئين .

حديثاً
بالحمد والثناء

ثقافتهم

كانت المدن على التخوم واليمن متحضرةً بعض تحضر ، فالآثار التي عُثر عليها في اليمن والحيرة ، وما نقل عن أهلها يدل دلالة صادقة على أنهم كانوا على حظ من الفن والعلم غير قليل . فأهل الحيرة تسرب اليهم شيء من علوم الفرس وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم . والغساسنة في الشام تسرب اليهم شيء من حضارة الرومان واليونان وآدابهم ، واليمن أمة عريقة في المدنية كانت تتصل بالفرس وتتصل بالحبشة وتتصل بالرومان . ولها معهم جميعاً صلوات — تجارية — أما ما عدا هؤلاء من سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلاً .

وعلى الجملة كان للعرب معرفة بالأنساب ، ومعرفة بشيء من أخبار الأمم ، ومعرفة بشيء من الطب ولكن شيئاً من ذلك لم يصل إلى درجة يسمى معها علماً ، لأنه إنما يسمى علماً إذا نُظِمَ ووضعت له القواعد العامة ودون في الكتب ، وما كان عند العرب من ذلك لم يعد أن يكون معلومات عملية أولية ، وتجارب ينقصها الاستقراء ، ونظرات عامة يعوزها التعمق والاستقصاء .

أما من الناحية الأدبية فكان لهم شعر وقصص وأمثال وقد طبع كل ذلك بطابع عقليتهم التي أنتجها تاريخهم وبيئتهم كما سترى .

الأدب الجاهلي

معنى الادب

يكون الكلام جيدا اذا قرأته أو سمعته فأعجبك وأرضاك، وآنت من نفسك شغفا به وارتياحا اليه ورغبة في أن تعيد قراءته أو تسمعه مرة أخرى .

وانما يعجبك الكلام ويرضيك لأنه يلائم ذوقك ، ويوافق طبعك، ويصوّر لك الأشياء كما تجدها أنت حين تخلو اليها وتفكر فيها .

وملاءمة الكلام لذوقك ، وموافقته لطبعك ، قد تأتيان من المعاني التي يدل عليها هذا الكلام ، وقد تأتيان من المعاني والألفاظ جميعا .

تكون في المعاني قوة أو رقة فتعجبك لهذه القوة أو الرقة ، وتكون الألفاظ نعمة جزلة أو عذبة سهلة فتعجبك لهذه الفخامة والجزالة ، أو لهذه العذوبة والسهولة، وتجتمع هذه الصفات كلها أو بعضها في ألفاظ الكلام ومعانيه فيعجبك الكلام كله ، ويبعث في نفسك الرضا والاطمئنان ، ومتى كان الكلام جيدا على هذا النحو فهو الذي اعتاد القدماء والمُحدّثون أن يجمعوه ويقيدوه في الذكرة أو في الكتب ويسمونه "أدبا" .

تقسيم الكلام الى شعر ونثر

والأدب ينقسم قبل كل شيء الى قسمين : أحدهما كلام منظوم يعتمد في لفظه على الوزن والقافية ، وفي معانيه على الخيال ، والعرب تسمى هذا النوع من الكلام "شعرا" والثاني لا يعتمد في ألفاظه على وزن ولا قافية ، وانما هو مطلق حر لا يلتزم صاحبه قيادا من هذه القيود التي تُلْتَمَز في الشعر ، ولا يعتمد في معانيه على الخيال وحده وانما أكثر اعتماده على التفكير الصحيح ، والمنطق المستقيم ، والعرب تسمى هذا النوع من الكلام "نثرا" .

والناس اذا تحدّث بعضهم الى بعض في حاجاتهم ومصالحهم لم ينظموا الكلام ولم يلتمسوا له القوافي . ولكنهم يرسلونه إرسالا على سيجيتهم ، وعلى ما تدعو اليه الحاجة والمصلحة ، فهذا النحو من الكلام الذي نسميه "لغة التخاطب" ليس شعرا . وهو في الوقت نفسه ليس هو النثر الذي يحفظ ويروى ويتأدّب به ، والذي هو أحد قسمي الأدب ، وانما هو غالبا كلام عادي لم يقصد أصحابه فيه غالبا الى الاجادة ولا الى الجمال الفني ، وانما أرادوا تأدية ما في نفوسهم من المعاني وتحقيق ما تقتضيه منافعهم من الاغراض .

أسبقية الشعر

فعدنا الآن نوعان من الأدب شعر : ؛ ونثر فني ، والشعر أسبق قسمي الأدب الى الظهور ، لأنه كما قدمنا يعتمد في معانيه على الخيال الحر ، على حين يعتمد النثر الفني على المنطق والتفكير ، والخيال يسبق التفكير في حياة الأفراد والجماعات ، فالطفل يتخيل قبل أن يفكر ، ونحن نجد عند الجماعات الساذجة ، التي لم تتحضر بعد ، كلاما له وزن وقافية دون أن نجد عندها نثرا فنيا صحيحا خليقا بالجمع والتقييد . ولأن الشعر متصل بالغناء فالناس يغنون شعرا قبل أن يغنوا نثرا ، لأنهم يجدون في الشعر أوزانا تلائم تقطيع الغناء وأنغامه . ومن هنا بدأت الآداب القديمة كلها بالشعر ، ولم يظهر فيها النثر الفني الا بعد أن أخذت الجماعات بحظ قليل أو كثير من الحضارة والرق العقلي ، وبعد أن ظهرت فيها الكتابة ، واستطاع الناس أن يتخذوها أداة للعلاقات فيما بينهم .

تاريخ الشعر

والأمة العربية كغيرها من الأمم القديمة الراقية لها أدب ممتع فيه الشعر الرائع والنثر البديع ، وهي كغيرها من الأمم القديمة الراقية قد قالت الشعر وبرعت فيه قبل أن تقول النثر الفني وتُجيد كتابته .

ولا سبيل الى أن نعرف متى ظهر الشعر في الأمة العربية ، لأننا نكاد نجهد كل شيء من تاريخ هذه الأمة العربية في عصورها الأولى .

وقد كان القدماء من علماء العرب يجهلون أولية الشعر العربي وينكرون ما يرويه القصاص من الشعر الذي ينسب الى عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها من القبائل البائدة، وكانوا يُسمّون بأن أكثر الشعر العربي قبل الاسلام قد ضاع ولم يصل اليهم منه الا الشيء القليل ، وكانوا يظنون أن ما صحَّ عندهم من شعر العرب في العصر الجاهلي لا يمكن أن يؤرخ بأكثر من قرن ونصف قرن قبل ظهور الاسلام ، والواقع أن أكثر الشعراء الجاهليين الذين نعرف لهم شعرا صحيحا قد أدركوا عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من مات قبيل البعثة ، ومنهم من مات بعدها بقليل دون أن يُسلم ، وكثير منهم دخل في الاسلام وعمر فيه عمرا طويلا أو قصيرا . وربما كان من الحق أن نقول إن أكثر هؤلاء الشعراء عاشوا في القرن السادس للمسيح . ومعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد في آخر الربع الثالث لهذا القرن .

والقدماء من علماء العرب لا يتفقون ، كما قدمنا ، على أولية الشعر ، كما أنهم يختلفون في الشاعر أو الشعراء الذين حملوا لواء هذه النهضة ، فبعضهم يقول إنه امرؤ القيس بن مجر الكندي ، وبعضهم يقول إنه مهلهل بن ربيعة التغلبي ، وآخرون يقولون إنه عمرو بن قميئة البكري ، واختلافهم هذا فيه وجه من وجوه الاتفاق هو الذي يحسن أن نحفظ به ونتخذة وسيلة لتعرف أول النهضة الشعرية عند العرب الشماليين ، فهؤلاء الشعراء الثلاثة الذين سميناهم كانت مواطن قبائلهم في العراق ونجد ، وفي العراق ونجد التقت في القرن الخامس والسادس للمسيح قبائل من عرب الشمال وأخرى من أهل اليمن ، واختلط أولئك وهؤلاء بالفرس ، فليس غريبا أن يكون هذا الاختلاط وما نشأ عنه من جهاد وخصومة وتنافس مصدر نهضة قوية كان الشعر من أقوى مظاهرها ، ومهما يكن من شيء فقد شاع من هذه الناحية وامتد حتى شمل نجدا والمجاز فكثير فيهما الشعراء ، ولم تبقى قبيلة من قبائل العرب النازلة في هذين الأقليمين ولا مدينة من المدن القائمة فيهما الا ولها شاعر أو شعراء يذكرون مآثرها ، ويتغنون بمفاخرها ، ويناضلون عن حقوقها ، ويذودون عنها حين تحتاج الى الدفاع .

مسلك الشعر العربي

وقد سلك الشعر العربي منذ نهضته هذه سبيلا خاصة لم يسلكها غيره من الشعر الأجنبي القديم ، فقد بدأ الشعر الأجنبي القديم دائما قصصيا يتناول حياة الآلهة والأبطال في قصائد طويلة مسرفة في الطول ، فيصفها وصفا دقيقا مفصلا ، ويصوّر ما كان بين أولئك الآلهة والأبطال من حرب وسلم ، ومن خوف وأمن ، ومن خصام ووفاق ، وكانت هذه القصائد الطوال شعرا اجتماعيا ، بمعنى أنها كانت مرآة لحياة الجماعات ، لا يكاد يظهر فيها شخص الشاعر المثنى لها ، وكان أصحابها ورواتها ينتقلون بها في المدن يُنشدونها أمام الجماعات في شيء من الغناء ، وعلى نحو من التوقيع ، حتى إذا تطوّرت الحضارة وتغيرت نُظُم الحياة وظهرت شخصية الأفراد وقويت حقوقهم أحس الشعراء أنفسهم ، وأنشئوا شعرا جديدا يصف نفوسهم وعواطفهم وشعورهم وحياتهم ، وهذا الشعر هو الشعر الغنائي ، كان الشعراء أول الأمر يتغنّون به أمام الجماعات معتمدين فيه على التوقيع الموسيقي ، وقد يعتمدون مع الموسيقى على الرقص أيضا ، وهذا الشعر الغنائي هو الذي أنشأ المدح والهجاء والرثاء والغزل والفخر وما إليها من هذه الفنون التي تصوّر حياة الفرد تصويرا قويا ، ثم تطوّرت عندهم الحضارة بعد ذلك ، وخطا الإنسان خطوة أخرى بعيدة في سبيل الحرية الفردية والاجتماعية ، فنشأ نوع من الشعر جديد يصف حياة الجماعات كما هي ، أو كما كانت أو كما يجب أن تكون ، وهذا الشعر يعتمد على الحوار والحركة والغناء معا . كان يوضع في شكل قصة ملهية أو محزنة تُمثّل أمام النظارة في الملاعب وهو الشعر التمثيلي ، هذه هي السبيل التي سلكها الشعر القديم عند اليونان والرومان ، ثم سلكها شعر القرون الوسطى في أوروبا ، ثم سلكها الشعر الحديث على شيء من التطوّر والاختلاف ، وهذه السبيل نفسها سلكها الشعر الآري في الشرق كالهند ، فقد نشأ قصصيا ثم استحال غنائيا ، ولكنه لم يصل إلى التمثيل .

أما الشعر العربي ، كما نعرفه ، فقد سلك سبيلا خاصة ، فلسنا نعرف فيه شعرا قصصيا بالمعنى الذي قدمناه ، وإنما أول عهدنا بالشعر العربي الشعر الغنائي ،

أى هذا النوع الذى يصف حياة الفرد وعواطفه وميوله وأهواءه ، والذى ان وصف حياة الجماعات فهو لا يهمل فى هذا الوصف شخصية الشاعر ولا عواطفه وميوله ، فالشاعر فيه مرآة للجماعة فى حين أن الجماعة فى الشعر القصصى مرآة للشاعر . ولم يعرف الشعر العربى فن التمثيل ، وانما ظل غنائيا الى الآن ، وتطور فى حدود النوع الغنائى لم يتجاوزها ، وقد تناول الشعر العربى منذ العصر الجاهلى الفنون التى يتناولها الشعر الغنائى عادة ، ففيه الفخر بالماثر الفردية وماثر القبيلة ، وفيه المدح للأفراد النابهين وللقبائل ، وفيه الرثاء وفيه الهجاء وفيه الغزل . ولكن حظوظ هذه الفنون من القوة والكثرة ليست متشابهة فى هذا العصر ، فمنها ما كان ضعيفا قليلا لم يقو ولم يكثر الا بعد الاسلام .

الشعر العربى

والشعر العربى ، فى هذا العصر الجاهلى وغيره من العصور الأدبية العربية ، قصير بالقياس إلى غيره من الشعر الأجنبى ، قوامه القصيدة ، وهى مقدار من الأبيات يطول حتى يبلغ المائة أو يتجاوزها بعض التجاوز ، ويقصر حتى لا يبلغ العشرة ، وربما قصر نفس الشاعر فلم يزد على سبعة أبيات ، فسمى شعره "مقطوعة" والقصيدة أو المقطوعة وحدة مستقلة تتناول موضوعا بعينه أو موضوعات يتصل بعضها ببعض ، ولها مشخصات ثلاثة : أولها المعنى أو الموضوع ، وهو الغرض الذى يحاول الشاعر السعى إليه وتصويره بما يقول من شعر : مدح فى هذه القصيدة ، ونفر فى هذه ، ورثاء فى تلك ، وهكذا . والثانى القافية وهى حرف يلتزمه الشاعر فى قصيدته أو مقطوعته يختم به أبياته كلها لا يتجاوزها ولا يضع مكانه حرفا آخر ، فطولة امرئ القيس لامية لأن صاحبها التزم اللام فى آخر أبياتها جميعا ، ومطولة طرفة دالية ، ومطولة زهير ميمية ، ومطولة عمرو بن كلثوم نونية ، وعلى هذا النحو . والثالث الوزن ، وهو نوع من النظام الموسيقى يتألف من أجزاء على نحو خاص . والشاعر يلتزمه فى القصيدة أو المقطوعة كما يلتزم القافية ، بحيث متى ابتداء قصيدة على نحو من الوزن لم يجوز أن يعدل عنه إلى نوع آخر حتى يفرغ من قصيدته .

وقد عرف العرب في العصر الجاهلي أوزانا مختلفة نظموا عليها الشعر ، ووضع أدباؤهم بعد الاسلام لها أسماء تمايز بينها ، منها الطويل والكامل والوافر والخفيف والرحز وغيرها ، فطولة امرئ القيس من الطويل ، ومطولة عمرو بن كاثوم من الوافر ، ومطولة الحارث بن حلزة من الخفيف ، ومطولة ليبد من الكامل وعلى هذا النحو .

والشاعر العربي اذا أراد أن يقول الشعر في غرض من الأغراض لم يهجم على غرضه منذ أول القصيدة عادة ، وإنما يسعى اليه في رفق وعلى مهل ، فيبدأ بذكرياته الخاصة فيتغنى بها في أبيات تطول أو تقصر ، كأنه يريد أن يستجمع قواه ، وأن ينبئه السامعين ويعدّهم لما سيقول ، وأكثر ما يهتم به الشاعر من ذلك ذكر صاحبه أو امرأته ، وأطلال الدار التي كانت تسكنها ، وقد يُعنى بالدار وأطلالها أكثر مما يعنى بأهلها ، حتى اذا أرضى حاجته من ذلك ذكر نفسه وما تعود من سفر ورحلة ، وربما ألهاه عن نفسه وصفه للناقة التي يعتمد عليها في سفره ، وللطريق التي يقطعها على هذه الناقة ، ثم ينتقل من ذلك الى ما يريد بقاءة في أكثر الاحيان ، وفي شيء من التلخص والحيلة أحيانا ، وهذا النحو من تكوين القصيدة ألفه العرب الجاهليون لأنه كان ملائما لحياتهم وبيئاتهم الخاصة ، ثم أصبح دستورا للشعراء بعد ظهور الاسلام يلتمونه في أكثر الأحيان على أنه أصل من أصول الفن الشعري وان لم يكن بينه وبين حياتهم وبيئتهم صلة .

أغراض الشعر

وأغراض الشعر العربي في العصر الجاهلي يسيرة ساذجة لاتعقيد فيها ولا تكلف فالشعر كان في ذلك العصر مرآة لحياة أصحابه ، وحياة العرب في العصر الجاهلي لم تكن معقدة تعقيد الحياة عند الأمم المتعنة في الحضارة ، فكثير من هؤلاء العرب كانوا يعيشون عيشة بدوية خالصة ، وبعضهم كان يبلغ حظا من الحضارة ولكنها حضارة لم تخلُ بعدُ من شائبة البداوة ، ومن هنا سهلت أغراض الشعر العربي في هذا العصر ، فكان الشعراء ينظمون الشعر ليصفوا ما يقع تحت حسهم من مظاهر الحياة الطبيعية في بلاد العرب ، يصفون الصحراء وما فيها من حيوان ،

ويصفون ابلهم ، ويصفون ما يرّون من نجوم السماء ، ويصفون الخيل والسلاح
والصيد وأدوات الحرب ، وكانوا يقولون الشعر يصفون به ما يلقون من شدة
في حياتهم وفي جهادهم المتصل لكسب الأمن والحياة ، وكانوا يقولون
الشعر لمدح السادة والرؤساء ورثائهم ، وهجاء خصومهم ، والفخر بماثر الأفراد
والقبائل ، وكانوا يقولون الشعر يصفون فيه النساء وما يُرثن في النفوس من لوعة
وهوى ، وما يُسبغ عليها أحيانا من نعمة ورضا ، ولم يكادوا يتجاوزون هذه
الأغراض .

وكانوا اذا عرضوا لها قصدوا الى تأديتها من طريق المعاني السهلة اليسيرة
المألوفة في بيئاتهم ، لا يتكلفون ولا يَشقون على أنفسهم في التماس المعاني الدقيقة
العويصة ، كما أنهم كانوا يؤدون هذه المعاني بألفاظ متخيرة ، فيها جمال وروعة ،
وفيها متانة ورسانة ، ولكنها غير ممعنة في الغرابة والحوشية ، ولا سيما اذا لاحظنا
أن أولئك الشعراء انما كانوا ينظمون الشعر لبيئاتهم وجماعاتهم ، لا لبيئاتنا
وجماعاتنا ، فلا ينبغي أن نتخذ آذاننا مقياسا لآذانهم ، فاذا شق علينا لفظ من
ألفاظهم أو أنكرناه فليس معنى ذلك أن هذا اللفظ قد كان شاقا منكرا في البيئة التي
كان يعيش فيها الشاعر ويقول لها الشعر ، على أن كثيرا مما بقي لنا من الشعر العربي
الجاهلي سهل سائغ في متانة وشدة أسر ، نسمعه فلا تضيق به ولا ننفر منه ،
وربما كان الشعر الجاهلي المسرف في الغرابة ، والشعر الجاهلي المسرف في السهولة
أبعد شيء عن الجاهليين ، قد وُضع عليهم في عصور متأخرة .

أشهر شعراء الجاهلية

وقد اشتهر من الشعراء في العصر الجاهلي قوم كثيرون من قبائل مختلفة ،
وفي أقاليم متباينة ، ولكن القدماء من العرب ، بعد الاسلام على الأقل ، كانوا
مجمعين على تفضيل أربعة من هؤلاء الشعراء يعدونهم زعماء الشعر وقادته ، وأساتذة
النابعين فيه ، وهم : امرؤ القيس بن حجر ، وزيايد بن معاوية المعروف بالنايقة ،
الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وقيس بن ميمون المعروف بالأعشى ، وكان القدماء
يختلفون في تقديم بعض هؤلاء الشعراء على بعض ، وكان لكل واحد منهم أنصار من

الوصف
المدح
الارتداء
الأكابر
السك

السفر
التي
X X

انزلت
الذبياني
الزهير بن ابي سلمى

أهل البادية والحاضرة ومن العلماء ، يقدمونه ويرونه زعيم الشعر ، وكانوا يقدمون
بعد هؤلاء الشعراء جماعات أخرى نذكر منها : طرفة بن العبد ولييد بن ربيعة
وعمر بن كاثوم التغلبي ، وعمتر بن شداد العبسي ، والحارث بن حازمة اليشكري ،
وعبيد بن الأبرص .

طرفة بن العبد
لييد
عمر بن كاثوم

عمتر
الحارث
عبيد

واختار القدماء بعد القرن الأول للهجرة عشر قصائد هؤلاء الشعراء العشرة
سموها "المطلوبات" ثم سميت بعد ذلك بالمعلقات ، والناس يعنون بهذه القصائد
العشر عناية خاصة ، فيجمعونها ويفسرونها ، ويقرءون لها الكتب ، ويحفظونها ،
على أن هناك شعراء آخرين ليسوا أقل من هؤلاء العشرة حظا من الشعر ولهم نباهة
شأن فيه ، ، وليس هنا مكان الوقوف عند شعراء العصر الجاهلي للدرس المفصل
والتحليل الدقيق ، وإنما الذي نقصد إليه إنما هو أن نعطي من الشعر في هذا
العصر صورة صحيحة موجزة بقدر الاستطاعة ، تتخذ نموذجا لما كان شائعا فيه
من الشعر .

نموذج من الشعر الجاهلي

وانتخرت ثلاث قصائد لثلاثة من هؤلاء العشرة وهي قصيدة لييد التي مطلعها :

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلَّها فَمَقامُها مِني تَأبَّدَ غَوَلُها فَرِجامُها

وقصيدة طرفة التي أولها :

نَحْوَلَةَ أَطالُ بِرُقَّةِ شَمَدِ تَلوْحُ كِباقي الوشمِ في ظاهِرِ اليَدِ

وقصيدة زهير التي أولها :

أَمِنَ أُمٌّ أوفى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحِوْمَانَةَ الدَّرَاجِ فَالْمَتَلِّمْ

ولنلاحظ قبل كل شيء أننا لانعرف الا القليل من حياة هؤلاء الشعراء الثلاثة ،

فأما لييد بن ربيعة فكان عامريا ، من قبيلة قيس ، عاش دهرا في العصر الجاهلي ،
وكانت عيشته عيشة الشعراء الفرسان الأغنياء ، وقال كل شعره أو أكثره في هذا
العصر ، ثم أدرك الاسلام ودخل فيه ، وسُغِلَ بحفظ القرآن وتلاوته عن الشعر ،

وعاش بعد فتح العراق في الكوفة عيشة رجل وادع كريم ، يبذل ما ملك ليعين الضعفاء ويطعم الجائعين ، حتى كان بعض أمراء الكوفة يطلب الى المسلمين أن يعينوه على مروءته ، ويقال انه عمّر في الاسلام نحو نصف قرن .

وأما طرفة بن العبد فكان بكريا من ربيعة ، لا نكاد نقطع من أمره إلا بأنه مات شابا ، كانوا يسمونه ابن العشرين ، وكانوا يختلفون بعد ذلك في تحقيق سنه حينما قتل ، وكانوا يروون أنه نادم النعمان بن المنذر مع خاله المتلمس الشاعر ، ثم ساءت الصلة بين الملك والشاعرين لأسباب يختلف فيها الرواة ، فدفع الملك الى كل منهما كتابا إلى أحد عمّالهما ، وخيّل اليهما أنه يأمر عامله في كتابه هذا بأن يعطى كلا منهما جائزة ، فانصرف الشاعران حتى إذا كانا في طريقهما شك المتلمس في كتابه فأقرأه غلاما من أهل الحيرة فاذا فيه أمر بقتل الشاعر فألقى كتابه في النهر ، وهرب الى الشام ، وأنفق حياته في هجاء النعمان والتأليب عليه ، وأبى طرفة أن يُقْرِئ كتابه أو أن يشك فيه ، ومضى حتى انتهى الى عامل النعمان فتمتله ، ومهما يكن من أمر هذه القصة فقد مات طرفة شابا ، وبقى لنا من شعره شيء قليل ولكنه على قلته قيمٌ ممتع ، يمثّل نفسا قوية أبية كانت على حداتها تنظر الى الحياة وتحكم عليها حكم المجريين .

وأما زهير بن أبي سلمى المزيّ فقيسي مضرى ، اشتهر بمدحه الجيد الكثير لرجل يقال له هيرم بن سنان ، كان سيدا غنيا توسط مع صاحب له يقال له الحارث بن عوف في الاصلاح بين قبيلتي عبس وذبيان ، فعصاهما من الحرب وآلماها ، واحتملا الديات عمن وقع بينهما من القتلى ، فأدياها من مالهما الخاص فمدحهما بذلك زهير ، وانقطع لهرم فوقف عليه كثرة شعره ، وكان زهير رجلا حكيما طيب النفس ، موثرا للخير ، محبا للسلم داعيا اليه ، مات بعد أن أدرك عصر النبي صلى الله عليه وسلم وترك ابنين أسلما وحسن بلاؤهما في الاسلام ، وكان لهما فيه شعر كثير .

تحليل لثلاث قصائد

في شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة أصدق صورة يمكن أن يعطيها الشعر القديم حياة العرب في آخر العصر الجاهلي ، وإيا كانت تضطرب به هذه الحياة من أمل أو يأس ، ومن رجاء أو قنوط ، ومن اطمئنان واذعان أو طموح الى مثل أعلى بعيد المنال .

تحليل قصيدة لبيد

فأما قصيدة لبيد فمتينة اللفظ والأسلوب ، فيها ضخامة وصلابة حتى في أبياتها السهلة اليسيرة ، وهي تمثل الحياة البدوية العادية وما يطمح اليه الرجل الكريم النبيل من مجد وسؤدد وبعد صيت ، بدأها لبيد بذكر الديار وخلوها من أصحابها وتعرضها للرياح والأمطار تعبث بها ونحو معاملها فلا تبق منها الا الشيء القليل . وانتقل من الديار الى صاحبتة فألم بذكرها إمام اليأس من لقاءها فقال :

مريّة حلت بفيدي وجاورت أهل الحجاز فأين منك مرأها

ولم يُطل الحديث عنها لأنه صاحب جدّ وحزم لا يضيع وقته وجهده فيما لا سبيل اليه ، فهو يتركها الى ناقته التي يعتمد عليها حين يريد أن يسلي الهموم عن نفسه بالأسفار البعيدة الشقة فيقول :

بطلح أسفارٍ تركن بقيّة منها فأحرق صلّبها وسنامها

ثم يأخذ في وصف هذه الناقة وصفا دقيقا ، يصف خلقها وهيئتها ، ولكنه يُعنى بسرعتها عناية خاصة ، وتلهمه هذه العناية تشبيهات ثلاثة خصبة ممتعة ، فيشبه ناقته بالسحابة الخفيفة تندفع بها الريح في سرعة قوية ، ويشبه ناقته بالأتان الوحشية المرحة النشيطة الجادّة في العدو يطاردها قرينها ، ويشبه ناقته بالظبية الرؤوم راعها الصائد وكلابه بحدّت في العدو ثم لم تجد بدا من أن تتبّت للكلاب بجاهدتها وأبليت في جهادها بلاء حسنا ، وهو يتخذ هذه التشبيهات وسيلة الى أن

يفصل من أمر حمر الوحش والظباء الشيء الكثير ، حتى اذا فرغ من هذه التشبيهات عاد الى نفسه فوصفها بالاباء والشمم فقال :

تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامُهَا

وأعطانا صورا من حياته الهادئة والمضطربة . فاما اذا هدأت حياته واطمأنت بها السلم فهو صاحب لهُو ، وعبث يشرب الخمر ويغالى في ثمنها ، ويسمع للغناء ويلذ لسماعه ، وهو كريم جواد يطعم الجائعين ، ويؤوى البائسين ، ويحمي أهل الفاقة من شدة الزمان وعسف الخطوب ، وهو مقامر مسرف في المقامرة . ولكنه لا ينتهي بمقامرته الا التفتيس على الفقراء والمعوزين ، فهو يقامر ليشبعوا من جوع ويهدوا بعد اضطراب وجرع ، وهو على هذا كله شديد المرّة عظيم البأس ، ان دهمته الحرب أسرع اليها شجاعة باسلا مخاطرا ، وهو ينتهز هذه الفرصة ليصف فرسه فيحسن الوصف في ايجاز واقتصاد ، حتى اذا قضى حاجته من الفخر بنفسه في الحرب والسلم نخر بعشيرته ، فوصف قومه بالنجدة والبأس والعزة والكرامة ، وبالجود والسخاء والأمانة والوفاء .

مِن مَعْشِرِ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

وعلى هذا النحو من الحياة التي يصورها لميد كانت حياة الأفراد والجماعات في البادية آخر هذا العصر ، ولست تجد في قصيدة لميد هذه علوا ولا إسرافا ولا كذبا ، وانما هو شاعر قوى يستمد قوته من صدقه واخلاصه وشدة ايمانه بجمال هذه المثل الخلقية التي يسمو اليها .

تحليل قصيدة طرفة

وقصيدة طرفة تشبه قصيدة لميد في تأليفها وفي متانة ألفاظها ، وان كانت تُكثّر من الغريب في بعض المواضع وتسهل جدا في مواضع أخرى ، ولكن بين الرجلين فرقا ظاهرا لا شك في أنه كان يميز جماعة من العرب المثقفين ويرفعهم عن عامة الناس ، وسندك على هذا الفرق بعد قليل . فلننظر كيف تتألف القصيدة وعلام

تشمّل . أما أولها فمشبه لأول قصيدة لبيد ، فالشاعر يذكر الديار كما ذكرها صاحبه ، ولكنه لا يطيل الكلام في الديار ووصفها المادى ، وإنما يشبه أطلالها بما بقى من الوشم في ظاهر اليد .

لحولة اطلال ببرقة ثممد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ثم يفرغ لنفسه وما تجد من حزن وأسى لفراق من تحب .

وقوقاً بها صحى على مطيمهم يقولون لا تهلك أسى وتجلىد

ثم يصف صاحبه وصفا موجزا جميلا وينتقل بقاءة إلى ناقته التي يسلي بها الهم إذا حضره .

وإني لأمضى الهم عند احتضاره يعوجاء مرقال تروح وتغدى

ثم يصفها وبطيل في وصفها متناولا أعضاءها عضوا عضوا ، ثم هيئة ساكنة وسائرة في بقاء أو اسراع ، وهو في هذا الوصف يؤثر الألفاظ الغريبة والمعاني الغامضة أكثر من لبيد ، حتى أنك لتسأل نفسك وأنت تقرأ هذا الوصف : أليس من الممكن أن يكون صاحبه تعمد الاغراب ؟ ويفرغ الشاعر لنفسه كما فعل لبيد ، فيصفها في السلم والحرب كما وصفها لبيد ، ولكن بين الشاعرين هذا الفرق الذى أشرنا إليه آنفا ، فلبيد يلهو وينعم في السلم ، ويبال ويخاطر في الحرب ، لأن في هذا كله مثله الأعلى . أما طرفة فيلهو ويخاطر لأنه لا يدري ماذا يستطيع أن يصنع غير هذا ، ولأنه قد يس من الحياة وأنكر قيمتها وعرف أنه غير مخلد فهان عليه كل شيء ، وآثر أن يبادر الموت بما ملكت يده .

ألا أيهاذا الزاجرى أحضر الوعى وأن أشهد اللذات هل أنت محلىدى

فان كنت لا تستطيع دفع منبى فدعنى ابادرها بما ملكت يدى

وأهون على طرفة بالحياة لولا لذات ثلاث يجد فيهن متعة تنقره من الموت بعض التنفير ، وهى لذة الخمر والحب والنجدة .

ثم يمضي الشاعر مفاخرًا بنفسه عائبًا على ابن عم له زاهدا في الحياة يأتسا منها ،
حتى يختم قصيدته بهذا البيت المشهور :

سُبِّدِي لَكَ الْإِيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ

تحليل قصيدة زهير

أما قصيدة زهير فقد تشبه في أول الأمر شعر صاحبيه ، ولكنها لا تلبث أن
تقطع الصلة بينها وبين شعر لبيد ، وأن تبقى بينها وبين شعر طرفة صلة ضئيلة
دقيقة ولكنها قيِّمة ، ولنا لحظ أن زهيرًا لم ينشئ قصيدته للوصف والفخر كما
فعل لبيد وطرفة ، وإنما أراد أن يمدح ، فهو إذا خليق أن يُفني شخصيته في شخصية
من يمدحه ، ومع ذلك ظهرت شخصيته قوية جذابة مؤثرة كما سترى بعد حين .

بدأ زهير قصيدته كما بدأ لبيد وطرفة قصيدتهما ، فذكر الديار وشبهها بالوشم
ووصف ما بقي منها ، وذكر حزنه حين وقف عليها بعد عشرين سنة وتعرَّفها
بعد مشقة :

وقفت بها من بعد عشرين حجةً فإيًّا عرفتُ الدارَ بعد توهم
فلما عرفتُ الدارَ قلتُ لرُبِّعها ألا أنعم صباحًا أيها الربع واسلم

ثم ينتقل من الدار إلى النساء اللاتي ارتحلن عنها فيتبعهن ببصره كثيبًا محزونًا ،
ولكن حزنه هادئ مطمئن ، ويصف طريقهن التي سلكنها ، وبالهن التي ركنها ،
وهو ادجنهن التي استظللن بها ، ويصف الآثار التي يتركها إذا نزلن منزلاً للراحة
ثم رحلن عنه . كل ذلك في لفظ سهل عذب فيه كثير من الجمال والظرف ، حتى
إذا فرغ من قصته وانتهى بصاحباته إلى حيث كن يردن ، وأنزلن على الماء
الذي أردن النزول عنده ، انتقل في غير تخصص ولا حيلة إلى صاحبيه هيرم بن سنان
والحارث بن عوف فمدحهما .

يمينا ناعم السيدان وُجِدْتُمَا على كل حالٍ من سحيل ومبرم

ولكنه في مدحه هادئ مطمئن مؤثر ، كما كان في وصفه للديار والنساء ، وهو
يؤثر القَصَصَ في المدح كما أثره في الوصف ، فيذكر سعي صاحبيه إلى الإصلاح
بين العشيرة بعد أن أفسدت الدماء ما بينها من ود وصفاء وإخلاص ، ثم يشتد
ويحتد ، وإذا هو ينكر الحرب وآلامها وما تجر على الناس من شر ونسك.

متى تبعوها تبعوها ذميمة وتضر إذا ضرتموها فتضرم

ثم يعود إلى صاحبيه فيمضي في مدحهما قويا هادئا في لفظ متين ولكنه
سهل يسير ، حتى إذا قضى اصحابيه وعشيرتهما حقهم من المدح واللوم والنصح
استراح قليلا ثم تجاوز هذين الحين من عبس وذبيان وارتفع عنهما وعن صاحبيه
وعن نفسه إلى الإنسانية كلها فقال :

سَمِّتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا ، لَا أَبَالِكَ ، يَسَامٍ

ومضى في طائفة من الحكم منها الانساني الشامل كقوله :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلِنُهُ وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بُسْلَمٍ

ومنها ما يصور طورا من أطوار الحياة العربية الخاصة كقوله :

وَمَنْ لَمْ يَدُدْ عَنِ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يَهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمَ

ولكنها كلها ، وهنا تظهر الصلة التي أشرنا إليها بينه وبين طرفة ، تمثل نفسا

زاهدة في الحياة ، كارهة لها ، ضيقة بها ، لا لأن الشاعر شيخ قد بلغ الثمانين كما

يقول : بل لأن هناك شيئا قد بغض الحياة إلى زهير الشيخ كما هو أمرها

على طرفة الشاب ، وهذا الأمر هو أن الحياة لُغِزِمَ يستطع طرفة ولا زهير أن

يتبين سره :

رَأَيْتَ الْمَنَايَا حَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ نَصَبَ ثَمَّتَهُ وَمَنْ شُحِطِيَّ يَعْمَرُ فِيهِمْ

وأعلم علمَ اليومِ والأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنِ عِلْمِ مَا فِي غِدِّ عَمَ

هان أمر الحياة على طرفة فانصرف الى اليأس واللذة ، وهان أمر الحياة على زهير فلم يئس ولم يتهالك على لذة أو هو ، ولكنه كان يُحسُّ شيئاً من الأمل لا يستطيع هو أن يبينه ، ولا نستطيع نحن أن نتبينه واضحاً صريحاً . إنما هو شيء غامض خلاصته فيما يظهر أن هذه الحياة مضطربة قلقة ، لا تطمئن اليها النفس المستبصرة ، وما زال القليلون من أمثال زهير وطرفة في البيئة العربية يرَوْن مثل هذه الآراء ويتحدثون بمثل هذه الأحاديث حتى جاء الاسلام فحقق أمل الآمين ، ومحاً يأس اليأسين ، وأخرج الأمة العربية كلها من ظلمتها القديمة إلى نوره الجديد .

النثر الجاهلي

كثير جداً ما يروى من الشعر الجاهلي ، ومنه الصحيح وغير الصحيح ، وهذا الشعر الكثير ليس شيئاً بالقياس إلى ما ضاع من شعر العرب في العصر الجاهلي ، لأنه لم يكتب ، فذهب به النسيان وموت الرواة ، أما النثر الذي يروى عن العصر الجاهلي فقليل جداً لا يكاد يذكّر إلى جانب الشعر ، وكان القدماء يعللون قلة النثر وكثرة الشعر بأن وزن الشعر وقافيته يسهلان حفظه وروايته ، على حين أن حرية النثر وانطلاقه من القيود يجعلان حفظه عسيراً وروايته أعسر .

وقد تكون هذه العلة صحيحة في نفسها ، ولكن ما قدمناه من أن الشعر أسبق إلى الظهور من النثر الفني لأنه لغة العاطفة والخيال ، والنثر الفني لغة العقل والتفكير ، يكفي لتعليل قلة ما يروى من النثر ، وكثرة ما يروى من الشعر عن العصر الجاهلي ، فقد كان العرب الى ظهور الاسلام أميين في كثيرتهم ، ويستطيع الشعر أن يعيش مع الأمية ولا يستطيع النثر الفني أن يعيش معها . ومن الحق أن أفراداً من العرب كانوا يكتبون ويقرءون ويتخذون الكتابة أداة لمعاملتهم الاقتصادية في آخر العصر الجاهلي . ولكن الكتابة لم تكن شائعة الى الحد الذي يمكن من تدوين الشعر والنثر .

الخطابة في الجاهلية

ومما لا شك فيه أن العرب قد عرفوا في هذا العصر الجاهلي شيئا من الخطابة دعت إليه حياتهم الاجتماعية والسياسية ، وكان لهم خطباء مشهورون نذكر منهم أكرم بن صَيْفِي التَّمِيمِي ، وقُتَيْب بن سَاعِدَةَ الإِيَادِي ، ولكننا لا نعرف من هؤلاء الخطباء إلا أسماءهم وشهرتهم ، وتفتأ ضئيلة جدا من أقوالهم . فمن العبث إذا أن يدرس النثر الجاهلي لأنه قد ضاع إلا القليل .

الأمثال الجاهلية

وإذا لم يكن بد من الكلام على النثر في هذا العصر فليكن هذا الكلام عن الأمثال ، فقد كان للعرب في جاهليتها أمثال شعبية كثيرة ، وكان كثير من هذه الأمثال قد شاع في صيغة نثرية غير منظومة ، وإذا لم نستطع أن نتخذ هذه الأمثال القصيرة مقياسا للنثر العربي في ذلك العصر لقصرها واقتضاها فنحن نستطيع على كل حال أن نرى فيها العقلية العربية والخلق العربي . كما نستطيع أن نرى في كثير منها الجملة العربية قوية ممتازة بحظ عظيم جدا من ظرف التعبير ، وإصابة المعنى واتقان التشبيه ، وحسن الإيجاز .

والواقع أن العرب قد أجادوا في هذا النوع من الأدب وخلقوا لنا منه الشيء الكثير ، وكان يمثل حياتهم الاجتماعية في بيئاتهم المختلفة أكثر مما يمثلها الشعر لأن الأمثال تنبع من الشعب على اختلاف طبقاته . فاذا نبع المثل من طبقة راقية كان راقيا ، وإذا نبع من طبقة وضعية كان وضيعا ، على عكس الشعراء وهم — عادة — أرقى من مستوى العامة .

ولكن هذه الأمثال الجاهلية اختلطت بغيرها من الأمثال الإسلامية ، فكثيرا ما يصعب التمييز بين المثل الجاهلي والمثل الإسلامي ، وإن كان هناك أحيانا دلائل تدلنا على نوع المثل ، كما إذا قيل في حادثة تاريخية أو عرف قائله إذا كان جاهليا أو اسلاميا .

ومهما يكن من شيء فإن الذين يريدون أن يدرّسوا النثر العربي ويحدّدوا مكانته الأدبية ويتعرفوا حظه من الجمال الفني لا ينبغي أن ياتمسوا هذا النثر قبل ظهور الاسلام ، وإنما ينبغي أن ياتمسوه فيما صح من الحديث النبوي وخطب الخلفاء والأمراء أولاً ، ثم في آخر العصر الأموي وفي عصر بني العباس حين أصبح النثر صناعة فنية .

مكة

مركزها التجاري

من أهم مدن الحجاز كما أسلفنا مكة ، والذي نعرفه عنها أنها كانت قبل القرن الخامس لليباد بلدة صغيرة ، وظلت تنمو حتى كانت في النصف الثاني من القرن السادس مدينة عظيمة ، وترجع عظمتها ونموها السريع الى أسباب :

أولها - أنه كان في جزيرة العرب طريقان عظيمان للتجارة أهمهما لنا هنا طريق تبدأ من حَضْرَمَوْت ، وتسير محاذية للبحر الأحمر متجنباً صحراء نجد وهجيرها ، ومتجنباً هضاب الشاطيء ووعورتها ، وعلى هذه الطريق تقع مكة .

كانت مكة محطاً لأصحاب القوافل الآتية من جنوبي جزيرة العرب تحمل بضائع الهند واليمن الى الشام ومصر ، يتزلون بها ويستقون من بئر شهيرة بها تسمى بئر زمزم ، ويأخذون منها حاجتهم من الماء .

وكانت التجارة قديماً في أيدي اليمنيين ، ولكن غلبهم عليها الرومانيون في البحر الأحمر فضعفت تجارة اليمن ، وانحط شأنها ، ولما حُفَّ طريق البحر بالأخطار التجأ التجار الى البر يسلكونه ، فعظم شأن المدن التي عليه ، وأهمها مكة ، وضرب الحجازيون بسهم كبير في التجارة فكانوا يشترون السلع من اليمن والحبشة ، ثم يبيعونها في أسواق الشام ومصر ، وكان العرب يؤمون الحجاز من

أطراف الجزيرة ، يجدون فيه حاجتهم مما تخرجه بلادهم ، ومن السلع الأجنبية ، وكانت تقام فيه الأسواق كل سنة ، ومن أشهرها سوق عكاظ ، وكانت تقام على مقربة من مكة ، وهذه الأسواق أثر كبير في الأدب العربي ، فقد كان يحضرها شعراؤهم ينشدون ويتناظرون ، وكان التجار يخرجون بتجارهم قوافل عظيمة ، حتى ذكر الطبري في تاريخه أن قافلة من هذه القوافل بلغت خمسمائة وألف بعير ، وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة في هذه القوافل مرتين : مرة وسنة اثنتا عشرة سنة إلى بصرى ومرة وسنة خمس وعشرون .

كان لهذه التجارة أثر كبير في أهل مكة ، فقد أثرى كثير منهم واقتنوا الأموال والضياع والعييد ، وفشا بينهم التعامل بالربا ونحو ذلك مما عرض له الإسلام بعد . وفوق هذا كان لرحلة المكيين إلى الشام ومصر أثر كبير في عقولهم ، فقد رأوا أنواعا من الحضارة اقتبسوا منها ما استطاعوا ، وأثر كبير في لغتهم فقد كان منهم بحكم التجارة من يعرف اللغات السائدة في الشام ومصر فأدخلوا منها في لغتهم ما رأوا أنفسهم في حاجة إليه .

مركزها الديني

والسبب الثاني في نمو مكة وعظمتها سبب ديني . ذلك أن في مكة الكعبة ، وهي بيت الله الحرام يقصدها العرب من جميع أنحاء الجزيرة . ولاهلهما من الحرمه في نفوس العرب ما ليس لغيرهم . وكان ذلك أحد الأسباب التي دعت إلى نجاح قريش في التجارة . فقد كان الطريق التجاري في الجزيرة مهديا بالسلب والنهب ولكن حرمة العرب للكعبة وقريش جعلتهم يخشون بأسهم ، ويؤمنون بتجارهم . يقول الله تعالى "لَا يَلْفِ قَرِيْشٍ إِلَّا فِيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" .

قبيلة قريش

أهم قبيلة كانت تسكن الحجاز وخاصة مكة قبيلة قريش ، وقريش لقب لفهر ، وهو من نسل معد بن عدنان الذي ينتسب إلى اسماعيل عليه السلام ، وكان فهر هذا يعيش في القرن الثالث الميلادي ، على ما يُظنُّ ، وسميت القبيلة التي نَسَلَهَا باسمه فقيل ”قبيلة قريش“ وقد نخرت قريش بنسبها وحسبها وخدمتها للكعبة على سائر القبائل ، حتى عدت أنبلها ، وظهر من بينها على توالى العصور رجال زادوا في عظمتها مثل قصي الذي أطعم الحاج وسقاهم ، وبني دار الندوة قرب الكعبة يجتمع فيها مع كبار قومه يتشاورون في شئونهم ، وعاش على ما يظهر في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي . وجاء الإسلام وقريش هي صاحبة السلطان على مكة ، وموضع الاجلال من العرب . قد وزعت مصالح الحكم والولاية على رؤساء البيوت الظاهرة فيها .

لغة قريش

كان للقبائل العربية المختلفة لغات مختلفة ، فلا هل اليمن لغة ، ولهوازن لغة ، ولأهل عَمَّان لغة ، ولخزرج لغة ، وهكذا ، وكلها تسمى لغات عربية ، وتختلف فيما بينها باختلاف الكلمات أحيانا ، فبعضهم يستعمل في المعنى الواحد كلمة ، على حين أن قبيلة أخرى تستعمل في هذا المعنى لفظا آخر ، فمثلا كندة تستعمل بجاجا ، وقريش تستعمل بدها ”طرقا“ ولحم تستعمل ”املاقا“ وقريش ”جوعا“ وقبيلة تستعمل ”نكص“ وأخرى تستعمل ”رجع“ وقبيلة تستعمل (اِحْتَنَكَ) وأخرى (استأصل) وهكذا . كذلك تختلف فيما بينها في اللهجات ، وذئك كأن تُدغم قبيلة حيث تفكُّ أخرى ، فقبيلة تقول (أشدد) وأخرى (شد) وقبيلة تميل وأخرى لا تميل ، على نحو ما تراه في القراءات المختلفة للقرآن الكريم .

وقد امتازت لغة قريش من بين لغات العرب بوفرة كلماتها وسهولتها وحسن
لهجتها ، وخلوها من عيوب كانت في لغات أخرى ، كجمعجة قضاة وعننة
تميم^(١) ويرجع ذلك الى السببين اللذين ذكرناهما قبل ، فاشتغال القرشيين بالتجارة
بينهم وبين الأمم الأخرى من ناحية ، وبينهم وبين قبائل العرب من ناحية أخرى ،
جعلهم يدخلون في لغتهم ألفاظا جديدة يرون أنفسهم مضطرين اليها ، فلما رأوا
الإستبرق مثلا ولا كلمة عندهم تدل عليه أخذوا لفظه من الفرس ، وكذلك كلمتا
السندس والكافور ، كما أخذوا كلمات أخرى عن الرومية والحبشية والقبطية
والسريانية ، أضف الى ذلك أن التجارة وكثرة الرحلات ومخالطة الأمم المتحضرة
رقت ذوقهم وجعلتهم ينفرون من الكلمات الغليظة ، واللهجات المستهجنة ، وقل
مثل ذلك في السبب الديني ، فحج العرب الى الكعبة من كل فج عميق مكن القرشيين
من سماع اللغات العربية الأخرى يتخيرون ألطفها ، وحسبك دليلا على سعتها ورقتها
أن القرآن الكريم نزل بها ، وهذا الذي ذكرنا من سعتها ورقتها هو الذي جعلها
تسود اللغات العربية الأخرى في الحجاز وغير الحجاز ، فكما كان الذين يحجون الى
الكعبة ويقصدون الى الأسواق يمدون لغة قريش بخير ما في لغتهم كانت قريش
تمدهم بلغتها ولهجتها حتى زاحمتها وغلبت عليها ، وحتى كان مما يستوقف النظر
أن ما نقل اليها من شعر الشعراء وخطب الخطباء وجيد الأمثال إنما نقل بلغة
قريش ، ولو لم يكن قائله قرشيا ولا حجازيا

(١) العجمجة قلب الباء المشددة كما يقولون في علي « علاج » وفي كرسى كرسج . والعننة قلب الهمزة

إذا وقعت في أول الكلمة عينا ، يقولون في « أن » « عن »

محمد صلى الله عليه وسلم

حياته الأولى

في مكة التي ذكرنا ، وفي بيت من خير بيوت قريش ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب في سنة ٥٧٠ م .

تزوج عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي بسيدة قرشية كذلك هي السيدة أمينة بنت وهب بن عبد مناف ، وبعد قليل من زواجه توفي شابا في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وكان خارجا في تجارة إلى الشام ، ولم يترك الا خمسة من الابل وقطيعا من الغنم وجارية ، وبعد وفاته بأيام وضعت أمينة غلاما سماه جده ” محمدا “ ، وكان من عادة الأشراف من نساء العرب ألا يرضعن أولادهن بأنفسهن ، بل يدفعنهم إلى المراضع ، وكثيرا ما يقع اختيارهن على المراضعات من أهل البدو لينشأ الأطفال في البادية أفصح لسانا ، وأجلد جسما ، وأبين حرية ، وكذلك نشأ ” محمد “ فقد دفع إلى حليلة من بني سعد بن بكر من هوازن ، فأخذته بعد تلكؤ ، لفقره ويتمه فأقام عندها بين بني سعد في البادية نحو خمس سنوات كان لها أثر كبير في فصاحة لسانه وقوة جسمه وعظيم جلده ، قال له مرة أبو بكر ما رأيت أفصح منك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ” وما يمنعني وأنا من قريش وأرضعت في بني سعد “ وكان يقول لأصحابه ” أنا أعربكم “ أنا قرشي واسترضعت في بني سعد .

وماتت أمه بعد سنة من عودته ، ومات جده عبد المطلب وهو ابن ثمان ، فكان في كفالة عمه أبي طالب ، وكان أبوطالب كثير العيال فقير المال .

نشأ ” محمد “ صلى الله عليه وسلم محبا للعزلة حتى ليروون أنه لما قدمت به حليلة مكة وسنه خمس سنوات افتقدته فلم تجده ، فأرسل عبد المطلب من يبحث عنه فاذا

هو بأعلى مكة ، ومحباً للحرية حتى ليدكرون أنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ، فاذا خرج لم يبق أحد من بنيه على الفراش اجلالاً له الا محمداً ، فيأتى أعمامه ليؤخروه فيقول لهم عبد المطلب دعوه .

ولما بلغ الخامسة والعشرين تزوج السيدة خديجة بنت خويلد وهي في الأربعين من عمرها ، وكانت من أشرف قريش وأغنيائها وتجارها ، فأعانتها بعطفها وإخلاصها على ما يجب من عزلة وتفكير ، وشجعتة بعدُ على ما يلاقى من أعدائه في سبيل دعوته ، ووقفت بجانبه في أخرج ساعاته ثابتة وتؤيده .

بعثته صلى الله عليه وسلم

وقد اعتاد أن يقضى شهراً كل عام في غارٍ قرب مكة يسمى ” غار حراء ” يتعبد فيه ، ويعيش عيشة روحية ، ففي ليلة ، وقد بلغ الأربعين ، وهو نائم نزل عليه الوحي ، ثم أمر بتبليغ ما أوحى إليه ، ومن ثمَّ بدأت حياته في دعوة الناس إلى الإسلام ، وتركهم عبادة الأصنام ، وأدأهم حقوق الله وحقوق الناس .

وكان من أسرع الناس قبولاً لدعوته زوجه خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب ، وأبو بكر ، وهم أكثر الناس كانوا حُطَّةً به ومعرفة بصدقه وأمانته .

فلما شرع يدعو قومه أخذوا يستخرون منه وقالوا ” ساحر أو مجنون ” فلما جد في دعوتهم جدوا في اضطهادهم له ولمن آمن به ، وأمعنوا في تعذيبهم والتضييق عليهم ، فنصح رسول الله لبعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، وقد قال أحدهم للنجاشي لما سأله عن حالهم ” كما قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الحوار ، يأكل منا القوى الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصللة الرحم وحسن الحوار

والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ... فعدا علينا قومنا فعذبونا وقتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك” .

فلما يأس محمد صلى الله عليه وسلم من إيمان قومه وجه نظره إلى قوم آخرين لعلهم يكونون أقبل لدعوته ، فدعا أهل الطائف فكانوا أقسى من قريش ، أغرّوا به سقاءهم فرجموه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء — ثم عرض دعوته على القادمين من يثرب في موسم الحج فأمنت طائفة منهم ، وآمنت أخرى بعدها في الموسم التالي وبايعوه على نصرته دينه .

هجرته

وفي سنة ٦٢٢ م هاجر من مكة مع أبي بكر يريد يثرب مستخفيا من قومه لأنهم يريدون قتله ، وبعد ثلاثة أيام وصل إليها فأحسنوا لقاءه وفشا الاسلام في أكثر بيوتهم .

وكان أهل يثرب من قبيلتين متعاديتين ”الأوس والخزرج“ فألف رسول الله بينهما وسموا ”الأَنْصار“ كما سمي الذين جاءوا من مكة مع النبي وبعده ”بالمهاجرين“ وأخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار، وسميت يثرب من ذلك الحين بالمدينة، أي مدينة الرسول ، وأرخ المسلمون بعد هذه الهجرة (١) .

من ذلك الحين كان رسول الله داعيا إلى الاسلام ورئيسا للدولة الاسلامية الناشئة معا ، فكان يشرع لهم ويصلح من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية

(١) كانت الهجرة في سبتمبر، وقد أرخ بها المسلمون بعد ١٧ عاما من حدوثها في عهد عمر بن الخطاب ، وقد كان ذلك بواقع ربيع الأول ، فبدأ عمر التاريخ الهجري من أول السنة التي حصلت فيها الهجرة أعني من محرم تلك السنة .

بما أوحى الله اليه — وكان بين أهل المدينة يهود ظلوا متمسكين بدينهم ، فكتب رسول الله عهدا وأدعهم فيه ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم ألا يعينوا أعداء المسلمين عليهم . وأن يدافعوا عن المدينة كما يدافع المسلمون ، وعلى اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

• حياته صلى الله عليه وسلم بالمدينة

وبنى بالمدينة مسجدا يعبد الله فيه هو وقومه ، وهو أحد الحرمين الشريفين — لم يكن ضخما في بنائه ، فقد بنى باللين وجعلت عمدته من جذوع النخل ، وسقف بالجريد ، ولكن كان يدعمه إيمان قوى ومبادئ قوية .

وقد عادى أهل مكة النبي وأصحابه وأهل المدينة لحمايتهم له ولهم ، فبدأ القتال بين الفريقين ، وانتهى بأن كانت كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، وفتح النبي مكة سنة ٦٣٠ م ووقعت قريش في يده فعفا عنهم وقال ”يامعشر قريش ان الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظّمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم قال يامعشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال ”اذهبوا فأتتم الطلقاء“ ودخل الكعبة فأزال ما بها من أصنام ، وصور وتمائيل ، وأسلم في ذلك اليوم أكثر قريش ، ولم يتخلف منهم الا قليل ، وقد كانت قريش في نظر العرب هم حماة الدين القديم وأنصاره ، فلما أسلموا تبعهم من أصر على دينه من القبائل الأخرى ، وسميت السنة التاسعة من الهجرة ”عام الوفود“ فكان العرب يأتون من أنحاء الجزيرة يدخلون في الاسلام وكان النبي يُعلم من وفد اليه ويرسل معهم من يعلم قبيلتهم أمور دينهم .

ويذكر الرواة أنه صلى الله عليه وسلم أرسل من قبله رسلا الى الملوك ، ومنهم ملك الروم وملك فارس فانه أرسل يدعوهم الى الاسلام ويحملهما تبعة قومهما اذا لم يجيبا الدعوة فرد الأول الدعوة في لطف ، ومزق الثاني الكتاب المرسل .

حجة الوداع

وفي سنة ٦٣٢ م حج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة حجة الوداع وقد دخل الناس في دين الله أفواجا ، فكان معه في حجته أكثر من مائة ألف دانوا بدينه ، وخطب في الناس خطبته المشهورة التي جاء فيها "أيها الناس اسمعوا قولي فياني لا أدري لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وشهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . واستوصوا بالنساء خيرا . . . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أما بيتنا كتاب الله وسنة نبيه ، أيها الناس اسمعوا قولي وافعلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم .

ولما عاد صلى الله عليه وسلم من مكة ظلَّ يعمل فيما أرسل من أجله من قضاء على الوثنيين ونشر الدعوة الإسلامية . ونزل عليه قوله تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً" ثم لم يلبث قليلا حتى أخذ يشكو المرض من حمى اشتدت به ، فلما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هجرية ٨ يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية توفي صلى الله عليه وسلم بعد أن رأى في حياته ما وفقه الله له من اجتماع العرب على دينه ، وما وصلوا إليه من رقي ديني وخلق واجتماعي ، ورأى أن دعوته أخذت تشعُّ على الممالك الأخرى حوله ، وذهب أبو بكر يخبر الناس بموته فقال "أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين" .

شئ من أخلاقه

وهكذا حُتِمت حياة حافلة بجليل الأعمال ، ونُبِّل الخصال ، حب للحق
يَهَب له حياته ، وقوة إيمان فلو اجتمع الناس كلهم ووضعوا الشمس في يمينه
والقمر في شماله على أن يحولوه عن دعوته ما استطاعوا ، واحتقار لنعيم الدنيا
وحُطامها حتى لقد مات وِدْرَعه مرهونة لنفقة عياله ، والدنيا تساق إليه بخذا فيرها
وتترادف عليه فتوحها ، وأدب وحياء وتواضع حتى لقد كان موضع الحب والاحلال
والاعجاب من كل من اتصل به ، وقَدَّمَ كثير منهم نفسه وماله وولده دفاعا عنه
وعن عقيدة تَلَقَّوها منه ، ولا تزال الإنسانية على مرور القرون والأجيال ، مدينة
له بما أتى من دين وإصلاح ودعوة إلى الخير العام .

وبعدُ فقد كان صلى الله عليه وسلم في فصاحة قوله وبلاغة لسانه (١) "بالمحل
الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ،
وفصاحة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع العلم ،
وخصَّ ببدائع الحكم وعِلْم السنة العرب ، يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويجاوزها
بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها... ومن أقواله ما لا يوازي فصاحة ، ولا يباري
بلاغة كقولهم : المسامون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على
من سواهم ، الناس كأسنان المشط ، لا خير في صحبة من لا يرى لك ما لا ترى له ،
الناس معادن ، ما هلك امرؤ عرف قدره ، المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم
يتكلم ، ورحم الله من قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم ، اتق الله حيث كنت وأتبع
السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلاق حسن ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ،
والسعيد من وعظ بغيره .

وقد قالت أم معبد في وصفها له : حلو المنطق فصل ، لا نزر ولا هذر ،
كأن منطقته نحرزات نُظْمَن .

(١) عن الشفاء للقاضي عياض .

القرآن الكريم

نزوله منجما على حسب الحوادث

القرآن كتاب الله الذي أنزل على رسوله ، وقد نزل منجما في ثلاث وعشرين سنة ابتدئ من يوم أنزل عليه الوحي بغار حراء ، وتنتهى بوفاته صلى الله عليه وسلم وكان بدء ما نزل عليه (إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) وآخر ما نزل (اليوم أكملت لكم دينكم ورضيتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً) .

وقد نزل أكثر سور القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم في مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فقد كان فيها داعيا نحو ثلاث عشرة سنة ، ونزل بعضه في المدينة بعد الهجرة ، وظل ينزل فيها نحو عشر سنوات ، وكان ما نزل منه بالمدينة باتفاق عشرين سورة ، واختلف في موطن نزول اثنتي عشرة سورة ، وما عدا ذلك مكى باتفاق .

كان ينزل القرآن على الرسول بطريق الوحي ، وكان ينزل على حسب ما يعرض من الحوادث ، فكان بعضها يستدعى الآية أو الأكثر ، وبعضها يستدعى السورة بأجمعها ، فمثلا : يخرج النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة من الغزوات فينزل عليه من القرآن ما يتصل بها من تعاليم ، ويُسأل عن حكم الله في الميراث فتنزل الآية أو الآيات توضح أحكامه ، وهكذا .

وكان اذا نزل عليه شيء من القرآن تلاه على من حضر من أصحابه فيحفظه بعضهم ، فهذا يحفظ جملة من الآيات ، وذلك يحفظ آيات أخرى وهكذا ، وفوق ذلك كان للنبي صلى الله عليه وسلم كتبة يكتبون ما ينزل من الآيات يُسمون كتبة الوحي ، فكانوا يكتبونه في سعف النخل أو في حجارة رقيقة أو عظام مسطحة ، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ليس مجموعا في مصحف واحد ، وإنما كان محفوظا في صدور الصحابة أو مكتوبا في الرقاع .

جمعه في الرقاع

وفي عهد أبي بكر كانت حروب الردة وقد تفرق الصحابة في البلدان وكثير فيهم القتل ، وخاصة في وقعة اليمامة ، فخاف عمر أن يذهب بعض الآيات بقتل بعض الصحابة فأشار على أبي بكر بجمع الرقاع المكتوبة وكتابة ما لم يكتب من صدور الرجال ، وعهد أبو بكر في هذا العمل الى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم ومن خير الأنصار ديناً وعلماً وصدقاً ، فتبع زيد القرآن بجمعه من الرقاع ومن صدور الرجال ، وكان يكتب ما لم يكن مكتوباً بعد التحرى الدقيق ، وجمعت الصحف كلها وربطت بخيط بعضها مع بعض ، وحفظت في بيت أبي بكر مدة حياته ، فلما توفي حفظت في بيت عمر ، فلما توفي حفظت في بيت حفصة زوج النبي و بنت عمر .

كتابة المصاحف

وفي عهد عثمان انتشر القراء في حواضر الأمصار كالعراق والشام ومصر ، وقد احتاج المسلمون إلى مصحف يجمعون عليه ولا يشدُّ أحد عنه .

فأرسل عثمان الى حفصة أن ارسلي الينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك ، ففعلت ، وعهد عثمان الى زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وغيرهما في أن يكتبوه ، فلما نسخوا الرقاع في المصاحف أرسل الى كل مصر من الأمصار المشهورة مصحفاً وألزمهم القراءة على حسب ما فيه . وكانت هذه المصاحف غير منقوطة ولا مشكولة ، فلما اخترع الشكل بعدُ نقطت المصاحف ثم شككت على النحو الذي نراه اليوم .

أغراضه ومعانيه

قدمنا أن في القرآن آيات وسوراً مكية أي أنها نزلت بمكة ، وأخرى مدنية أي أنها نزلت بالمدينة ، فاذا نظرنا الى السور المكية لاحظنا أن أوضاعها فيها هو دعوة الناس أن يتركوا عبادة الأصنام والأوثان ، ويعبدوا الله وحده ، ومنهج

القرآن الكريم في هذه السبيل ذكر الله وبيان صفاته وتوضيح آثاره في الكون ،
وسير الأمم السابقة ، وكيف كانت عاقبة المؤمنين والكافرين ، وبإزاء هذا كله
ذكر الأصنام وكل ما يعبد من دون الله ، وبيان أنها لا تسمع ولا تعقل ، وأنها
لا تملك لمن يعبدها نفعا ولا ضرا ، وأكد القرآن الكريم في مواضع عدة من هذه
الآيات عاقبة المؤمنين وما أعد لهم من جنات النعيم ، ووصف الجنة أبلغ وصف
وأشده ترغيبا ، وما أعد للكافرين من بحيم ، ووصف النار أبلغ وصف وأشده
ترهيبا ، وعرض لرؤساء مكة الذين كانوا يقفون في سبيل الدعوة فسحّف آراءهم ،
وندد بهم وبأعمالهم .

ويمكننا أن نلخص المبادئ التي تشتمل عليها السور المكية فيما يأتي :

الدعوة الى أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن القرآن كلام الله ،
وأن هناك حياة أخرى وراء هذه الحياة يليق فيها كل جزء عمله ، فاما عمل صالح
جزاؤه الجنة ورضوان من الله أكبر ، وإما عمل سيئ جزاؤه النار وسخط الله وغضبه .

أما السور المدنية فترى فيها ، زيادة على ما تقدم ، الاشتراع الديني والاجتماعي
والسياسي ، وذلك لما علمت من أنه بعد الهجرة قد توطدت دعائم الاسلام
وأصبح محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ورئيس أمة . فشرع في المدينة الصوم
والزكاة والحج وقوانين الزواج والطلاق والميراث . وشرع قتال من ناهض دعوته ،
ولم يكن في المدينة صنابير لحماية الأوثان والدفاع عنها كما كان الشأن في مكة ،
انما كان في المدينة يهود يقاومون الدعوة ومنتفقون يبطنون الكفر ويظهرون
الاسلام فتعرض القرآن لتبيين موقفهم ورد كيدهم .

أسلوبه

وللقرآن أسلوب عجيب يخالف ما كانت تنهجه العرب في نظمها وشعرها ،
فحسن تأليفه ، والتثام كلماته ، ووجوه إيجازه ، وجودة مقاطعه ، وحسن تدليله ،

وانسجام قصصه ، وبديع أمثاله ، كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة ، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة ، لا يميل قارئه ولا يخلق بترديده ، يسجع أحيانا ولا يلتزم السجع ، ويوازن أحيانا ولا يلتزم الموازنة ، قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قل أن تجد فيها غريبا ، وهي مع سهولتها جزلة عذبة ، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة ، لا تحس فيها لفظا نبا عن أخيه ، فاذا أضفت الى ذلك سمو معانيه ، أدركت سر بلاغته واعجازه .

ونلاحظ أن أسلوب القرآن كان يتبع موقف الناس ازاء الدعوة ، فهو في أكثر السور المكية كسورة ص و ق قصير الآيات ، قوى المقاطع ، قوى المعاني في تهديد ووعيد .

وهو في السور المدنية في غير الغزوات ، طويل الآيات ، هادئ المقاطع يفيض ليونا ورحمة ببعثان الأمل ، ويذهبان بالياس .

وهو في شدته وإيمنه ، وطول مقاطعه وقصرها لا يبارى ، قد تحدى العرب أن يأتوا بمثله بل بعشر سورٍ مثله مُفتريات بل بسورة من مثله فما فعلوا ولا قدروا .

وقد كان للقرآن الكريم الأثر الكبير في حفظ اللغة العربية ونمو علومها ورفق آدائها فقد سحر الناس ببيانه فعكفوا عليه يحفظونه ويقتبسون منه ويحاكونه ، ويتأثرون أساليبه وألفاظه وتراكيبه وعكف قوم على تدوين العلوم كالبلاغة والنحو خدمة له ومحاولة لفهم أسراره ، ولما دخلت الأمم المختلفة في الاسلام رأوا تعلم اللغة العربية وسيلة من وسائل فهم الدين فأقبلوا عليها وعدوا تعلمها دينا ، وهجر كثير منهم لسانهم ولغتهم من أجلها ، ولما اختلفت الأمم في اللهجات ، وأصبح لكل أمة لغة عامية ، يتخاطبون بها ظلت اللغة الأدبية والكتابية بينهم مشتركة ، وكان أكبر الفضل في ذلك للقرآن .

الحديث

تدوينه

يراد بالحديث ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولٍ قاله ، أو حكاية فعلٍ فعله ، وقد أضيف الى ذلك بعض أخبار حكيته عن الصحابة .

وهذا الحديث لم يدون في حياة النبي صلى الله عليه وسلم كما دون القرآن ، بل كان يرويه الصحابة من ذاكرتهم ، غالبا ، فكانوا يروون أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كذا أو فعل كذا بناء على ما شاهدوه أو سمعه بعضهم من بعض ، ومضى العصر الأول ولم يكن تدوين الحديث شائعا إنما كانوا يروونه شفاهة وحفظا . نعم ان بعض الصحابة كعبد الله بن عمرو كان يدون ما يسمع ولكنه كان يدونه لنفسه لا ليكون مؤلفا عاما للناس ، وفي القرن الثاني الهجرى شرع الناس يجمعون الحديث ويدونونه في الكتب .

أغراضه

وللحديث منزلة دينية عظيمة تلى منزلة القرآن ، فهو يبين ماورد في القرآن مجملا ، فمثلا أمر القرآن بالصلاة ، ولكنه لم يبين كيفياتها ولا أوقاتها . وفرض القرآن الزكاة ولم يبين مقدارها ، ولا نوع المال الذى تجب فيه الزكاة والذى لا تجب بفناء الحديث فأوضح ذلك كله ، وجاء الحديث فى الأغراض التى جاء من أجلها القرآن متمم له شارحا لما أجمل منه ، مفصلا لما ورد فيه .

بلاغته

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفصاحة بالمكانة التى رأيت فلا غرو أن كان ماروى عنه من الحديث فى منزلة عالية من البلاغة مع ما قد علمت من أن الرواة كانوا يعتمدون على ذاكرتهم فكثيرا ما يوضع لفظ مكان لفظ وجملة مكان جملة ، بل قد أجاز قوم رواية الحديث بالمعنى فلم يكونوا يتقيدون التقيد التام بألفاظ الرسول صلى الله عليه وسلم .

أثره في اللغة والآداب

كان للحديث فضل على اللغة والآداب فقد وسع المادة اللغوية بادخال ألفاظ فقهية ودينية لم تكن معروفة في هذه المعانى من قبل ، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم تعبيرات جديدة فنية مثل "الآن حي الوطيس ، وهُدنة على دخن ، وهذا يوم له ما بعده ، وإن من البيان لسحرا" وكثير من أمثال ذلك مما عد ذخيرة أدبية قيمة . وقد عاون الحديث القرآن الكريم في حفظ اللغة وانتشارها ، وكان لتضافر العلماء على الحديث يجمعونه ويشرحونه ويستنبطون منه ، أثر كبير في نشر الثقافة العلمية والأدبية .

وحدة الأمة العربية

أثر الفتوح في انتشار اللغة

الفتوح

رأيت قبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى وكان الاسلام قد انتشر في جزيرة العرب ، ولكنه لم يكن جاوزها ، ثم تابعت الفتوح على أيدي الخلفاء من بعده ، ففتح العراق ، وفتح فارس ، وفتح الشام ، وفتح مصر . وفي عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند و بخارى و خوارزم و سمرقند الى "كشغر" وفتح كذلك الأندلس .

كانت هذه البلاد ذات مدينة عظيمة ، ووارثة لحضارات الأمم القديمة ، فالعراق وارث الحضارة البابلية والأشورية ، والشام وارث الفينيقيين والأموريين والكنعانيين ، ومصر ووارثة الحضارة المصرية القديمة واليونانية والرومانية ، وكانت هذه الممالك تتكلم لغات مختلفة فارسية وقبطية وسريانية وعبرية ويونانية وهكذا ، وهى مكونة من أجناس مختلفة سامية وحامية وآرية وتدين بأديان مختلفة سماوية وغير سماوية ، ولها عقليات مختلفة هى نتاج بيئاتهم وحضاراتهم .

انتشار الاسلام واللغة العربية في البلاد المفتوحة

جاء الاسلام فأخضع هذه الأمم جميعا لحكمه ، ونشر فيها تعاليمه ، وكان العرب يحكم الفتح ويحكم أنهم ناشرو الدعوة هم العنصر السائد في هذه الممالك ، وهم القابضون على زمام الحكم ، وهم الولاة والقضاة ، ورؤساء الجند .

اختلط العرب بغيرهم من الأمم المفتوحة في السكنى وفي التزاوج وفي كل مرافق الحياة ، ولم تعد الأمة الاسلامية أمة عربية فقط ، بل أما مختلفة لها نزعات مختلفة ولغات مختلفة ، وكان من نتائج هذا أن أصبحت رُقعة البلاد الاسلامية معرضا تعرض فيه كل أمة ما كان لها من لغة وعلم ونظم سياسية واجتماعية ، وأحس العرب وهم في هذا المعرض أنهم دون غيرهم من الأمم علما وفلسفة ونظما اجتماعية واقتصادية فلم يأنفوا من اقتباس ذلك منهم وصبغته بصبغتهم ، وإلقاء مسحة عليه من روحهم ، وتعديله على حسب مزاجهم ، ولكنهم أحسوا ، بجانب ذلك ، أن لهم ديناً ولغة أعلى شأنًا وأعز مكانا ، وأن لهم الحق أن يفتخروا بهما ويدعوا اليهما ، وقد نجحوا ، فعلا ، في هذه الدعوة ، وظل هذا النجاح حليفهم إلى اليوم ، فقد ساد الاسلام هذه الأقطار ، وقل من ظل متمسكا بدينه القديم ، وسادت اللغة العربية فاجتاحت ما صادفته أمامها من لغة قبطية في مصر إلى لغة سريانية وعبرانية في الشام والعراق ، وزاحت اللغة الفارسية في فارس ، وانتشرت هذه اللغة العربية في أنحاء آسيا وإفريقية وبعض أنحاء أوروبا انتشارا يدعو إلى الإعجاب وفيتت ، أو كادت ، جميع فروع اللغات السامية الأخرى ، وأصبحت اللغة العربية هي الأداة لنشر الثقافة والحضارة بين هذه الأمم المختلفة الأصقاع المتناثية الأطراف ، وذلك بعد أن اقتبست من اللغات المقهورة مارأت نفسها في حاجة اليه ، وبعد أن زادت في مادة لغتها وتراكيبها وأساليبها ما دعا اليه ارتقاء الحضارة واتساع العمران ، وأصبح الأدب العربي هو أدب الفرس والمصريين والشاميين والمغاربية والأندلسيين وغيرهم ، وزاده ثروة أن صار نتاجا لهذه الأمم جميعا .

قد صبت في هذا الطرف
سؤدد النورى وديم الرب
ملا

Coptic
Egypt

الحياة الاسلامية

مظاهرها الدينية والاجتماعية والسياسية

المظاهر الدينية

دعا الاسلام الى عبادة اله واحد ، هو اله كل شيء في الوجود ، له ما في السموات وما في الأرض ، وهو عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، كما دعا إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى يكافأ فيها كل انسان على ما أتى من خير وشر ، وقرر أن لا قيمة لانسان الا بعمله ، فليس خير الناس أكثرهم مالا وأعزهم نفرا ، ولكن أكرم الناس أتقاهم .

وهذه التعاليم تخالف مخالفة كبيرة ما كان عليه العرب في جاهليتهم من عبادة أوثان وتكاثر بالمال والبنين ومناداة بالعصبية ، فالاسلام يهدم القبيلة ويحل محلها الرابطة الدينية ويقول الله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وفي الحديث «ليس منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية» .

كان للاسلام أثر كبير في حياة العرب فقد نقلهم من عبادة صنم أو وثن لا يضر ولا ينفع إلى عبادة اله واسع السلطان ، واسع العلم (لَا تَدْرِكُهُ الْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْاَبْصَارَ) كذلك ألف بين قبائل العرب المختلفة المتحاربة ودعاهم إلى أن يكونوا كلهم كتلة واحدة ويتأسوا ما بينهم من إحسان وأحقاد .

قوم الاسلام الأخلاق من جديد ، فعد رذيلة بعض ما كان يعده الجاهليون فضيلة كالخمر والميسر والانتقام ، وعد فضيلة بعض ما كانوا يعدونه رذيلة كالصنم والمسألة وردع الظالم عن ظلمه ، ولو كان من أقرب الناس اليك ، ووضع للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى الجاهلي ، فقد كان ذلك في الجاهلية الشهامة التي لا حد لها ، والكرم الى حد الاسراف ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقسوة في الانتقام ، والآخذ بالثار ، بغناء الاسلام يقول (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

مع هذا فالنزعات الجاهلية لم تُمَحَّ محو تاما ، فالعصبية الجاهلية ، مثلا ، كانت تظهر في كثير من البيئات ، وزادت نموًا في الدولة الأموية ، فكان النزاع بين القحطانيين والعدنانيين في كل قطر ، وكان النزاع بين بنى هاشم وبنى أمية وأثرت هذه العصبية في الأدب الأموي فقد انحاز الشعراء الى قبائل ثم أخذوا يشيدون بذكر قبائلهم ويهجون غيرهم ، كما سترى ، وكان بعض شبان بنى أمية وبنى هاشم يعيشون عيشة هي الى الجاهلية أقرب منها الى الاسلام من شراب وصيد وغزل ، ولكن هذا كله لا يغير ما قررنا من أن الاسلام ، صبغ الناس ، الى حد كبير ، صبغة جديدة ووجه نزعاتهم ورغباتهم الى وجهة جديدة ، وكانت الحياة الدينية من عبادة ومدارسة للقرآن والحديث ونحو ذلك متجلية في أكثر البيئات .

المظاهر الاجتماعية والسياسية

نقل الاسلام العرب الى طور اجتماعي جديد فكون منهم أمة اسلامية واحدة تدين بدين واحد ، وتتكلم بلغة واحدة ، وتخضع لنظام واحد ، هو الشرع الاسلامي واخذ العرب يتحضرون وأصبح كثير منهم يتمون الى المواطن بدل انتمائهم الى القبائل ، فكانوا يقولون جند قنسرين وجند دمشق وكانوا يستنكفون من الرجوع الى البداوة .

أصلح الاسلام كثيرا مما كانوا عليه في الجاهلية من النظم الاقتصادية ، كانوا يتعاملون بالربا ويفرطون فيه بغناء الاسلام يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . وكان منهم من يحاول أن يبتز الأموال من أى طريق فاذا باع نقص الوزن واذا اشترى زاد فيه بغناء الاسلام يقول

(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْمَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) . وكانوا يتلاعبون بالديون فيؤنحرون آجالها أو يقدمونها أو يضيفون اليها ، أو ينكرونها بتاتا . فنزل القرآن يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَئْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) الى كثير من أمثال ذلك .

كذلك تعرض لكثير من النظم الاجتماعية فأصلحها ، فقد كان كثير منهم يتزوج غير مقيّد بعدد فخصر الاسلام الزواج في عدد محدود ونص على أن الزوج اذا لم يستطع العدل بين الزوجات وجب عليه ألا يزيد على واحدة (فان خفيم ألا تعدلوا فواحدة) وزاد الاسلام في حرية المرأة فجعل لها من حقوق التصرف في أموالها ما للرجل ؛ وشرع توريث المرأة ، وما كانت ترث من قبل لأن نظام الارث في الجاهلية كان مبنيًا على العصبية والذود عن القبيلة والأسرة فكانوا لا يورثون إلا من يلاقى العدو ويقا تل في الحرب ، وليس للمرأة مجال في شيء من ذلك ، وهذه الأنواع من الاصلاح ونحوها رفعت مستوى العرب الخلق والاجتماعي حتى وصلوا في ذلك الى شأ بعيد .

وتمَّ شيء آخر ، وهو أنه كان من أثر هذا الاتحاد ، وقوة العقيدة ، وخضوع العرب لحكومة تنظم أمورهم أنهم لما وجهوا الى نشر الدعوة وفتح الممالك اتوا من ذلك بما أدهش التاريخ ، فتغلبوا على الفرس وأزالوا دولتهم ، واقتطعوا جزءا كبيرا من الدولة الرومانية .

وهذا الفتح الكبير جعل مدينة الفرس ومدينة الروم تحت أعين العرب ، فتسربت مدينتهما الى المسلمين ، فامتزجت العادات الفارسية والرومانية بعادات العرب ، وكذلك الشأن في كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية والطبائع العقلية . وأصبحت الأمة الاسلامية مكونة من عناصر مختلفة ، وتزاوجت الأفكار والنظم والقوانين والعادات ، كما امتزجت الدماء ، وكانت هذه الممالك غنية بطبيعة أرضها وبكثرة خيراتها وورقي صناعتها ، فتمَّ العرب أيضا بهذا الغنى ،

واقبنتوا الأموال والضياع والعبيد وعاش كثير منهم عيشة ترف ونعيم . وكان لذلك أثر كبير في حياتهم الاجتماعية ، وكما اقتبس العرب من الفرس والرومان كثيرا من نظمهم السياسية كتدوين الدواوين وتنظيم الجيوش أخذ كثير من الفرس والرومان عن العرب ، الدين واللغة فدخلوا في الاسلام أفواجا ، وتعلموا اللغة العربية وحدقوها وتآدبوا بأدابهم ، كما أسلفنا .

الأدب الاسلامى

تطور الشعر

بينما كانت حياة العرب الأدبية على الحال التي وصفناها آنفا ظهر الاسلام في أوائل القرن السابع للسبح فأثر ظهوره في هذه الناحية من الحياة العربية كما أثر في غيرها من أنحاء الحياة أشد تأثير وأبلغه ، أو قل إنه إنما أثر في الحياة الأدبية فغيرها وصورها صورة جديدة ، لأنه أثر في نواحي الحياة الأخرى فبدل الكثير منها تبديلا ، فقد رأيت أن الاسلام شرع للعرب نظما اجتماعية وسياسية واقتصادية لم يكن لهم بمثلها عهد من قبل . قاوموها أول الأمر مقاومة تختلف قوة وضعفا باختلاف الظروف والبيئات ، فما هي إلا أن أذعنوا لها طائعين أو كارهين حتى أثرت في حياتهم العقلية والشعورية شيئا فشيئا . وإذا كان الأدب مرآة العقل والشعور فليس غريبا أن يكون الأدب العربى بعد ظهور الاسلام مغايرا قليلا أو كثيرا للأدب الجاهلى ، لأنه يصف حياة غير الحياة الجاهلية ويصور عقلا غير العقل الجاهلى ، وشعورا غير الشعور الجاهلى ، على أن تأثير الاسلام في الحياة الأدبية للعرب لم يحدث بجماعة ولم يتم مرة واحدة ، وإنما حدث قليلا قليلا ، وظهر شيئا فشيئا ، وقضى العرب عصرا مستمسكين بأدبهم القديم لا يعدلون أو لا يكادون يعدلون عنه إلى غيره ، وقد بدأ عصر الانتقال هذا بشيء من الحيرة حين تلى القرآن عليهم فأنكروه وأكبروه . لأنه جاءهم بنحو من القول غريب لم يكونوا

يألفونه ، لا من جهة أغراضه ومعانيه ولا من جهة أساليبه وتفصيل آياته وإحكامها ، إنما كانوا يألفون هذا النوع الأدبي القديم وهو الشعر يعبرون به عن أغراضهم ويصورون به خواطر نفوسهم ودخائل قلوبهم ، قد ألقوا أوزانه وقوافيه وتقطيعاته ، وألقوا فنونه ومعانيه وموضوعاته يتصرفون فيها على النحو الذي صورناه لك منذ حين ، فإذا هم يسمعون كلاما يتحدث إليهم في الدين وما يستتبعه من جدال ونضال ، ومن نذير وتبشير . ومن اشتراع في أمور الحياة على اختلافها ، في أسلوب لا هو بالموزون المقفى ولا هو بالمرسل المطلق ، ولكنه قد فصل تفصيلا وانسجم انسجاما جديدا يطول حيناً ويقصر حيناً آخر ، فأنكروا هذا كله أول الأمر ، ثم تدبروه فبهروهم بحمالة وقهرتهم بقوة فأجوبوه واطمأنوا إليه ، وما هو إلا أن يمضى ربع قرن حتى تؤمن به الأمة العربية كلها وتتخذها لها نظاما وقانونا ومثلاً أعلى في حياتها الأدبية والسياسية والدينية والاجتماعية . وليس من شك في أن انكار بعض العرب للقرآن وإكبار بعضهم ، وإجلالهم إياه منذ البعثة إلى أن قبض النبي صلى الله عليه وسلم هما الظاهرتان اللتان تختصران الحياة الأدبية للعرب في عصر النبوة ، فقد انقسم العرب الذين وصلت إليهم الدعوة الإسلامية وتلى عليهم القرآن إلى فريقين ، فريق يكبره ويذود عنه ، وفريق آخر يتركه ويقاومه ، وظهر أثر ذلك كله في الشعر ، فنهض جماعة من الشعراء يذودون عن النبي ودينه ، وظهرت جماعة أخرى يناضلون عن الدين القديم ويعادون النبي وأصحابه ، ومهما يكن من شيء فقد كان هذا الشعر الذي صورنا الخصومة بين قريش وأنصار النبي جاهليا في ألفاظه ومعانيه ، وفي أساليبه وأغراضه ولكنه ، على هذا كله اشتمل على أشياء لم يكن يشتمل عليها الشعر من قبل ، فتناول معاني دينية قلما كان عرب الحجاز يعنون بها أو يلتفتون إليها ، وكثرت فيه ألفاظ لم تكن تتردد على ألسنة الشعراء من قبل ، وإنما ظهرت لأن القرآن استعملها وأذاعها بين الناس ، فذكرت الجنة والنار ، وذكر الإيمان والكفر ، وذكر الثواب والعقاب والصلاة والزكاة والصيام وما يشبه هذه الألفاظ والمعاني ،

وتفاوتت حظوظ الشعراء من استعمال هذه الألفاظ والقصد إلى هذه المعاني ،
فمنهم من كان يكثر من ذلك ويلج فيه كعبد الله بن رَواحة من شعراء الأنصار ،
ومنهم من كان يذكره حيناً ويعرض عنه حيناً آخر كحسان بن ثابت ، ومنهم من
كان لا يلم به إلا ما كشعراء قريش المعارضين للنبي ودينه الحديد ، وقد استبعت
هجرة النبي إلى المدينة حروبا بينه وبين قريش وحلفائها ، ونشأت عن هذه الحروب
ظروف دعت إلى قول الشعر والاكتثار منه ، دعت إلى الفخر والمدح والثناء
والهجاء ، وائس من شك في أن الشعر العربي قد نهض في هذا العصر من حياة
النبي صلى الله عليه وسلم نهضة لم يعرفها في العصر الجاهلي الخالص ، وآية ذلك أن
الشعر كثر في قريش ولم تكن قريش تعرف بالشعر وكثرت قبل ظهور الاسلام ،
وقبل اشتداد الخصومة بينها وبين النبي وأصحابه ، ثم جمع الله كلمة العرب على
الاسلام وقُبِضَ النبي وثارَت العرب مرة أخيرة في حروب الردة ، فاضطرها أبو بكر
رضي الله عنه إلى الازعان للدين الحديد ، ثم دفعها إلى الفتح ، ومضى على سنته
الخلفاء من بعده فانقطعت المعارضة للاسلام في بلاد العرب ، وزالت الخصومة
الدينية في الحجاز ، واشتد عمر على الذين كانوا يذكرون الخصومة القديمة ويروون
ما قيل فيها من الشعر أيام النبي صلى الله عليه وسلم حتى نهى حسان في بعض
الأحيان عن انشاد شعره في مسجد النبي ، فضعفت العناية بالشعر بعض الضعف ،
وانصرف الناس عن الانتاج الفني إلى الحروب والفتوح وتأسيس الدولة وتمصير
الأمصار واستقبال هذا السلطان العظيم الذي بسطه الله للعرب على الأرض ،
ضعفت العناية بالشعر بعض الضعف ولكن العرب لم تنصرف عنه الانصراف
كله ، وإنما ظل فيها شعراء يقولون على النحو الجاهلي القديم ، يمدحون ويبرثون
ويهجون ويفخرون ولا سيما بالجزو والفتوح ، ظل الحطيئة وكعب بن زهير
والشماخ بن ضرار والنابعة الجعدي وغيرهم يقولون الشعر كما كانوا يقولونه من قبل ،
وربما كان من الحق أن نلاحظ أن جماعة من الشعراء انصرفوا أو كادوا ينصرفون
عن الشعر بعد وفاة النبي كحسان ولييد ، وأن قوما آخرين مضوا فيه لم يتأثروا بهذه

الحياة الجديدة أو تأثروا بها كارهين كالخطيئة الذي ظل فيما كان فيه من هجاء وإبداء
وتكسب بالشعر في غير مروءة ولا تعفف عن المسألة والالخاف فيها حتى اضطُر
عمر الى حبسه في ذلك ، وكضابئ بن الحارث البرجُمي الذي أقذع في الهجاء حتى
اضطر عثمان إلى حبسه فمات في السجن ، هؤلاء الشعراء احتفظوا بجاهليتهم
احتفاظا شديدا في حياتهم الخاصة ، وفي تفكيرهم ، وفيما كانوا ينظمون من شعر ،
ولكنهم مع هذا تأثروا في ألفاظهم وبعض معانيهم بالقرآن والحياة الاسلامية
الجديدة فظهرت في شعرهم ألفاظ ومعان لم تكن مألوفة من قبل والناس جميعا
يذكرون قول الخطيئة في هجاء الزُّبرقان بن بدر .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

تكوّن الأدب الاسلامي

وانقضت خلافة أبي بكر وعمر وشطر من خلافة عثمان في حرب وفتح وبسط
لسطان الاسلام على بلاد الفرس والروم ، فكان شباب الأمة العربية وأولو البأس
منها منصرفين عن القول إلى العمل ، وكان شيوخ هذه الأمة وذوو الرأي منصرفين
إلى تدبير الدولة والعناية بسياستها ، وكان جماعة من شيوخ البادية محتفظين
في باديتهم بحياتهم الجاهلية خاضعين للنظام الجديد ، منهم من يحبه ويطمئن اليه ،
ومنهم من يكرهه وينفر منه ، وهم يقولون الشعر ويرددونه ويتخذون قوله وروايته
سمر الليل وطو النهار ، وفي أثناء هذا كله كانت الأحداث تنشأ ويتلو بعضها بعضا ،
وكان نشوءها وتعاقبها يغيران من حياة هذا الجيل العربي ، ويكوّنان الجيل الناشئ
تكوينا جديدا ، فلم تكد تنتهي خلافة عثمان حتى كانت الحروب والفتوح وما أفاء
الله على المسلمين من فيء وما امتلأت به أيدي العرب من مال ، وما نشأ عن هذا
من اختلاط العرب بالأمم الأجنبية اختلاطا شديدا قد أخذت تعمل في حياة
العرب عملها ، وتحدث فيها آثارها الطبيعية ، فظهر التنافس واشتد ، وعظم الجهاد
بين العرب ، وانصرفت سيوفهم عن العدو إلى أنفسهم ، وكانت بينهم فتن سياسية

وذيذة سُفِكَت فيها دماء الآلاف من المسلمين ، وقُتِلَ عثمان وعلي ، ونشأت خصومة عنيفة قسمت هذه الأمة الى أحزاب وشيع ، بعد أن كان الاسلام قد وحد رأيا وجمع كلمتها وأخضعها لسلطان واحد وهو سلطان الخلافة ، وكما أن الخصومة التي كانت بين النبي وقريش أنطقت الشعراء بكثير من الشعر وبعثت فيهم روحا قويا ، أنطقت الخصومة التي نشأت بين المسلمين في أيام عثمان وعلي الشعراء بكثير من الشعر أيضا وظهر فيه هذا الروح القوي الذي يظهر عادة في الآثار الأدبية شعرا وثرأ كلما اشتدت الخصومة وعظم الجهاد بين الأحزاب. ثم استقر الأمر بعد ذلك لخليفة واحد هو معاوية بن أبي سفيان زعيم الأمويين نحو عشرين سنة هدأت فيها ثائرة الخصومة وعادت فيها كلمة المسلمين إلى الاجتماع ولكنه إنما كان هدوءا مؤقتا ، هدوء من يستتبع اقواه ليحسن الوثوب ، فما كاد يموت معاوية سنة ٦٠ للهجرة حتى عاد العرب إلى ما كانوا فيه من خصومه وصراع لا يشبههما إلا ما كانوا عليه من الشر قبل ظهور الاسلام ، فكثرت أحزابهم السياسية واشتدت الحروب بين هذه الأحزاب بالسيف واللسان ، وكثر الفساد ، واضطرب أمر الدولة ، وطمع فيها الأجنبي ، واستيئس الناس من الأمن والعافية ، وظهر في هذا الاضطراب أمر الشعر قويا كما كان إبّان الفتن الأولى بين علي ومعاوية ، ولكن الشعر الذي ظهر قويا في هذا العصر مخالف مخالفته شديدة للشعر الذي نعرفه عن الجاهليين قبل الاسلام وإبان ظهوره وأيام الخلفاء الراشدين ، ذلك لأن عصر الانتقال كان قد انقضى ، وكان هذا الانتقال قد تم ، وكان الجيل العربي الذي أدرك الجاهلية والاسلام قد انقرض أو كاد ، ونشأ مكانه جيل آخر اسلامي خالص ، ولد في الاسلام ونشأ في ظله وأخذ بأدابه وأصوله ونظمه ولم يشهد من الحياة الجاهلية شيئا ولم يعرف من أمرها إلا ما كان يقصّه عليه الآباء والأمهات ، ورأى حياة جديدة فيها سعة في العيش ولين ، وفيها نعمة ويسر ، واتصل بأجيال من الناس لم يكن آباؤه يتصلون بهم ، اتصل بالفرس والروم ورعايا الفرس والروم ، ونشأ على هذا كله نشأة العزيز المتسلط وقد دانت

له الأرض وذات له الأمم ، فليس غريبا أن يكون لهذا الجيل الحديد عقل جديد مخالف لعقل الجيل الذي سبقه ، وشعور مفاير لشعور هذا الجيل ، وليس غريبا أن تكون لهذا العقل الحديد ، والشعور الجديد مرآة جديدة هي هذا الأدب الذي نسميه بالأدب الاسلامي ، وهو أدب اسلامي حقا ، لأنه كما رأيت قد نشأ نشأة اسلامية خالصة . ومن هذا تعود القدماء من علماء المسلمين اذا ذكروا الشعر الجاهلي أن يدلوا بهذا اللفظ على كل الشعر الذي قيل منذ العصر الجاهلي إلى أن ظهر هذا الجيل الجديد من شعراء الاسلام ، وعلى هذا الجيل الجديد وحده كانوا يطلقون لفظ الشعراء الاسلاميين .

صورة من الحياة العربية الجديدة

ولأجل أن تفهم هذا الشعر الاسلامي على وجهه ، وتضعه من الشعر العربي كله في موضعه ، وتبين الأغراض التي كان يقصد إليها ، والألفاظ والأساليب التي كان يصطنعها ، لأجل أن تفهم تطور الشعر الجاهلي إلى هذا الطور الجديد يحسن أن نعطيك صورة موجزة صحيحة بقدر الاستطاعة من الحياة العربية الجديدة التي كان يصورها الشعر العربي الجديد ، فقد بعد عهد العرب بتلك الحياة القديمة التي كان السلطان فيها للقبيلة ورؤسائها ، وخضعت الأمة العربية كلها لسلطان سياسي واحد منظم قائم على أسس جديدة ، وأصبح العربي لا يكسب حياته من الغزو والغارة كما كان يفعل من قبل ، وإنما يكسبها من طرق أخرى كان يجهلها في أكثر الأحيان قبل الاسلام فشرعت له بعده ، ومهدت له السبل إليها ، منها التجارة ومنها استثمار الأرض ، ومنها الجندية وما كانت تضمن اصحابها من عطاء في بيت المال ، ومنها أعمال الدولة على اختلافها في السياسة والادارة والقضاء ، واتسع أفق الحياة أمام العربي فتجاوز بلاد العرب إلى البلاد الاسلامية التي بعدت حدودها في الشرق والغرب ، واشتملت على أمم كان لها قبل الاسلام البأس والقوة ، وأصبحت منذ الفتوح خاضعة مغلوبة تدين لهذه الأمة الفاتحة ، وتنفق ما تملك

من جهد وقوة فتملاً خزائنها بالمال وتمكنها من الحياة اليسيرة اللينة ، وبعد أن كان العرب المقيمون في العراق خاضعين أو كالخاضعين لسطان الفرس أصبحوا سادة لهؤلاء الفرس ، وبعد أن كان العرب المقيمون في مشارف الشام خاضعين أو كالخاضعين لسطان الروم أصبحوا سادة للشام ، وأصبح الروم المقيمون في الشام رعايا لهم ، وبعد أن كان العربي لا يزور مصر الا لما استقر سلطان العرب في مصر واندفعت اليها أفواجهم يقيمون ويستعمرون ، ثم تجاوزوها إلى إفريقيا الشمالية ، ثم عبروا المضيق إلى أسبانيا فاستقروا فيها سادة متصرين ، كل هذا غير من نفوس العرب وأخلاقهم وحياتهم ، ثم لم تلبث هذه الأمة كما قدمنا أن ظهر فيها التنافس في السلطان ، فانقسمت أحزابا وشيعا ، يجاهد بعضها بعضا ، وينصب بعضها الحرب لبعض ، وقد كانت بعد أن مات معاوية منقسمة الى أحزاب قوية نستطيع أن نسميها ونخصيها ، فحزب قد التفت حول بني أمية في الشام يناصرهم ويريد أن يثبت لهم الملك ، وحزب قد التفت حول عبد الله بن الزبير في الحجاز يذود عنه ويعينه على ما يطمع فيه من سلطان ، وحزب قد التفت حول أهل البيت النبوي من بني هاشم في العراق يدعو إلى أن تكون لهم الخلافة ، وحزب رابع ينكر هذه الأحزاب كلها ويرميها بالكفر ، ويصفها بالمروق من الدين ، ويسب عليها أشد الحروب نكرا ، وأقبحها أثرا ، وهو حزب الخوارج الذين ينكرون أن تكون الخلافة في قبيلة أو شعب دون شعب ، ويريدون أن يكون الأمر كله شورى بين المسلمين ، وكان الجهاد بين هذه الأحزاب الأربعة متصلا عنيفا منكر الأثر ، ولا سيما بعد أن مات معاوية واضطرب الأمر على يزيد ، وبعد أن مات يزيد ابن معاوية بنوع خاص ، وكان الأدب أداة من أدوات هذا الجهاد ، لكل حزب شعراؤه وخطباؤه ، ثم انتصر حزب الأمويين على حزب الزبيريين فمحا محوا ، وانتصر على الشيعة فاضطرها إلى معارضة تظهر متى استطاعت وتخفي متى اشتد البأس ، ولكنها قائمة على كل حال لها أنصارها ولها شعراؤها ، وخطباؤها ، ولم يثبت لبني أمية الا حزب الخوارج يجاهدهم جهادا عنيفا ، حتى اذا انتصروا عليه لم يضعف أمره إلا ريثما يقوى مرة أخرى .

مواطن الأدب الاسلامي

وعلى كل حال قد انبسط سلطان الأمويين على أقطار البلاد الإسلامية وعادت وحدة الدولة العربية أيام عبد الملك بن مروان وبنيه الى شئ يشبه ما كانت عليه أيام معاوية ، وأصبحت مراكز القوة العربية منذ ذلك الوقت ثلاثة : الشام وفيها الخلافة وما تستتبعه من جلال وبأس وسطوة . العراق وفيه الشيعة والمعارضة ، وفيه فريق من الذين كانوا ينصرون ابن الزبير ، وفيه كثرة من الفرس وأخلاق من أمم أخرى ، وفيه مال كثير وأرض خصبة وفيه لهذا كله اضطراب متصل ومعارضة مستمرة ، وصراع بين الآراء السياسية والدينية لا يكاد ينقطع . والحجاز ، وهو مهد الاسلام وفيه مكة موطن قریش ، والمدينة موطن الأنصار ، وقد اقتضت سياسة بنى أمية أن يصبح موطناً للشباب المتطرف من أبناء المهاجرين والأنصار ، يقيمون فيه لا يتركونه الا باذن من الخليفة ، وقد فرضت لهم من بيت المال أرزاق ضخمة ، وأخذ الخلفاء أنفسهم بالتوسعة عليهم في العطاء ، وورثوا عن آباءهم الفاتحين أموالاً لا تكاد تحصى ، فهم أهل نعمة وترف و فراغ وفيهم فصاحة ولسن ، ولهم شعور رقيق ، وحس دقيق ، وعواطف ملتفة ، وفيهم شئ من اليأس والامتعاض والسخط على الدولة القائمة يظهره متى وجدوا الى اظهاره سبيلاً ، ويخفونه حين لا يكون من اخفائه بد ، واختلف حال الأدب في هذه المراكز الثلاثة باختلاف شؤونها السياسية والطبيعية والاقتصادية .

الأدب في الأمصار

فأما الشام فلم يكن فيه أدب الا ما كان ينقل اليه مع الوافدين على الخلفاء من أهل العراق والحجاز ، لأن كثرة العرب التي كانت تقيم به كانت يمانية لاحظ لها من فصاحة ولاسن ، وليس لها ما للعرب العدنانية من هذا المزاج المتيج الذي نراه فيما ورثنا عنهم من أدب جاهلي واسلامي ، وأما العراق فكان بطبيعة ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية موطناً لهذا الأدب المضطرب الخصب الذي

كان في غليان مستمر، ونتاج متصل . فيه معارضة سياسية، ونضال بين الأحزاب فيه اذن خطابة سياسية وشعر سياسى ، وفيه جهاد بين القبائل وتنافس بين الأفراد على نحو ما كان يقع بين العرب في جاهليتهم، ففيه اذا شعر يكثر فيه الهجاء للأفراد والجماعات ويكثر فيه الفخر ، ويكثر فيه المدح أيضا، وأما المجاز فكان بحكم ظروفه التي قدمناها موطنًا لشئيين متناقضين أشد التناقض . كان موطنًا للشك والتقوى والجد في درس العلوم الدينية وتحصيلها لمكان مكة والمدينة من ذلك، وكان موطنًا للهو والعبث والمجون لمكان هؤلاء الأشراف من قريش والأنصار وثروتهم واضطرارهم إلى الفراغ .

أغراض الشعر الاسلامى

كل هذا يعطيك صورة من الحياة العربية في أواسط القرن الأول للهجرة ، وهو في الوقت نفسه يبين لك الأغراض التي كان يقصد اليها الشعر الاسلامى في ذلك العصر ، فقد احتفظ بفنونه القديمة التي كان يصطنعها في الجاهلية . احتفظ بالمدح والهجاء والفخر والثناء وما اليها ، وأضاف اليها فنونا لم تكن . كما غير بعض الفنون القديمة تغييرا قويا أو ضعيفا .

الغزل

فن الفنون التي قويت في هذا العصر الغزل ، ولم يكن حظ الجاهليين منه الا شيئا يسيرا اذا قيس بحظ الغزل في هذا العصر ، وذلك أنه لما كانت الحياة الاسلامية الجديدة، وكثرت في الأشراف في المجاز ، ورق مزاج أهل البدو من هذا الاقليم بتأثير القرآن والحياة الجديدة ظهر هذا الفن في المجاز على أنه فن يقصد لنفسه ، ويصف عواطف الشاعر وما يعبث بنفسه وقلبه من الأهواء والميول ، واختلفت مذاهب الشعراء المجازيين في هذا الفن باختلاف بيئاتهم ، فأما أهل البادية منهم فكان شعرهم عذريا عفيفا لا اثم فيه ولا بفجور ، ولا يتجاوز للألوف من أخلاق الناس ، وانما هو الحب الطاهر القوى الحاد ، يتسلط على قلب

الشاعر ونفسه فيملك عليه أمره ، ويرقى به إلى طور من أطوار النفس يشبه الهيام ، فيصور هذا الطور في شعر عذب لذيذ لا حرج في قراءته على أحد ، وفي قراءته لذة لكل إنسان ، وزعيم هؤلاء الغزليين من أهل البادية جميل بن معمر الذي اشتهر (بصاحب بئينة) ، والذي تغنت بادية الحجاز بغزله عصر بني أمية وروى لنا من شعره الشيء القليل نجده متفرقا في كتب الأدب .

وأما أهل المدن في مكة والطائف والمدينة فكان منهم كما قدمنا أصحاب ثروة ضخمة وهو كثير ، وكان شعرهم يصف حياتهم هذه وصفا صادقا ، ويصور ما فيها من لحو تصويرا دقيقا ، فظهر فيه شيء من الأثم والعبث يختلف باختلاف مزاج الشعراء . ومن هؤلاء الأحوص بن محمد الانصارى الذي مازال به اسرافه في اللهو والتعرض لأهل بلده وولاية المدينة حتى عُدَّ بنى أيام سليمان بن عبد الملك ، وكالعرجي في الطائف ومكة وقد كان فاتكا مسرفا في الفتك والتعرض لولاية مكة والسخط على خلفاء دمشق حتى عذب وحبس ومات في السجن .

عمر بن أبي ربيعة

وعمر بن أبي ربيعة وهو زعيم هؤلاء الغزليين من أهل المدن بل زعيم الغزليين في هذا العصر بوجه عام ، وقد يصح أن نعتبره زعيم الغزليين في الشعر العربي إلى هذا العصر الذي نعيش فيه ، فلا بد من وقفة قصيرة عنده نلم فيها بشيء من شعره إلاما .

أما أخباره فكثيرة مبثوثة في الكتب ، جمع منها صاحب الأغاني مقدارا لا بأس به ، منها الصحيح ومنها المخترع ، والمعروف أنه ولد في اليوم الذي مات فيه عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ومات سنة ٩٣ هـ ونشأ في أسرة غنية من بني مخزوم في مكة نشأة حسنة ، فيها ترف ونعمة ، وكان أخوه الحارث بن أبي ربيعة رجلا صالحا تقيا ، وكان من ولاية عبد الله بن الزبير على البصرة ، ولما شب عمر بن أبي ربيعة انصرف إلى الشعر عن كل شيء إلا حياة المترفين ، وكان فيما يقول الرواة يقضى عامه بمكة في لحو وقول للشعر ، حتى اذا كان موسم الحج خرج من مكة

في زينة حسنة فاستقبل الحاج من حيث يأتون من العراق والشام والمدينة ،
وتعرض لنساء الأشراف وبناتهم حتى يراهن ، ولم يكن يتخرج أن يرقبهن في أثناء
الطواف بالكعبة حتى إذا انصرفن عن مكة قال فيهن الشعر ، وظل كذلك إلى
أن مات .

وليس من شك في أن عمر قد ابتدع في الشعر فنا جديدا بكل ما تحتمل هذه
الكلمة من معنى ، فقد جعل الغزل غرضا يقصد لنفسه لا لشيء آخر كما جعله الشعراء
الغزلون من أهل البادية ، وسلك إلى هذا الغرض طرقا مختلفة ولكنها كلها طريقة ،
وأظهر ما تمتاز به هذه الطرق أنها كانت قصصية ، فلم يكن عمر يتحدث عن النساء
كما تعود الشعراء أن يتحدثوا عنهن ، وإنما كان يتحدث عن نفسه ، ويقص ما وقع
له معهن ، أو ما تحيل أنه قد وقع له معهن ، فكانت قصيدته لذلك قصة غرامية
قصيرة ، ولكنها من العذوبة والرفقة ودقة الوصف وتصوير ما يجده الحس والقلب
بحيث تملؤك إعجابا بها واطمئنانا إليها

ولم يكن في أكثر حالاته يقص كما يقص غيره من الشعراء ، وإنما كان يبعث
في قصصه حياة قوية ، فينطق الأشخاص ويحدث بينهم من الحوار الدقيق ما يلد
ويسحر ، ولو أتيح له أن يطيل وينوع لوصل إلى اختراع الشعر التمثيلي من بعض
النواحي . وديوانه ضخم فيه شعر كثير وليس من شك في أنه لا يجمع كل ما قال عمر

تحليل قصيدة لعمر

ولناخذ من هذا الديوان الضخم قصيدة مشهورة يتخذها الأدباء عنوانا لشعره
وان كان في شعره الكثير ما قد يكون أجمل منها وألذ موقعا في النفس ، وفي
هذه القصيدة يمثل روح عمر وما فيه من خفة وظرف ، كما يمثل حظه الغريب
من تيسير الشعر وتسميله ، واختيار الألفاظ الحلوة المألوفة التي لا تبلغ بها السهولة
إلى الإسفاف ، ولا تصل بها القوة إلى الغلظة والغرابة ، والتي تمثل أحسن تمثيل
لغة قريش في هذا العصر ، ولغة النساء من قريش بنوع خاص ، وهذه القصيدة
قصة صغيرة ولكنها ممتعة مؤثرة ، فقد بدأها الشاعر بذكر صاحبته "نعم"

وسؤال نفسه أهو منصرف عنها في يوم من الأيام؟ ثم يذكر حاجته اليها وكلفه بها ، وتعذر الاتصال بينه وبينها ، واستحالة سلوّه عنها ، وعجزه عن الصبر عن لقاءها .

تتيم إلى نُعِيم فلا الشمْلُ جامعٌ ولا الحبلُ موصولٌ ولا القلبُ مُقصرٌ ولا قُرْبُ نُعِيمٍ إن دنتُ لك نافعٌ ولا نأيها يُسلي ولا أنت تصيرُ وأحب أن تلاحظ تكرار "نُعِيم" واللاحاح في التكرار ، لافي هذين البيتين وهدهما ، بل فيهما وفيما قبلهما من الشعر ، فهو لم يكثر من ذكر هذا الاسم عبثا وانا هو اسم حبيب اليه ، كريم عليه ، فهو يردده لأنه يجد في ترديده لذة وراحة ، ثم يذكر الشاعر أن هناك عقبة دون ما يريد من حب "نُعِيم" لو عرضت اغيره لانتهى عن هذا الحب إلى يأس مريح ، ولكنه لا يعرعى ولا يزدجر ، ولا يفكر فيما يعترض حبه من صعاب ، وهذه العقبة هي أنه لا يستطيع أن يزور نعيما أو يدنو منها حتى يحس من ذى قرابة لها بغضاله وحقدا عليه ومكرا به وتهيبوا لايدائه ، وهو مع ذلك يتجنب أو يحاول أن يتجنب زيارتها رفقا بها واشفاقا عليها ، فقد عرّف حبه إياها وتبعه الرقباء لا يفارقونه ، فهم يُشهرُونَ به ان زارها ويشهرون به في شيء من النكر لا يجبه .

أَلِكُنِي إِليها بِالسَّلامِ فَانه يُشهرُ إِليها وَيُنكرُ فانظر اليه كيف يتجنب زيارة "نُعِيم" مخافة التشهير والنكير ثم لا يلبث هو أن يشهر بها نفسه فيقول .

بِأَيِّ ما قالتُ غداة لقيتها بِمدفعِ أَكْتابِ أَهذا المُشهرُ ثم انظر اليه كيف يصور ما يقع بين النساء من حوار اذا عرض لهن رجل كن يعرفنه فأنكرنه لما تغير من شأنه .

قَفِي فانظري أسماء هل تعرفينه أَهذا المُغيري الذي كان يُذكرُ أَهذا الذي أطريتِ نعتا فلم اكن وعيشكِ انساه الى يومِ أَقبرُ فقالت نعم لاشك غير لونه سرى الليل يُحيي نَصّه والتهجرُ لئن كان اياه لقد حال بعدنا عن العهدِ والإنسانُ قد يتغيرُ

فنعن تنكره ، وأسماء تعرفه ، وتعال ما كان من تغيره بكثرة ما هو فيه من سرى الليل وسفر النهار ، ثم يدفع هو عن نفسه ويصدق ما ذهب إليه أسماء من تعليل فيقول ان نعا إنما رأيت رجلا لا يستقر ، فهو متعرض لحر الشمس ، متعرض لبرد الليل ، أخو سفر ، جواب أرض ، تتقاذفه الفلوات ، فهو أشعث أغبر ضئيل نحيل ، لولا أن عليه بقية من نعمة ، ثم يستلذ هذا التشهير لما فيه من ذكرى محبة إليه فيمضى فيه ، ويستأنف قصة حلوة كثر أمثالها في شعره حتى عرف بها ، وحتى ذكر كل ما قرىء مثلها في شعر شاعر آخر .

ومجل هذه القصة أنه أراد لقاء صاحبه ليلة وهي نازلة مع أهلها بذى دوران فتجشم سرى الليل ، ثم أخذ يصف ملاقاتها وما دار بينهما من حوار في أسلوب قصصي رائع إلى أن يقول

فلما آجَزنا ساحةَ الحَيِّ قَلنَ لِي أَلْمُ تَتَقِ الأَعْداءَ وَاللَّيْلُ مُقِمِر
وَقُلنَ أَهَذَا دابكِ الدَهْرَ سادِرا اِما تَسْتَحِي أو تَرَعَوِي أو تُفَكِر
اِذا جِئْتِ فامْنَحِ طَرَفَ عَينِكَ غَيرَنا لِسِ كِي يَحْسَبوا ان اِلهوِي حَيْثُ تَنْظُر

وعلى هذا النحو من الغزل القصصي أو القصص الغزلي يمضي عمر بن أبي ربيعة في كل شعره ، وسواء أكان قصصه هذا تصويرا لما وقع أم خيالا صرفا أم مزاجا من الحق والخيال فهو يصور على كل حال حياة المترفين في المجاز وميوطنهم وأهواءهم ومذهبهم في التعبير عن هذه الميول والأهواء كأنه يصور حياة بعض نساء العرب وميوطن وأهواءهن وطائفة من أخلاقهن .

وقد رأيت في لغته من السهولة واللين ومن المتانة والقوة ما قدمنا الإشارة إليه ، وأمثال عمر بن أبي ربيعة من الغزلين في المجاز يذهبون مذهبه أو مذهبا يقارب مذهبه ، وقد كثر هذا النحو من الغزل في المجاز كما قدمنا ، وكانت نشأته وكثرته نتيجة للحياة المجازية .

الغناء

فليس غريبا إذا أن يظهر مع هذا الغزل وينمو معه أيضا فن آخر ملازم له هو أيضا نتيجة حياة الترف واللهو وصفاء المزاج ورقة الطبع وحدة العاطفة ، وهو الغناء والحق أن الغناء ظهر في الحجاز في نفس الوقت الذي ظهر فيه الغزل ، ولم يعرف في الأقاليم العربية الأخرى إلا حين انتقل إليها من الحجاز ، كما أن الذين تغزلوا من أهل العراق والجزيرة ونجد إنما كانوا يتأثرون أصحاب الغزل من أهل الحجاز . وليس هنا موضع البحث عن أصل الغناء وتاريخه ، ولكن شيئا لا بد من الإشارة إليه ، وهو أن كثرة الموالى من الفرس والروم رجالا ونساء في الحجاز كان لها أثر قوى جدا في نشأة الغناء ونموه كما كان لها أثر ما في نشأة الغزل ونموه أيضا .

الشعر السياسي

ومن الفنون التي استحدثت في الاسلام الشعر السياسي . وقد كانت نشأته ظاهرة طبيعية دعت إليها الحياة الجديدة التي قدمنا تصويرها وما كان فيها من صراع بين الأحزاب ، وجهاد بين آرائها المختلفة في نظام الحكم ، وأشخاص الناهضين به من الزعماء ، واتصال هذا النظام وهؤلاء الأشخاص بالدين الذي هو أساس الحكم عند المسلمين ، على أن هذا الشعر السياسي الجديد إنما هو طور انتهى إليه الشعر العربي من بعض نواحيه ، فقد كانت الخصومة تقع في الجاهلية بين القبائل ، فيقول فيها الشعراء مدافعين عن قبائلهم أو محترّضين لها على الحرب والقتال ، أو داعين لها إلى الصلح والسلم . وقد نشأت الخصومة بين المسلمين والوثنيين أيام النبوة فقال الشعراء فيها الشعر كما قدمنا . ونشأت كذلك الخصومة بين المسلمين أنفسهم حين ظهرت الفتنة السياسية أيام عثمان فقبل فيها الشعر . فظاهر أن الشعر السياسي الذي نريد أن نتحدث عنه الآن إنما هو نتيجة التطور الطبيعي لهذا الشعر الذي كان يقال في الخصومات بين القبائل والجماعات .

ويمكننا أن نميز هذا الطور من أطوار الشعر السياسي بأنه طور تنظيم الأحزاب السياسية واستقرارها على قواعد معينة ثابتة ، فلم يكن هذا الشعر خاضعا للظروف التي تعرض حياة الافراد والقبائل ، وإنما كان صورة صحيحة لحياة الأحزاب التي يناضل عنها وينطق بلسانها ، فحزب الشيعة كان يقوم على أن الخلافة يجب أن تكون في بني هاشم ، أو عبارة أدق يجب أن تكون في أبناء علي من بني هاشم ، لأنهم أحفاد النبي صلى الله عليه وسلم وأبناء عمه ، ولأن النبي قد أوصى لأبيهم علي بالحكم كما يذكرون ، وحول هذا الأصل الأساسي نشأت أصول أخرى إضافية تعرضت للتغيير والتطور ، ولكن الأصل الأساسي ظل قائما فيما تقرأ من شعر الشيعة فستراه مدافعا دائما عن هذا الأصل ، مناصرا للذين ينهضون به من الزعماء ، مناضلا عنهم خصومهم من زعماء الأحزاب الأخرى ، وقل مثل ذلك في حزب الأمويين ، الذي كان يقوم على أن الحكم يجب أن يكون في بني أمية ، لأن خليفة أمويًا وهو (عثمان) تولى خلافة المسلمين من طريقها الشرعي فقتل ظلما ولم يُثأر به ، وبنو أمية أولياؤه الأقربون ، فلهم المطالبة بدمه ، ولهم اقرار الأمر في نصابه بعد مقتله ، وهم بعد أقوى قريش وأشدّها بأسا ، وقد ظهرت من المسلمين جماعة ضخمة ليست أقل من الجماعة التي ظهرت خصومهم . ومن هنا لا تكاد تقرأ شعرا سياسيا يدافع عن بني أمية أو يمدحهم الا رأيت فيه اشارة ما إلى هذا الأصل الذي يعتمد عليه الأمويون في النهوض باعباء الحكم . ومثل هذا يقال في حزب الزبيريين الذي نهض ينكر على بني أمية استئثارهم بالحكم ونقله إلى أبناءهم دون استشارة للامة أو عناية برأيها فيه ، مع أن نظام الخلافة الاسلامية يقوم على الشورى لا على هذا النحو الأجنبي الذي تتوارث فيه أمور الدولة كما كان يفعل القياصرة والأكاسرة ، فلا بد أذا من أن ينزل بنو أمية عن هذا الحكم الذي اغتصبوه اغتصابا ، وأن يردوه الى الأمة تجعله لمن تشاء وتختار من زعمائها وأعلامها . وكان حزب الخوارج يقوم أول الأمر على انكار التحكيم بين الخصمين على ومعاوية ، والجهري بأن هذا التحكيم خطأ ، وبأن الخصمين

الذين قبله قد تجاوزا بقبوله حدود الدين . أما معاوية فلا أنه لم يكن صاحب حق شرعى فى الخلافة وإنما كان واليا بنى على الخليفة ، فلما خاف الهزيمة لجأ الى التحكيم خديجة وكيدا ، وأما على فلا أنه حين قبل هذا التحكيم شك فيما كان يعتقد من أنه صاحب الحق الشرعى فى الخلافة ، وما كان له أن يشك فى هذا الحق ، فأما وقد فعل فليس من الخلافة فى شئ بل هو قد تجاوز الدين ولا بد من من أن يعترف على نفسه بالكفر ثم يتوب الى الله منه والا فالخوارج عدو له و حرب عليه .

على هذه الأصول قامت هذه الأحزاب السياسية الأربعة وأخذت تختصم ، ويجاهد بعضها بعضا ، وظفر كل منها بمحظ قليل أو كثير من الحكم . فكانت له فيه سياسة خاصة ميزته عن غيره من الأحزاب ، ودافع الشعراء عن سياسة الحزب فى الحكم كما دافعوا عن الأصل الذى قام عليه .

وليس هنا مكان التفصيل فى درس هذه الأحزاب ، ومن ينطق بلسانها من الشعراء وما كان يمتاز به كل شاعر منهم فى فنه وأسلوبه الشعرى ، إنما يكفى أن نختار شاعرا من هؤلاء الشعراء السياسيين ونعطيك صرة موجزة من حياته وفنه تكون نموذجا لغيره من الشعراء . وليكن هذا الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، فهو أخص هؤلاء الشعراء ظلا ، وأعدبهم روحا ، وأيسرهم شعرا .

عبيد الله بن قيس الرقيات

كان قرشيا من بنى عامر بن لؤى وكان حريصا قبل كل شئ على قرشيته معتبرا بها محبا لها ، وكان مذهبه السياسى ملائما لهذا كله ، فكان يرضيه أن تستقر العزة والبأس فى قريش ، وأن تكون وحدها صاحبة السلطان على الأرض ، يؤيدها فى ذلك أقرب العرب اليها وهم المضربون ، فمذهبه السياسى اذا لا يعتمد على دين وإنما هو مذهب قوامه العصبية لقبيلته ، وهو من أجل ذلك يحب القرشيين

جميعا ، ويألم لما وقع بينهم من الفرقة ، ويود لو ظلت كلمتهم مجتمعة كما كانت أيام أبي بكر وعمر ، وهو اذا كره الأمويين وهجاهم أشد الهجاء وأقذعه وأحب الزبيريين وناصرهم فانما يفعل ذلك لأن الأمويين كانوا يعترفون باليمينية على المضرية فهم طغاة يعترفون بالأجنبي على حين كان ابن الزبير قرشيا يدعو الى سلطان قريش ويعترفى تأييد هذا السلطان بمضر ، لهذا انضم عميد الله الى الزبيريين ، ولزم مصعب بن الزبير في العراق مجاهدا بسيفه ولسانه حتى انتصر عبد الملك وقتل مصعب ، ففر عبيد الله الى الكوفة واستخفى عند امرأة انصارية يقال لها "كثيرة" فلبث عندها دهرا لا يعرفها ولا تعرفه ، حتى سمع ذات يوم مناديا يعلن أن بنى أمية يهدرون دمه ويبرئون ذمتهم ممن آواه ، فأشفق على صاحبه ورحل عنها بعد أن حملته وزودته ، واتمى الى المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر من زعماء الهاشميين فما زال عبد الله يحمي في الشفاعة له عند عبد الملك حتى ظفر له بالأمان ، ثم دخل على عبد الملك ومدحه فلم تطب نفس الخليفة بالرضا عنه ، فلزم عبد العزيز ابن مروان والى مصر لأخيه عبد الملك ، وأقام معه في مصر حتى مات . ومن هذا الوصف القصير لحياته تتبين أنه كان أول الأمر زبيرى المذهب ، فلما انتضى أمر الزبيريين التجأ الى هاشمى واستعان به حتى اتصل بنى أمية فلازم زعميا من زعمائهم وهو عبد العزيز بن مروان ، وليس في هذا شيء من التناقض أو الاضطراب في المذهب السياسى ، فقد عرفت أن الرجل كان قرشى المذهب ، وأنه كان يدعو الى أن يظل السلطان لقريش كما كان قبل الفتنة والى أن تكون أهواء قريش مؤتلفة ، وآراؤها مجتمعة ، وقد تحقق هذا بعد قتل ابن الزبير ، فاجتمعت قريش كلها حول بنى أمية ، واستقر السلطان كله لقريش ، فلا جناح على عبيد الله أن يمدح من شاء من أعلام قريش ، ويلزم من أحب من زعمائها ، وانظر الى هذه الأبيات التى تمثل رأيه السياسى صريحا جليا إبان الخصومة العنيفة بين الزبيريين والأمويين .

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في ملك قريش وتسمت الأعداء
أيها المشتهي فناء قريش بيد الله عمورها والفناء
إن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحى بقاء

*
* *

نحن من النبي الأمي والصديق منا التقى والخلفاء
وقبيل الأحزاب حمزة منا أسد الله والسنة سنة
وعلي وجعفر ذو الجناحين هناك الوصي والشهداء
والزبير الذي أجاب رسول الله في الكرب والبلاء بلاء
والذي نغص ابن دومة ماتو حي الشياطين والسيوف ظماء (١)
فأباح العراق يضر بهم بالسيف صلتا وفي الضراب غلاء
غيبوا عن مواطن مفضعات ليس فيها إلا السيوف رخاء

فهو كما ترى يذكر ذلك العهد القديم في شيء من الأسف شديد ، لافتراق
الرأى واختلاف الهوى ، وهو يفخر بملك قريش ويرى أنه قوام الدولة ، وحياة
الشعوب الاسلامية ، وهو يذكر أبطال قريش الذين ناصروا النبي في حياته
وأسسوا دولة قريش بعد وفاته وهو إذاً إنما يمدح مصعب بن الزبير ويناصره لأنه
ماض في هذه السنة سنة الاحتفاظ بالملك والسلطان لقريش وحدها .

وعبيد الله بن قيس الرقيات مبتكر في الشعر السياسي حسن الابتكار ، سن
للشعراء من بعده سنة وفق بعضهم إلى الاجادة فيها وأخطأها بعضهم الآخر ، فقد
كان عبيد الله غزلاً محباً للنساء يكاد يشب بهن جميعا ، وكأنه كان منقطعاً للغزل
قبل أن يشترك في الحصومات الحزبية ، فلما اشترك فيها استغل فنه الغزلي في

(١) يريد ابن دومة المختار التقى وبالذي نغصه مصعب بن الزبير .

جهاده الحزبي فغاظ خصومه السياسيين بالتغزل بنسائهم وبناتهم ، ولكنه في الوقت نفسه كان حريصا على ألا يسيء إلى هؤلاء النساء لأنهن من قريش ، ولأن عبيد الله صاحب نفس كريمة وقلب ذكي ، وعلى هذا النحو تغزل بأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وامرأة الوليد بن عبد الملك ، فغاظ عبد الملك وابنه وأخاه ولكنه أرضى أم البنين نفسها لأنه مدحها ولم يسيء إليها ، ويقال إنها جدت في الشفاعة له عند عبد الملك حتى وُفِّت .

وعبيد الله بن قيس الرقيات رفيق اللفظ سهله الى حد غريب في العصر الذي عاش فيه ، وربما كان لمخالطته النساء واسرافه في هذه المخالطة أثر في هذه الرقة . وقد لاحظتها عليه عبد الملك فاستجاد بعض معانيه ، ووصف قافيته في القصيدة الآتية بالحنوثة فاحتج عبيد الله بأنه إنما يتأثر القرآن الكريم في هذه القافية . والواقع أنه تأثر القرآن في شعره كله فاكتمب من هذا التأثر لنا وسهولة وعدوبة لم تكن لغيره من الشعراء الذين عاصروه ، ولكنه لم يبلغ من ذلك ما كان يحسن أن يبلغه ، فقد شد عن المألوف من أصول النحو أحيانا ، وهو إلى رقة لفظه وسهولته رفيق المعاني يسيرها ، ولا سيما حين يبكي أو يرثي ، ويكفي أن تقرأ هذه القصيدة لتشعر شعورا قويا بأنها إنما صنعت للنأحات .

ذهب الصبا وتركت غيتيه ورأى الغواني شيبَ لمتيه
وهجرني وهجرتهن وقد غنيت كرائمها يطفن ييه
إذا لمتي سوداء ليس بها وصح ولم أجمع ياخوتيه
الخالين لواء قومهم والذائدين وراء عورتيه
إن الحوادث بالمدينة قد أوجعتني وقرعن مروتيه (١)
وجبتني جب السنام فلم يتركن ريشا في مناكبيه
وأنى كتاب من يزيد وقد شد الحزام بسرج بغلتيه
يئعي بني عبيد وإخوتهم حلّ الهلاك على أقاريه

(١) تقول العرب قرع مروته أي أصابه بالشر .

ونعى أسامة لي وإخوته فظلمت مُستكاً مسامعيه
كالشارب النشوان قطره سمل الرقاق تفيض عبرته
سداً يعزني الصحيح وقد مر المنون على كريمته
كيف الرقاد وكلها هجعت عيني ألم خيال إخوته
تبكي لهم اساءة مغولة وتقول ليلى وأرزيتيه
والله أبرح في مقدمة أهدي الجيوش ، على شكتيه
حتى أجمعهم بإخوتهم وأسوق نسوتهم ينسوتيه

وقد قال هذه القصيدة حين وصلت اليه أبناء الحرّة ، وهي الواقعة التي كانت
لجيش يزيد بن معاوية مع أهل المدينة من المهاجرين والأنصار ، والتي قتل فيها
كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واستبيحت فيها المدينة ثلاثة أيام حتى
أذعنّت ، وباع أهلها على أنهم عيد ليزيد ، وليست هذه القصيدة في حاجة إلى
تحليل أو شرح فهي واضحة سهلة تفسر نفسها ، وتمثل مزاجاً رقيقاً ونفساً حساسة ،
وشاعراً يعرف كيف يحزن ، وكيف يصف حزنه ، وكيف يشترك غيره معه
في هذا الحزن .

الأخطل

وشاعراً آخر أنفق حياته وفنه في السياسة ، ولكنه على ذلك اشترك في فنون
أخرى من الشعر ، فبرع فيها حتى عدّ من زعماء الشعراء السياسيين ، ومن فحول
الشعراء الاسلاميين بوجه عام ، وهو أبو مالك غياث بن غوث المعروف بالأخطل
التغلي

وُلد أيام عمر بن الخطاب في قبيلة تغلب التي كانت تسكن الجزيرة والعراق ،
وكانت من القوة والعزة وشدة البأس بحيث لم ترض أن تدخل فيما دخل فيه العرب
كافة من الاسلام ، وتنزل عن نصرانيتها حين دهمتها جيوش المسلمين ، فأقرها
عمر على نصرانيتها ، وقبل منها الجزية ، وآثرت هي أن تشتري دينها بشيء من

المعنى عن شعراء الجوزية وشعرهم
الرد على اللص من أم
تغلب بن عباد

المال تؤديه إلى الحكومة في كل عام . وقد نشأ الأخطل نشأة بدوية في الجزيرة ،
ويتحدث الرواة أنه بدأ قول الشعر طفلا فهجا امرأة أبيه ثم أمضى شبابه يقول
الشعر فيما يعرض لأهل البادية من الخصومة بين الأفراد والقبائل ، فلما كانت أيام
معاوية وظهر الشر بين الأنصار وبنى أمية احتاج يزيد بن معاوية ولي العهد حينئذ
إلى شاعر يهجو له الأنصار ، فدل على الأخطل فكلفه ذلك وقبيله بعد أن نكل
عنه غيره من الشعراء المسلمين تحرجا من هجاء قوم آووا النبي صلى الله عليه وسلم
وكانت لهم في الاسلام هذه السابقة الحسنة ، قيل الأخطل هذه المهمة لنصرانته ،
فهجا الأنصار وأخ في هجائهم وتفضيل قريش عليهم حتى شفى نفس يزيد ، وتعرض
هو لخطر عظيم ، وانقطع بعد ذلك ليزيد فلزمه أميرا وخليفة حتى مات ، ثم اتصل
بخلفاء بنى أمية بعده ولا سيما عبد الملك بن مروان ؛ وفي عصر عبد الملك هذا
ظهر تفوق الأخطل ونبوغه في الشعر ، حتى هابه الشعراء المضريون ، وحسبوا
له حسابا ، وحتى آثره عبد الملك على غيره من شعراء عصره جميعا ، وأمر من
يعلم بين الناس أنه شاعر بنى أمية وشاعر أمير المؤمنين ، ذلك أنه ناصر بنى أمية
وناضل عنهم حزب الزبيريين كما ناضل عنهم الأنصار من قبل ، وبينما كان نضاله
للا نصار أيام معاوية ويزيد عمل شاعر ماجور يريد أن يتصل بالقصر وينال
الخطوة فيه كان نضاله حزب الزبيريين أيام عبد الملك عملاً صادقاً مخلصاً يدافع
عن مصالح قبيلته ومكائنها .

٧٨٢٢
٨

كان الأخطل من تغلب ، وتغلب قبيلة من ربيعة كانت تسكن الجزيرة
وشمالى الشام ، فلما كان الإسلام أقبلت على هذه البلاد قبائل مضرية من قيس
فزاحت فيها ربيعة كما زاحت فيها العرب اليمانية ، وكانت هذه القبائل القيسية
والمضرية قد مالت مع ابن الزبير على بنى أمية ناتفقت مصلحة الأمويين واليمنيين
والتغيبيين على محاربة القيسية والمضرية في الشام والجزيرة والعراق حتى تم النصر
لعبد الملك على مصعب بن الزبير .

ومن هذا كان شعر الأخطل السياسي ذا مظهرين مختلفين ، فأما أحدهما فالدفاع عن حزب بني أمية والنضال عن سلطانها ، وتثبيت حقها في هذا السلطان ، وأما الثاني فالدفاع عن قبيلته تغلب وحلفائها من عرب اليمن المقيمين في الشام ، والالحاح في هجاء القيسيين خاصة والمضريين عامة .

حياة الأخطل هذه وما أحاط بها من الظروف المختلفة ضمنت له التفوق في فنون من الشعر لم يكذب يبلغ حظه منها شاعر من الذين عاصروه ، فقد كان بحكم اتصاله بالقصر وانقطاعه للأمرء والخلفاء أمدح أهل عصره للملوك ، وكان بحكم هذا الاتصال أيضا أقدر أهل عصره على النضال السياسي ، وكان بحكم حياته الخاصة في قبيلته واشتراكه الفعلي فيما كان يعرض لهذه القبيلة من بأس الحرب ولين السلم أقدر أهل عصره على وصف الحرب وتصوير ما يعرض فيها من الهزيمة والانتصار ، وكان يستبيح الخمر ويشربها فيسرف في شربها ويستعين بها على قول الشعر ، فكان أقدر أهل عصره على وصف الخمر وأبرعهم فيه لاسيما وقد أعرض كبار الشعراء في ذلك العصر عن وصف الخمر خوفا من السلطان وتحرجا من الاشادة بما نهى عنه الاسلام .

وديوان الأخطل ضخم ، فيه الشعر الجيد الكثير ولكننا نقف عند قصيدة منه تكاد تختصر فنونه الشعرية كلها ، وهي التي مدح بها عبد الملك بن مروان بعد انتصاره على مصعب بن الزبير وكان لها ولأخرى مثلها في الأدب العربي وحياة القبائل العربية شأن عظيم ، بدأ الأخطل هذه القصيدة بذكر أحبته الذين فارقوه وارتحلوا عنه فقال :

خَفَّ القَطِيبُ فراحوا مِنكَ أو بَكَرُوا وَأَزَعَجْتُهُمْ نَوَى فِي صَرَفِهَا ذِيْرُ

ثم وصف حزنه لفراق هؤلاء الأحبة وذهوله وهو ينظر في آثارهم ويتبعهم طرفه كثيبا مولها : فشبه نفسه في هذه اللحظة بالسكران قد عثت به الخمر ، أو المسحور قد ملك السحر عليه أمره وانتهز هذه الفرصة فوصف الخمر وصفا

قصيرا جيدا، ثم انتقل الى صاحباته اللاتي ارتحن فشيب بهن تشبيبا قصيرا حسنا،
والم بشئ من أخلاق النساء وايثارهن للشباب وانصرفهن عن الكهول والشيوخ
فقال :

ياقاتل الله وصل الغايات إذا أيقن أنك ممن قد زها الكبير
أعرض لما حنى قوسى موتها وبيض بعد سواد اللمة الشعر
ما يرعوين إلى داج لحاجته ولا لهن إلى ذى شيبه وطر

ثم يصف طريقهن ويخلص من هذا كله إلى مدح عبد الملك وتمنته بالفوز
وإثبات حقه في الخلافة فيقول .

إلى امرئ لا تعرينا نواله أظفره الله فليهنء له الظفر
الخائض الغمر والميمون طائرُه خليفة الله يستسقى به المطر

ويمضى في مدح عبد الملك فيصفه بالبأس والنجدة والجود، وإيثار المسلمين
بالخير والمهارة في تدبير الأمور ، وقيادة الجيوش وقهر العدو ، ويقص من ذلك
ما كان في حرب عبد الملك لمصعب حتى يتم له النصر، فاذا أَرْضى عبد الملك انتقل
إلى بنى أمية عشيرته فمدحهم أحسن مدح وأجمله ، وصور من أخلاقهم ما أُعجب
به المعاصرون جميعا حتى عدوا الأخطل فيه أشعر العرب وذلك قوله .

حشد على الحق عيا فوالخنا أنف إذا أملت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجت على الآفاق مظلمة كانت لهم مخرج منها ومعتصر
أعطاهم الله جدا ينصرون به لا جد إلا صفير بعد محقر
لم يأسروا فيه إذ كانوا مواليه ولو يكون لِقوم غيرهم أشروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

على أن الحرب قد وضعت أوزارها بين عبد الملك وأنصار ابن الزبير ، ولكن
لها آثارا سيئة لم تزل بعد ، وما زال في المنهزمين مكر وخداع وكيد ، فلا أخطل

يحذر بنى أمية من هؤلاء المنهزمين ، ويذكركم بنصحه لهم وحسن بلائه حين دافع عنهم الأنصار ، فيقول .

بنى أمية قد ناضلتُ دونكم أبناء قومٍ هم آووا وهم نصرُوا
أحمتُ عنكم بنى النجارِ قد علمتُ علياً معداً وكانوا طالما هدرُوا
حتى استكانوا وهم منى على مَضِيضٍ والقولُ ينفدُ مالا تنفذُ الإبرُ
بنى أمية إني ناصح لكم فلا يبيتنَّ فيكم آمنا زفرُ

والأخطل شديد الحرص على أن تجنى قبيلته ثمرة النصر فهو يذكر عبد الملك ببلاء تغلب في الحرب فيقول :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك يبطن الغوطة الخبرُ

ويمضى بعد ذلك في هجاء قيس وتصوير ما أصابهم من ألوان الهزيمة في المواقع المختلفة تصويراً دقيقاً فيه شدة وسخرية لاذعة ، حتى إذا فرغ من قيس التفت الى أنصارهم من كليب رهط جرير ، الذي كان يدافع عن قيس بلسانه ، فيهجوهم هجاء مراراً مقدماً .

وقد اضطرت هذه الخصومة بين تغلب وقيس الأخطل الى أن يهجو جريراً ويدخل فيما بينه وبين الفرزدق من خلاف سبحدثك عنه بعد حين ، فأصبح الأخطل بذلك من شعراء "النقائض" ، وذوى الشأن النابه في الهجاء ، ولكن هجاء الأخطل يمتاز عن هجاء صاحبيه بشئ من القصد والاعتدال ، وتجنب الإقذاع الذى يتجاوز حدود الخلق ، وفى أيام الوليد بن عبد الملك مات الأخطل وقد تقدمت به السن ، واستطاع أن يكسب لنفسه مركز الزعيم السياسى فى قومه وعند الحلفاء .

الى جانب هذين الفنين اللذين استحدثا فى الاسلام ، فن الغزل وفن الشعر السياسى تطورت الفنون القديمة تطوراً ظاهراً ، فامتعت أغراضها باتساع أفق الحياة العربية فبعد أن كان الشاعر القديم اذا مدح لم يكن يتجاوز أفق القبيلة التى

يمدح زعيمها أصبح في هذا العصر يمدح الولاة، ويمدح الأمراء، ويمدح الخلفاء، وما أبعده الفرق بين سلطان الولاة والأمير والخليفة في الاسلام وسلطان الزعيم من زعماء القبائل في الجاهلية ، وجَدَّت معان يحرص الناس عليها ويتنافسون فيها ومعان أخرى ينفر الناس منها ويكرهونها أشد الكره ، فتغيرت مذاهب الشعراء في الفخر والمدح والهجاء والرثاء تغيرا يختلف قلة وكثرة باختلاف حظ الشعراء من المحافظة على السنن الجاهلية القديمة في الشعر .

وبينما كان أصحاب الغزل يمعنون في غزلهم وأصحاب السياسة يمعنون في سياستهم كان هناك شعراء آخرون يحتفظون بالسنن الجاهلية القديمة فيقصدون إلى فنون الشعر كلها ، ويتصرفون فيها خاضعين على كل حال لهذا التطور الذي أشرنا إليه آنفا .

وأظهر هؤلاء الشعراء ، مع الأخطل ، الفرزدق وجرير .

الفرزدق

فأما الفرزدق فهو أبو فراس همام بن غالب من دارم ، ثم من تميم ، يعرف بالفرزدق لجهومة كانت في وجهه على ما يقول الرواة . لا تعرف سنة مولده بالدقة . ولكنه كان شابا يقول الشعر سنة ٣٦ للهجرة ، فقد قدمه أبوه إلى علي بعد وقعة الجمل فنصح له علي بحفظ القرآن ، وكان شابا تقدم به الشباب في أيام معاوية . وأكبر الظن أنه ولد في خلافة عثمان أو آخر خلافة عمر . وقد ظهر ميله إلى قول الشعر منذ طفولته فحفظ عنه شعر جيد يمثل نفسا كريمة طامحة إلى المجد قاله حينما كان طفلا يرعى الغنم لأمه :

وكانت نشأته كنشأة الأخطل في قبيلة عريضة شديدة البأس ، كثيرة العدد . ضخمة الثروة ، وكانت أسرته الخاصة من أقوى أسر تميم وأغناها وأكرمها ، حتى أن كرمها يشبه الاسراف ، وكان الفرزدق قد ورث عن أسرته وقبيلته عزة النفس وشدة البأس ومضاء العزيمة والنفور من الخضوع للنظام والاذعان للسلطان ،

وكان الى ذلك طويل اللسان حديده شكسا محبا للخصومة يهجو الأفراد والجماعات من قومه حتى يشكوه الى أبيه ، ثم يسرف في الهجاء حتى يرفع أمره الى زياد والى العراق لمعاوية فاذا طلبه زياد فر وأخذ ينتقل في مدن العراق وقراه وقبائله يقول في ذلك الشعر الجيد ، حتى تضيق به الأرض فيترك العراق كله لزياد ، ويلجأ الى المدينة فيمدح واليها سعيد بن العاص ، ويستجير به فيجيره ويستمر فيما هو فيه من هجاء وتعريض زياد ، حتى اذا مات زياد عاد الى وطنه واستمر فيما هو فيه حتى يموت معاوية ويزيد ، وتفسد أمور الدولة بكثرة الحروب الداخلية ، ويشتد الاضطراب في العراق . وهنا يظهر الفرزدق مرة أخرى شكسا شديدا الشكيمة ، حديد اللسان قد عجز السلطان عن تقويمه واضطراره الى الاعتدال ، ولكن ظهر له خصم سيكون أشد على نفسه من السلطان ، وسيضطره الى أن يفكر قبل أن يقول ، كما أنه سيضطره الى أن يجود الشعر ويعني به حتى ينبغ فيه .

جرير

وهذا الخصم هو جرير بن عطية بن الحطفي من كليب ثم من يربوع ، ثم من تميم ، كان أحدث سنا من الفرزدق ، وكان من قبيلة قوية عزيزة ولكنها دون قبيلة الفرزدق ، وكانت أسرته الخاصة فقيرة قليلة الحظ من الشهرة والصيت بالقياس الى أسرة الفرزدق وكان أبوه معدما أو كالمعدم ، فلم تحل نشأته اذا من البؤس والضيق ، وكان هذه الظروف نفسها قد أعانت ما في هذا الصبي من استعداد للتفوق والنبوغ على أن يظهر ويؤتي ثمرة ، فقد قال الشعر صبيا كصاحبه ، وأظهر حدة وشدة على خصومه من قبيلته ومن القبائل التي كانت تخاصم قبيلته ، حتى ظهر الشر بينه وبينهم ، وعظم أمره ، فتعرض له الشعراء فغلبهم جميعا ، وما زال الهجاء يجر عليه الشر شيئا فشيئا حتى وقعت الخصومة بينه وبين شاعر من رهط الفرزدق ، يقال له البعيث ألح عليه جرير في الهجاء فاضطر الفرزدق الى أن يدود عنه ، فانصرف جرير عن البعيث الى الفرزدق ، وانصرف الفرزدق عن البعيث الى جرير .

واستطارت بين الشاعرين خصومة منكزة ، تجاوزا فيها حدود الأخلاق والنظام والدين ، وعجزت السلطات كلها عن ردهما عنها ، وأصبحت هم الناس ولهولهم ، وموضوع البحث الأدبي حياتهما ثم الى الآن ، وقد استمرت هذه الخصومة بين الشاعرين نيفا وأربعين سنة ، منذ مات يزيد الى أن مات الشاعران سنة أربع عشرة ومائة ، وكان كل من الشاعرين يمدح ويفخر ويرثي ويعرض للسياسة ويتغزل ، ولكنهما كانا يهجون بنوع خاص ويتفوقان في الهجاء ، والناس مختلفون في تقديم أحدهما على الآخر ولكنهم يكادون يتفقون على أن الفرزدق انفرد بالفخر ، وعلى أن جريرا تفوق بالهجاء وعلى أن حظ الفرزدق من الغزل دون حظ جرير ، أما الرثاء فلجرير فيه قصيدة مأثورة رثى بها امرأته فوفق الى شيء من الاجادة عظيم ، على حين لم يكن رثاء الفرزدق الا كلاما متينا رصينا لا أثر للخرن فيه .

مقارنة بين الفرزدق وجرير

وشعر الفرزدق صلب خشن الألفاظ ، غليظ المعاني ، في أكثر الأحيان ، حتى انه ليتغزل فيثقل لفظه على الأذن ، وتجنفو معانيه عن القلب ، وفي شعر جرير رقة ولين وعدوبة ، ومعانيه حلوة سائغة محببة الى النفس ، وقد كان الفرزدق فاجرا جاني الغزل ، وكان جرير عفيفا حلوا النسيب ، والفرزدق اذا هجا مال بهجائه الى الفخر ، وجرير اذا هجا مال بهجائه الى الذع ، أى أن الفرزدق ينظر الى نفسه وهو يهجو خصمه ، فيكبر نفسه ويصغر عدوه ، وجرير ينظر الى خصمه يستقصي نقائصه ويعيوبه ، فاذا أعياه الاستقصاء اخترع من العيوب والنقائص ما شاء .

النقائص

وقد سميت القصائد التي تبادلها الشاعران في الهجاء (النقائص) وشاع هذا النوع من الشعر في العصر الأموي شيوعا شديدا ، وقد كان معروفا من قبل ولكنه لم يكن كثيرا مطردا ، والأصل في ذلك أن يقول الشاعر قصيدة فينقضها عليه

خصمه ، أى يردّ عليها ، ويلتزم فى ذلك ما انتزعه صاحبه من الوزن والقافية ،
وكثيرا ما يعرض لنفس تلك المعانى التى قصد اليها الشاعر فينفيها أو يقلبها
أو يفسدها بأى وجه من الوجوه ، وأول قصيدة عرض فيها الفرزدق لجرير بالهجاء
يأئته التى أولها :

ألم ترأى يوم جَوَّسَ وِيقَةَ بَكَتْ فنادتني هنيئدُ ما ليا
فقلت لها إنَّ البكاءَ لراحةٌ به يشفى من ظنٍّ أن لا تلاقيا

ثم يمضى الشاعر فى ذكر صاحبه ، وما يجحد من حب لها ولوعة لفراقها ،
حتى اذا فرغ من ذلك فى أبيات قصيرة التفت الى البعيت الذى استعان به على
جرير فهجاء هجاء مرا ووصفه بالضعف والخبث وسوء النسب ، ثم ينتقل الى جرير
نفسه فيشتمه ، ويصفه بالذلة والقلة ويفخر عليه بحسبه ونسبه ، ولا يطيل
فى هذه المرة ، فرد عليه جرير ببيئته التى أولها :

أَلَا حَىَّ رَهَبًا ثُمَّ حَىَّ الْمَطَالِيَا فقد كان مانوسا فأصبح خاليا

وفىها غزل طويل عذب رقيق ، يصلح للغناء ، لأنه يصور نفسا عذبا
اليأس وعيبت بها الوجد فى غير طائل ، ثم يعاتب أباه أو جده وأسرتة الأدينين
لكثرة ما يسيئون اليه ويخذلونه ، مع أنه لا يلقاهم الا بالود والمعروف والودود
عنهم ، ويفرغ بعد ذلك لأسرة الفرزدق فيهجوها لأنها أسرة صنَّاع قُيونٍ لا شرف
لهم ولا بلاء ، ويفخر بقومه قليلا وبنفسه كثيرا ، ويصف خصومه بالقدر
واسلام الجار .

والهجاء بين جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من الشعراء كله على هذا النحو ،
فيه نحر وإشادة بفضائل الشاعر وقبيلته فى الجاهلية والاسلام ، ثم فيه ذم وتشهير
بالخصم وقبيلته فى القديم والحديث ، وفى هذا الشعر جنائيات منكورة على الأخلاق
والأعراض والدين ، ولكنه على الرغم من هذا كله من أنفع المصادر التاريخية لحياة
العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، كما انه مرآة صادقة لأخلاق هذه البيئات من العرب
فى القرن الأول للهجرة ، وبفضل هذا الشعر حفظ أكثر اللغة من الضياع .

الخطابة

دواعي الخطابة

العربي بطبعه فصيح ، ذَلِقَ اللسان ، مفظور على حب القول والتصرف في ضروبه ، إذا تكلم أعجبتَه لغته فأطال ، وإذا استمع أعجبتَه لغته فاستزاد ، تحس هذا جليا واضحا في كل ما تقرأ من أخبار العرب حين كانوا يتحاورون ويتجادلون أو يختصمون ، فليس غريبا أن تكون طبيعتهم هذه مستعدة للتفوق إذا دعتهم ظروف الحياة إلى العناية بالقول ، والحرص على الاجادة فيه ، واتخاذها وسيلة إلى الاقناع ، وأداة للتأثير في النفوس ، وسيلا إلى الغلب والفوز ، وقد كانت حياة العرب كلها في القرن الأول للهجرة تدعو إلى أن يُعَنَوُوا بالقول هذه العناية ويسلكوا به هذه السبل ، فقد قامت هذه الحياة على الاسلام وهو دين اجتماعي قبل كل شيء ، عني بحياة الجماعة عناية شديدة ، بجمعها في الصلاة ، وجمعها في الحج ، وجمعها في الأعياد ، وأقام الصلوة بينها وبين أولى الأمر فيها على نحو من التشاور يضطر الحاكم إلى أن يتحدث إلى المحكومين ، ويضطر المحكومين إلى أن يتحدثوا إلى الحاكم ، ثم لم يكد يظهر الاسلام حتى كان له أنصار وخصوم ، وحتى اشتد الجدال بين أولئك وهؤلاء في أندية عامة يشهدا كثير من الناس ، تختلف حظوظهم من الذكاء والفهم ، ومن الجمود وقصور الطبع ، ويحتاج المتكلم فيها إلى أن يكون بصيرا بمواقع القول من هؤلاء الأنصار والخصوم ، ثم قبض النبي صلى الله عليه وسلم وكانت الفتوح ، فكثرت مصالح المسالمين ، واختلفت الآراء في تقديرها وتدبيرها ، واحتاج هذا كله إلى التشاور والتناظر ، ثم كانت الفتن ونشأة الأحزاب السياسية وما استتبعته من خصومة وجهاد ، واحتاج زعماء الأحزاب إلى أن يشاوروا أنصارهم ويقنعوهم بما كانوا يرون من رأى ، ويدبرون من خُطَّة ، وإلى أن يناظروا خصومهم ويأخذوهم بالهجة ، ثم ضعُف أمر الأحزاب بعض الضعف

من الناحية الحربية ، فأغمدت السيوف طوعا أو كرها ، ولكن سلّت مكانها الألسنة ، فكان للدولة معارضون أذكىاء أقوياء ينكرون سياستها ويذيعون عنها قالة السوء ، واضطر الخلفاء والأمراء والولاة إلى أن يدفعوا عن أنفسهم وعن سياستهم باللين حيناً ، وبالعنف حيناً ، وبالجزم بين هذا وذاك حيناً آخر .

فكل هذه الظروف جعلت حظ العرب في هذا العصر من الخطابة عظيماً موفراً ، لم تبلغ مثله أمة قديمة إلا ما كان من أمر اليونان والرومان ، والواقع أن الأسباب التي دعت إلى تفوق اليونان والرومان في الخطابة مشبهة في الجملة للأسباب التي دعت إلى تفوق العرب فيها ، فالخطابة إنما تظهر وتقوى ويعظم سلطانها في الأمم والبيئات التي يعظم حظها من الحياة الاجتماعية القوية من جهة ، ويعترف فيها بحرية الفرد وكرامته من جهة أخرى . وقد ضمن الإسلام للعرب حياة اجتماعية قوية وضمن في الوقت نفسه حرية كاملة ، وكرامة موفرة ولاءم بين حرية الفرد وسلطان الحكومة ، وصادف هذا النظام أمة صافية الطبع حادة المزاج ، خصبة الشعور فصيحة اللسان فظهر فيها خطباء مقوهون ولم يضعف أمر الخطابة عند العرب إلا بعد أن فسد هذا النظام في العصر العباسي ، فتجاوز سلطان الدولة حدود الاعتدال ، وأفتى أو كاد يفنى سلطان الحكومة حرية الفرد .

لغة الخطابة

وكانت لغة الخطابة العربية في أول الأمر يسيرة ساذجة لا تكاد تمتاز من لغة التخاطب إلا بهذه العناية الطبيعية التي يصطنعها الناس عادة حين يريدون الإقناع والتأثير في نفوس السامعين ، فلما كثرت المصالح وكثرت فيها اختلاف الآراء ، واشتد حوله النزاع والجدال ، اشتدت عناية الخطباء بتخير الألفاظ والأساليب الملائمة لهذه الحاجات الجديدة ، والمُعِينَةِ على ما كانوا يريدون من إقناع وفوز ، وكان أمامهم مثل أعلى لخطاب الجماعات والتأثير فيها على أبلغ أسلوب وأرقاه ، وأشد ملاءمة للنفوس في الظروف المختلفة التي تكتنفها وتحيط بها . وهو القرآن ، الذي

هو اجتماعي بأدق ما لهذه الكلمة من معنى ، فقد وَجَّهَ كله الى الجماعة وتَلَّى كله على الجماعة ، ورأى الناس كيف أذعن له خصومه مقهورين ، وانصاره مُعْجِبِينَ ، وكيف بلغ من نفوس الناس ما لم يبلغه قبله أو في عصره أو بعده لون من ألوان الكلام مهما يكن حظه من القوة والبراعة ، فأسرع الخطباء إلى تأثره والانتفاع به والاقْتِباس منه ، وأنتج لهم هذا قوة ولينا لم يكونا مألوفين في خطابة الذين سبقوهم من العرب ، وأنت إذا أردت تمييز الخطابة العربية الاسلامية وجدتها كلها تمتاز بهذه الروعة الجذابة التي تبهرك وتملك عليك أمرك . وتحبب اليك الاستماع المتصل ، وبهذا السحر الغريب الذي يُحْيِي اليك على بعد العهد وانقطاع الصلة انك تسمع الخطيب فتجبه ، وتطمئن اليه ، مستعذبا قوله ، مفتونا بأسلوبه ، أو تخافه وتفزع منه ، ولكنك تحب أن تسمعه على كل حال ، فاذا أبحثت عن مصدر تلك الروعة وهذا السحر وجدته أو أكثره في تأثر الخطباء للقرآن ، وحرصهم على أخذ معانيه ، واستعارة ألفاظه واقتباس مَبَانِيهِ ، وتقمص هذا الروح الحلو الذي أفاضه على المسلمين ما بعث القرآن في نفوسهم من سَكِينَةٍ وإيمان .

عادات العرب في الخطابة

وكانت للعرب عادات موروثة في الخطابة احتفظوا بها طوال هذا العصر ، فكانوا يخطبون قائمين يشرفون على الناس من نَسْرٍ من الأرض أو صخرة مرتفعة أو من المنابر في المساجد ، وكانوا اذا قاموا للخطابة اعتمدوا على السيف أو على القوس أو اتخذوا المخاصر ، وكانوا لا يكثرون من تحريك أجسامهم ، ولا يسرفون في الاشارة ، وكانوا يكرهون التردد في القول ، واضطراب اللسان . وفساد مخارج الحروف ، وكانوا يكرهون التنحنح والسعال والاستعانة على البيان بشيء غيره ، ويقال ان الوليد بن عبد الملك أول من خطب جالسا وتبعه في ذلك بعض الخلفاء والأمراء والولاة ، ولكن القيام ظل سنة مطردة في الخطابة إلى الآن .

خطباء هذا العصر

وخطباء هذا العصر كثيرون ، دعت إلى كثيرتهم تلك الظروف التي أشرنا إليها آنفا ، وقد كان منهم المطيب الذي يستغرق بخطبته بياض النهار ، وكان منهم الموحز الذي يبلغ ما يريد في جملة من القول لا ينفق فيها الساعة القصيرة ، وثلاثة من خطباء العرب في هذا العصر طبعوا الخطابة العربية بطابعهم .

علي بن أبي طالب

أولهم علي بن أبي طالب ، وقد ولد قبل ظهور الاسلام بسبع سنين وأدركه الاسلام صبيا فنشأ فيه ، وكان اتصاله بالنبي صلى الله عليه وسلم في طفولته وشبابه مصدرا لهذا الروح القوى الحلو الذي نجده كلما قرأنا شيئا من كلامه ، وكانت حياته كلها خليفة أن تجعل منه رجلا قوى النفس ، شديد البأس ذكي القلب ، كثير العلم ، مستعدا كل الاستعداد للتفوق والنبوغ ، فقد اشترك مع النبي صلى الله عليه وسلم في حلو الحياة ومرها ، اذ كان ابن عمه وصهره ، ثم حيل بينه وبين الخلافة بعد وفاة النبي فصبر نفسه على ما لم يحب ، وراضها على ما كرهت ، وأخلص في النصيح لمن سبقه من الخلفاء ، حتى اذا كانت الفتنة وقيل عثمان ونهض بالأمر تفرق المسلمون من حوله فأنكرته عائشة أم المؤمنين ، ومعها طلحة والزبير ، وأنكره معاوية بن أبي سفيان ومعه أهل الشام ، ثم أنكره بعد ذلك جماعة من أصحابه خرجوا عليه حين قبل ما عرض معاوية من التحكيم ، واضطر الى أن ينفق آخر أيامه في حرب منكرة مؤسفة ، الهزيمة فيها شر ، والفوز فيها شر أيضا ، حتى قتله أحد الخوارج غيلة سنة ٤٠ للهجرة . فأنت ترى أن حياته أيام النبي كانت حياة جهاد كله أمل ، وأن حياته أيام الخلفاء الثلاثة كانت حياة اذعان ورضا بقضاء الله ونصح وإخلاص للخلفاء ، وأن حياته في آخر أيامه كانت حياة جهاد وحزن ويأس ، وقد عرف علي بالشجاعة والبأس أيام النبي ، وعرف بالعلم وجودة الرأي أيام الخلفاء الثلاثة ، وعرف بالخطابة في أيام خلافته القصيرة ، ولا غرابة في هذا فقد كانت حياته كلها تُعدُّ لهذه الأيام التي ولي فيها السلطان .

وظهرت مواهبه واحتاج إلى القول فقال وأجاد، وقد نسبت إليه طائفة ضخمة من الخطب أكثرها يظهر فيه التكلف والصنعة لأنه منحول؛ وقليل منها تظهر فيه شخصية حلوة جذابة شديدة الإيمان بالدين والاعتناع بالحق؛ حريصة على ماترى من رأى؛ إلا أن تُكره على خلافه، فتصرف عنه في شئ من اليأس والاذعان لراحة فيه إلا الرضا بقضاء الله والثقة بأن ما عند الله خير وأبقى مما عند الناس. وأكثر ما صح من خطبه متصل بالسياسة. فقد كان يتحدث إلى أصحابه محرضاً لهم على قتال عدوهم. مظهراً حقه في السلطان. مبيناً ضلال خصومه عن سواء السبيل، وكان في هذا كله موفقاً، ولكن توفيقه الخطابي قلما كان يستتبع التوفيق العملي؛ لأن ظروف الحياة في عصره كانت أقوى من الخطابة وأقوى من الحق، وأقوى من الصواب، وكانت نفوس الناس قد تغيرت، ومثلهم العلياء في الحياة قد تغيرت أيضاً، وأصبح نظام الحياة كما كان يريد على وكما كان يريد الخلفاء الثلاثة من قبله مغايراً لما كان الناس يرجون ويأملون.

زياد ابن أبيه

والخطيب الثاني زياد ابن أبيه أو زياد بن سمية أو زياد بن أبي سفيان، ولد في السنة الأولى للهجرة على ما يقول الرواة من أمة للحارث بن كعدة الثقفي. ولم يكن معروف الأب ونشأ نشأة إسلامية خالصة. ولكنه لم يبلغ الشباب حتى ظهرت فيه خصال امتازت بها قبيلة ثقيف في الاسلام. منها ذكاء القلب وسعة الحيلة وحزم الأمور وحدة اللسان وشدته وميل الى العنف يبلغ الطغيان في كثير من الأحيان.

عمل زياد مع ابي موسى الأشعري حين تولى البصرة لعمر فظهر ذكاؤه وتفوقه وأعجب به الناس، وأعجب به عمر نفسه، ولعله أشفق من دهائه وإقدامه فقال بينه وبين العمل السياسى المتصل، ثم استعان به على أيام خلافته على انحام ثورة فارسية فأحسن البلاء ووفق إلى ما أراد، ووفى لعل حتى اذا قتل على لم يزل معاوية يجده حتى استماله اليه بعد جهد، واستلحقه بعد أن شهد ناس من المسلمين

أنه ابن أبي سفيان ، ثم ولاه البصرة ثم الكوفة وكان زياد يريد أن يوليه معاوية الحجاز ولكنه مات بالطاعون سنة ٥٣ .

وقد ظهرت خصاله التي أشرنا إليها كلها ناضجة حين تولى العراق فاشتد على المعارضة العنيفة حتى اضطرها الى الهدوء والاذعان ، ولم يتردد في اتخاذ الطرق التي رآها مؤدية إلى ذلك ، وبطش بالغواة والمفسدين حتى أقر الامن في نصابه ، وثبت في العراق نظاما كان العراق قد فقده منذ حين ، وقد حفظت له خطبة تسمى البتراء لأنه لم يبتدئها بحمد الله كما كان يفعل الخطباء عادة ، ألقاها حين قدم البصرة واليا من قبل معاوية فوجم لها الناس ، فمنهم من اذعن خائفا ، ومنهم من أثنى ممتلئا ومنهم من حاول الإنكار ، ولكن السياسة العملية لزياد لم تلبث أن بينت للناس أنه كان جادا غير هازل فيما أعلن من نذير .

تحليل خطبة زياد

بدأ هذه الخطبة بانكار ما كان عليه أهل البصرة من معصية لله وفسوق عن الدين وتجاوز لأمر السلطان ، ثم أعلن بأن أمور المسلمين لن تصلح في آخر أيامهم إلا بما صلحت به في أولها ، من لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، على نحو ما كان يفعل عمر ، ثم أعلن أن أهل العراق قد استحدثوا آثاما لم تكن ، وأنه سيحدث عقوبات تلائم هذه الآثام ، وأعلن هذه العقوبات فإذا هي مجاوزة لما عرف المسلمون من حدود الله وعقوباته ” من غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ومن نكب بيتنا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا “ وفي هذه الخطبة جعل القتل عقوبة لمن ظهر في الطريق بعد مضي ساعة معينة من الليل ، وقطع اللسان عقوبة لمن دعا بدعوى الجاهلية ، ثم ألغى ما كان بينه وبين الناس من عداوة وِضْنٍ ، وطلب اليهم أن يستأنفوا أمورهم مطيعين ناصحين ، ثم أثبت حق بنى أمية في السلطان وطلب إلى الناس أن يذعنوا له في غير حقد ولا ضغينة فذلك أنفع لهم وأجدى عليهم من طاعة مدخولة لا تستقيم عليها الأمور . وقد ضرب المثل بزياد في الشدة والعنف ، وضرب المثل به في الفصاحة واللسن ، وضرب المثل به في الدهاء والمكر

المجّاج بن يوسف

وثالث هؤلاء الخطباء المجّاج بن يوسف الثقفي ، ولد في أيام معاوية ونشأ نشأة إسلامية في الطائف ، فهو لم يشهد خلافة الخلفاء الراشدين ، وإنما شب في ظل خلافة معاوية وما كانت تقوم عليه من ملك عضوض ، وشهد شهرة زياد بالقسوة والعنف ، وكأنه أحب زيادا واتخذة مثلا ولاعم ذلك ما قدمنا من طبع ثقيف فنشأ المجّاج بعيد الأمل ، عظيم المطامع ، جريئا شديدا ، لا يعرف التردد .

عمل في حرس روح بن زنباع من زعماء الشام ، ثم اتخذه عبد الملك منظما لعسكره ، فلم يلبث ان أظهر من الجلد والحزم ما رفع مرتبته عند عبد الملك . وإذا هو قائد الجيش الذي وجه لحرب عبد الله بن الزبير في الحجاز ، وإذا هو يحصر مكة ويأخذها عنوة بعد أن يهدم الكعبة ويقتل ابن الزبير ويمثل به ، وإذا هو والي عبد الملك على العراق ليقرفه النظام بعد أن أفسدته الحروب الداخلية ، فيظهر من الشدة والطغيان ما يضبط الأمر ويسكت المعارضة ، ويخيف الناس ، ثم يبسط سلطانه على الشرق الاسلامي كله فيكسر شوكة الخوارج ويبسط سلطان المسالمين على بلاد لم تكن لهم ، وكان لسانه جريئا كقلبه ، أو قل كان لسانه الجريء ترجمان قابله الجريء ، كان أشد من زياد وأحب منه لسفك الدماء ، فكان لسانه أشد من لسان زياد ، وكانت خطبه تمثل الطغيان الذي لاحدله ، وكان أظهر ما تمتاز به خطبه الشدة في الألفاظ وفي المعاني وكثرة الاقتباس من القرآن والشعر القديم ، وكان يقطع جملة في الخطبة تقطيعا ، ويلقيها على الناس فكانما يرميهم بالصخر والجلامد ، وإذا هم ذاهلون ، وإذا هو قد أفسد عليهم عقولهم ، فصور اليهم الحق باطلا والباطل حقا ، وغلبهم على أنفسهم فسيرها كما يجب ، وساقها إلى ما يريد . وقد وطد المجّاج سلطان بني أمية وبنين لهم أمن الشرق حتى مات في آخر أيام الوليد بن عبد الملك .

وظل أمر الخطابة بعد المجّاج قويا ظاهرا ، وكان الناس كانوا قد اتخذوا منه ومن زياد ومن جماعة آخرين من الخطباء مثلا عليا لاجادة القول واتقانه ،

وأخذوا يتساءلون عن مصادر هذه الاجادة والافتقان ، ويلتمسونها إذا أرادوا القول ، ونشأ عن ذلك أن بدأت تُقرَّر بينهم أصول للخطابة وقواعد يعتمد عليها الخطباء إذا خطبوا ، ثم كثرت المقالات الدينية والسياسية ، وكثرت حولها المناظرة ، واستحالت الخطابة آخر أيام بنى أمية إلى طور جديد هو إلى الجدل العلمى أقرب منه إلى الخطابة السياسية ، وأخذ هذا الجدل يقوى شيئاً فشيئاً حتى قام مقام الخطابة أيام بنى العباس .

النثر الفنى

لم يؤثر عن الجاهلية ثرفنى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كما قدمنا ، وإنما كانت لهم لغة غنية عذبة في آخر العصر الجاهلى وأول الاسلام ، كانوا يتخذونها في مخاطبتهم وأحاديثهم ، ولم تكن الكتابة قد شاعت فيهم بعد ، على أنهم كانوا يصطنعون الحروف في أعمالهم التجارية ، وربما كانوا يكتبون الرسائل القصيرة في شئونهم وحاجاتهم ، فكانت اللغة التى تصطنع في هذه الكتب والرسائل هى لغة التخاطب نفسها ، فلما ظهر الاسلام وهاجر النبي إلى المدينة شاعت الكتابة بعض الشيوع ، وحث النبي صلى الله عليه وسلم على تعلمها لأنها أصبحت من حاجات الدولة ، وصدرت عن النبي والخلفاء كتبٌ مثلت فصاحتهم الطبيعية وطريقتهم الخاصة في التعبير ، وكانت لغتها هى اللغة التى كان يستعملها النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء والصحابة إذا تحدث بعضهم إلى بعض في الأحاديث الخاصة والعامة ، أى لم يكن هناك فرق ظاهر بين لغة الكتابة ولغة الخطابة ولغة الحديث .

على أن كثرة مصالح الدولة واختلاف الآراء في هذه المصالح ، وظهور التنافس بين الأحزاب ، دعت إلى رقى الخطابة وتطورها ، ونفس هذه الأسباب جعلت حاجة الدولة إلى الكتابة قوية شديدة لبعده المسافات واحتياج الخلفاء إلى أن يتصلوا بالولاة والعمال ، على أن بين حال الخطابة والكتابة في هذا العصر فرقا لا بد من ملاحظته ، فقد كانت الخطابة عربية خالصة في نشأتها وتطورها ، طول

القرن الأول للهجرة ، أما الكتابة فظلت عربية خالصة حتى كثرت المصالح وتعقدت ، وكانت الفتوح ، واضطر المسلمون إلى تنظيم الدولة ووضع الأصول والقواعد التي تجرى عليها الإدارة وأمور الجيش والخراج . ولم تكن للعرب سابقة في شيء من هذا فاستعانوا بالأمم المغلوبة ، واستعاروا لذلك نُظْمَهَا أول الأمر ، فكان النظام فارسيًا واللغة الفارسية في دواوين (دفاتر) العراق وفارس ، وكان النظام يونانيًا واللغة يونانية أو قبطية في دواوين الشام ومصر ، حتى إذا مضى الجيل الأول ونشأ جيل من العرب يعرف اللغات الأجنبية ، وجيل من الأجانب يحسن اللغة العربية نقلت الدواوين شيئًا فشيئًا إلى اللغة العربية في أقطار الدولة كلها . بدأ ذلك في أيام عبد الملك ، وتم قليلًا قليلًا ، وكان الأجانب الذين أحسنوا اللغة العربية أكثر من العرب الذين تعلموا اللغات الأجنبية ، فاستمر الخلفاء والأمراء يستعينون بالكتاب والعمال من الموالي ، وأصبحت كتابة الدواوين صناعة عُنِيَ بها الموالي عناية شديدة ، واتخذوها وسيلة يحفظون بها على أنفسهم شيئًا من السلطان ، ويرقون بها إلى مرضاة الخلفاء والولاة ونيل الحظوة عندهم ، ومن اتقان هؤلاء الكتاب الموالي لصناعتهم الفنية واتقانهم للغة العربية ، وعلمهم بأن العرب حراس على جودة القول والبراعة فيه ظهرت في التاريخ العربي هذه الظاهرة التي قلما نجد لها في تاريخ الأمم القديمة الأخرى وهي أن الرسائل الرسمية الفنية أصبحت مظهرًا للجمال الفني الأدبي ، يجد القارئ فيها من اللذة مثلما يجده من يستمع للشاعر المجيد ، أو الخطيب الفذ .

وربما كان من الاسراف أن يقال إن النثر الفني قد ظهر في شيء غير هذا طوال العصر الأموي ، إلا ما كان يجري على ألسنة الفصحاء من الحكيم والأمثال ، وما كان يصطنعه القصاص والعلماء حين يقصون على الناس أو يعلمونهم من هذه اللغة العذبة القوية التي لانزال نجد لها في كتب الأدب والتاريخ ، ولا سيما ما اعتمد فيه أصحابه منها على الرواية . ويقال ان أول من ظهر تفوقه في صناعة الكتابة الرسمية هذه سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه ، ثم تلميذه عبد الحميد بن يحيى

كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وقد اتفق الناس على أن عبد الحميد هذا زعيم الكتاب لأنه فيما يظهر أول من وضع للكتابة الأصول والقواعد وأخذ الكتاب باتباعها .

ومهما يكن من شيء فقد ظهر هذا النوع من النثر الفني قويا واضحا في أواخر العصر الأموي ، ولكنه كان في أول أمره لم يبلغ أشده ولم يبلغ حظه الصحيح من الرقي إلا حين تقدم القرن الثاني للهجرة أيام بني العباس ، على أن النثر الفني إذ ذاك مهما يكن عرسي اللغة والأسلوب قد اشترك فيه الأجانب إلى حد بعيد .

الثقافة العلمية الإسلامية

إلى آخر الدولة الأموية

علمنا من قبل أن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم علم بالمعنى المعروف الآن لهذه الكلمة ، وإنما هي أخبار يتناقلونها ، أو نظري في النجوم أو الطب أو نحو ذلك دلتهم عليه التجارب الناقصة ، ولكن شيئا من ذلك لم ينظم ولم توضع له قواعد حتى يسمى علما ، وكانت الأمية فاشية فيهم ، حتى ندر أن ترى بينهم القارئ الكاتب ، وهذا طبيعي فان العلم من آثار الحضارة والعمران ، ولا يمكن أن يرقى ويتقدم إلا في ظل المدنية .

فلما جاء الإسلام شجع على تعلم القراءة والكتابة ، وحث النبي صلى الله عليه وسلم على تعلمهما ، لأن نشر الدين كان يتطلب القارئ الكاتبين ، فقد كانت آيات القرآن تكتب ، ويتلوها من يعرف على من لم يعرف ، بل حث النبي بعض أصحابه أن يتعلم لغة غير اللغة العربية ، فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم العبرية والسريانية .

وقد رأيتَ قبلَ أنَ الاسلامَ نقلَ العربَ منَ طورِ البداوةِ الىَ طورِ آخرِ انتظمتَ فيهَ أمورهم ، وتكونتَ منهمُ أمةٌ تخضعُ لسلطانِ واحدٍ وقانونِ واحدٍ ، كلُّ هذا أسرعُ فيَ مدينتها وحضارتها ، أضفَ إلىَ ذلكَ أنَ الفتحَ الاسلاميَ مكنَ العربَ منَ الاطلاعِ علىَ ما كانَ للفرسِ والرومِ منَ حضارةٍ ، وكوّنَ ممنَ خضعَ للاسلامِ منَ هذهِ الأممِ مملكةً واحدةً ، تستخدمُ وسائلَ الرقيِّ حيثما وجدت .

كلُّ هذا أسرعُ فيَ حضارةِ الأمةِ الاسلاميةِ ، واستتبعَ ذلكَ نشوءَ العلمِ وسيروهَ السريعَ الىَ التقدمِ والارتقاء .

وإذا نحنُ تتبعنا الحركاتَ العلميةَ فيَ هذا العصرِ وجدناها أنواعا ثلاثةً :

أولاً — وهو أهمها وأوسعها نطاقا العلومُ الدينيةُ . فقد أقبلَ كثيرٌ منَ صحابةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم علىَ القرآنِ يتدارسونه ويتفهمونه ويستنبطون منه الأحكامَ للحوادثِ التيَ تعرضُ لهم ، واشتهرَ منَ هؤلاءِ الصحابةِ العلماءِ عمرُ وعلىَ وعبدُ اللهِ بنِ مسعودٍ وعبدُ اللهِ بنِ عمرٍ وعبدُ اللهِ بنِ عباسٍ وزيدُ بنُ ثابتٍ وعائشةُ ، وهؤلاءُ وغيرهمُ تفرقوا فيَ الأمصارِ المختلفةِ فالتفَّ حولهم الناسُ فيَ كلِّ قطرٍ يتعلمون منهمُ معانيَ القرآنِ وأحاديثَ رسولِ اللهِ ، وكيفَ يستنبطون الأحكامَ منها ، فكانَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ مثلاً فيَ العراقِ ، وعبدُ اللهِ بنُ عباسٍ فيَ مكةَ ، وعبدُ اللهِ بنُ عمروِ ابنِ العاصِ فيَ مصرٍ وهكذا ، وكانَ لكلِّ منهمُ تلاميذٌ ينقلون عنهم العلمَ ، وقد سميتِ الطبقةُ التيَ أخذتَ عن الصحابةِ "بالتابعين" .

وقد زادَ هذهَ الحركةَ ظهوراً وسعةَ الموالى ، وهم الذين كانوا من أصلٍ غيرِ عربيٍّ كالفرسِ والرومِ ودخلوا فيَ الاسلامِ ، فانهم لحضارتهم القديمةِ ومعرفتهم علومِ قومهم استطاعوا لما دخلوا فيَ الاسلامِ أنَ يشتغلوا بالعلومِ الاسلاميةِ علىَ النمطِ الذي كانَ عليه علمُ قومهم ، وقد اشتهرَ منَ هؤلاءِ التابعينَ كثيرونَ كمجاهدِ بنِ جبرٍ وعكرمةِ بمكةَ ، وسعيدِ بنِ جبَّيرٍ بالكوفةِ والحسنِ البصرى ومحمدِ بنِ سيرينَ بالبصرة .

ثانيا - من المعارف التي بدأت في ذلك العصر الحركة التاريخية ، وذلك أن بعض الأمم التي دخلت في الاسلام أخذت تذكر تاريخ أممها بين المسلمين ، فانتشر في ذلك العصر كثير من أخبار الفرس واليهود ونحوهما . وأهم من ذلك أن المسلمين بدعوا يُعْتَوَّن بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وأعمال أبي بكر وفتوح عمر ونحو ذلك مما كان أساسا بنى عليه في العصر العباسي ما ألف من كتب التاريخ .

ثالثا - الفلسفة وما إليها ، وسببها أن المسلمين فتحوا مدنا فيها مدارس سريانية مثقفة بالثقافة اليونانية وأشهرها مدرسة الرها ، ونصيدين ، فلما جاء الاسلام ظلت هذه المدارس تؤدي عملها في نشر هذه الثقافة . ومن هذه المدارس أكثر الأطباء الذين كانوا في قصور بني أمية ، فان الدراسة الطبية كانت متصلة بالدراسة الفلسفية اتصالا كبيرا . ومن أشهر هؤلاء ابن أنال وكان طبيبا نصرانيا لمعاوية ، وماسرجويه وكان طبيبا اسرائيليا في زمن عمر بن عبد العزيز ، وهكذا . وهذه الأنواع كلها من العلوم كانت في عهد الدولة الأموية ، ساذجة بسيطة لم تنضج ويكثر التدوين فيها إلا في العصر العباسي .

العصر العباسي الأول

الحياة العربية في القرن الثاني للهجرة

كانت المائة الأولى للهجرة عصر تطور خضعت له الأمة العربية من جهة ، والأمم الأجنبية المغلوبة من جهة أخرى ، وكان أهم الأسباب التي بعثت هذا التطور الاسلام والاختلاط بين العرب وغيرهم من الشعوب ، وكان الأدب العربي في القرن الأول مظهرا صادقا لتغير النفس العربية ، وتأثرها بالحياة الجديدة التي استتبعها الاسلام ، على حين كان الأدب العربي في القرن الثاني مظهرا صادقا لتغير النفس الأعجمية الأجنبية بهذه الحياة ، ومعنى ذلك أن الأدب العربي في القرن الأول ظل عربيا في جوهره ، وتأثر بالاسلام وهو دين عربي تأثرا قويا ،

ولم يؤثر فيه اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الا قليلا . أما في القرن الثاني فقد أصبح الأدب أجنبيا في الجملة ، لغته العربية ، وأخذ تأثير العرب فيه يضعف شيئا فشيئا لأن الأدباء الذين أنشئوه كان أكثرهم من الأجانب الذين تعلموا العربية و برعوا فيها ، أو نشئوا في حجور آباء وأمهات تعلموا العربية و برعوا فيها . والواقع أن الأدب ظل عربيا طوال القرن الأول ريثما يتاح للأمم المغلوبة أن تُسلم وتتعب وتشارك في الحياة الاسلامية العامة ، وما كاد القرن الأول ينقضي حتى كان الاسلام قد أخذ يسطر ظله الديني على النفوس بعد ما بسط ظله السياسي على أقطار الأرض ، وحتى كان كثير من الأجانب قد فزعوا الى الاسلام ليظفروا بالمساواة في الحقوق السياسية والاجتماعية ، والى اللغة العربية لينفقوا كفاياتهم في خدمة الفاتحين ، ويأخذوا بمحوظتهم من مناصب الدولة وسلطانها ، وقد ظهرت آثار ذلك في العصر الأموي نفسه ، فرأينا جماعة من الموالى يجيدون الشعر ويتفوقون فيه ، ويقربهم ذلك من الخلفاء ، ويضمن لهم الخطوة لديهم ، ورأينا جماعة أخرى ينشئون النثر الفني انشاء ، ويمكنهم ذلك من أن يشغلوا مناصب الكتابة في الدواوين والاشراف على أعمال الدولة ، وكان ظهور هذا في العصر الأموي مؤذنا بما سيؤول اليه أمر العرب اذا لم يجرموا أمورهم ، ويحتفظوا بسلطانهم من الفناء والاضمحلال ، وقد عجز العرب عن حزم أمورهم ولم يحتفظوا بسلطانهم ، بل أصبح بعضهم لبعض عدوا بتأثير العصبية وما دعت اليه من جهاد وصراع وتنافس ، فضعفوا وقوى الأجنبي ، وكانت الثورة التي انتهت بالادالة من بني أمية لبني العباس في حقيقة الأمر ثورة أجنبية ، سجات انتصار العنصر الأعجمي الفارسي على العنصر العربي ، وضمنت للمتصرين ما كان العرب يستأثرون به من أوان السيادة وضروب السلطان وليس غريبا أن تظهر هذه الثورة في شرق البلاد الاسلامية ويتم فيها الفوز للأمم الفارسية ، وتظل الأمم المغلوبة الأخرى هادئة مذعنة في الشام ومصر ، فقد كان الفرس حين ظهر الاسلام أهل سيادة وبأس وسلطان ، وكانت هذه الأمم مغلوبة خاضعة لسلطان الروم ، فلا جرم أن كان الصراع عنيفا بين العرب والفرس

ويسيرا فافترا بين العرب والأُمم الأخرى ، وكان ميدان هذا الجهاد إبَّان القرن الأول العراق ، حيث التقى الشعبان وظهر ما بينهما من اختلاف الأهواء وتباين المنافع وتناقض الأغراض ، ومن هنا كان العراق في العصر الأموي موطن الممارضة السياسية الحادة ، ومهد الحركة الفكرية الخصبية ومستقر الحياة الأدبية القوية ، ومن هنا كانت نتيجة الثورة وانتصار الفرس أن انتقل مركز السلطان من الشام إلى العراق ومن دمشق إلى بغداد .

اختلاط الحضارات الأجنبية وتأثيرها في الأدب العربي

ولأجل أن تتبين طبيعة الأدب العربي الجديد وما بينه وبين الأدب العربي الأموي من فرق يجب أن تتبين طبيعة الشعب الذي كان هذا الأدب مرآة تصف حياته وتصوّر أهواءه وميوله .

لم يكن هذا الشعب عربيا خالصا ، ولا فارسيا خالصا ، وإنما كان مزاجا أنشأه الاختلاط بين هذين الشعبين وأخلاقا من شعوب أخرى كانت تسكن العراق وتعمل في أرضه منذ عهد بعيد جدا ، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد تتكون من العقلية العربية الجاهلية والاسلامية ومن العقلية الفارسية ، ومن العقلية السامية القديمة . وقد تأثرت قليلا أو كثيرا بالديانة المسيحية والثقافة اليونانية ، فليس غريبا أن تكون حياة هذا الشعب المعقد مخالفة للحياة العربية الخالصة ، وأن تكون المرآة التي تعكس هذه الحياة مخالفة للمرآة التي كانت تعكس حياة العرب أيام بنى أمية ، والواقع أن الفرق بين هذين النوعين من الحياة كان عظيما جدا ، فقد ضعف تأثير البداوة العربية الخالصة في هذا الجيل من أهل العراق ، واشتد فيه تأثير الحضارة الفارسية القديمة ، ونشأ عن ذلك وعن زهاب سلطان العرب أن استمتع هذا الجيل الجديد بكل ما كان مقصورا على العرب من الحقوق والامتيازات وسوى بين الغالب والمغلوب في كل شيء ، وكان حظ كثير من هذا الجيل من الازدعان لأحكام الاسلام قليلا ضئيلا لحداثة عهده بهذا الدين ، ولقوة ما كان للديانة الموروثة على نفسه من سلطان ، وكانت اللغة التي يتكلمها هذا الجيل نفسها

وسطا بين الفصاحة العربية الخالصة والرطانة الأعجمية ، فلا عجب أن يظهر الفرق بين ما كان لهذا الجيل من مثل أعلى في الحياة الأدبية والعقلية وما كان للجيل الذي سبقه ، وأهم مظاهر الفرق بين هاتين الحياتين أن الجيل الجديد ظهر فيه الميل الشديد الى الحياة العلمية ، فكثرت فيه العلم ، واختلفت أنواعه ، فمنه ما استحدث بعد ان لم يكن ، ومنه ما كان موروثا ولكنه نما وارتقى ، ومنه ما نقل عن الأمم الأجنبية نقلا ، ثم أخذ الناس يدرسونه ويمحصونه حتى أساغوه أولا ، ثم طبعوه بطابعهم الخاص ثانيا . وكان في الجيل الأموي علم ولكنه كان عربيا اسلاميا خالصا ، حظه من البداوة عظيم ، أما الآن فقد أصبح هذا العلم كثيرا مختلف الأنواع بمعقد الأصول متشعب الفروع ، وبعد في هذا الجيل عهد الأدب بالبداوة العربية ، فقل حظه من السهولة والسر ، وكثر حظه من التكلف الفني وأصبح نتيجة الصناعة والتعمل بعد أن كان نتيجة الطبع والسجية الحرة المطلقة ، ونشأت في الأدب فنون لم تكن معروفة أو لم تكن معروفة الا قليلا ، وتطورت الفنون الأخرى تطورا يلائم هذه البيئة الجديدة ، وهذا العقل الجديد .

الشعر في هذا العصر

أما الشعر فلم يضعف في هذا العصر الجديد بل قوى ونما ولكنه تطور في ألفاظه ومعانيه وفي أوزانه وقوافيه وفي أغراضه وفنونه .

فأما ألفاظه فرقت وسهلت حتى بعدت الصلة في كثير من الأحيان بينها وبين الألفاظ الشعرية التي كانت مألوفة في العصر الاسلامي أيام الفرزدق والأخطل وجرير ، وانك لتقرأ الكثير من شعر مسلم بن الوليد وأبي العتاهية والعباس بن الأحنف فيخيل اليك أنك تقرأ كلاما مشورا لولا الوزن والقافية ، وتطورت المعاني التي كان الشعراء يتخذونها طريقا إلى أغراضهم فانصرف الشعراء في أكثر الأحيان عن المعاني البدوية أو الحضرية المتأثرة بالبداوة إلى معاني حضرية صرفة ، ليس بينها وبين البداوة صلة ، وبعد أن كان الشعر الجاهلي

والاسلامي مرآة للطبع يكاد يصدر عنه في غير تكلف ولا تعمل أصبح الشعر
في هذا العصر مرآة لطبع مهذب متحضر ، وأصبح لا يصدر عن هذا الطبع إلا
بعد أن يسيطر عليه العقل فيصلح من أمره ، ويرده إلى حدود كان الخيال
تجاوزها أو يهملها ، فأصبح العقل يرى تجاوزها واهمالها تجاوزا للذوق ، وتقصيرا
في الاتقان الفني ، واشتد زهد الشعراء في هذه الأوزان الطويلة في كثير من
الأحيان ، وآثروا عليها الأوزان السهلة الخفيفة القصيرة ولأعموا بين الموضوعات
والأوزان ، فهم يختارون للغزل والعبث والمجون أوزانا تلائمها ، فاذا مدحوا الخلفاء
والوزراء أو ~~أولادهم~~ أو عرضوا للجد من الأمور آثروا الأوزان الطويلة الضخمة ،
ويسرروا على أنفسهم في القوافي إلى حد ما ، فاخترتوا أيسر الألفاظ وأسهلها
وأحبها إلى السمع ، وتجنبوا ما كان القدماء لا يحفلون بالتورط فيه من عيوب
القافية كالإيطاء والاقواء والاكفاء والسناد .

أغراضه وفنونه

وأما أغراض الشعر وفنونه فمنها ما لم يستطيع البقاء طويلا في هذا العصر
الجديد كالشعر السياسي الذي قلت الحاجة اليه بعد أن انحلت الأحزاب وبطل
الجهاد بينها ، والواقع أن أمر هذا الفن أخذ يضعف شيئا فشيئا حتى استحال
إلى نوع من الهجاء يقوله الشاعر على خوف وحذر حين تسنح له الفرصة ،
وكالغزل العُدري الذي لم يبق له مجال متسع إلا قليلا في هذه البيئة التي لم تكن
العفة والطهر من مميزاتهما .

ومنها ما تطوّر تطوّرا قليلا أو كثيرا كالغزل العادي ، فقد أصبح صناعة
متكلفة قلما يصدق في وصف العاطفة وتصوير ميول النفس ، وإنما كان كثير
من الشعراء يستبقونه على أنه فن موروث لا ينبغي أن يضع ، وقد استحدثوا
منه مكانه غزلا جديدا كان أصدق تصويرا لنفوسهم وبيئتهم وما انتهت إليه حياتهم
من الفساد لكثرة الرقيق ، ولما كان لهذا الرقيق من سلطان على النفوس وهو الذي
يسمونه غزل المذكر .

٩٠
لا

العصر
العصر

وكالهباء الذي ازداد قبها وعظم حظه من الاقذاع والفحش يُقصد اليه ويبحث عنه وتلمس فيه السيئات التماسا .

وكالممدوح الذي كثرت فيه المبالغة واشتد فيه الاسراف وبعد فيه الشعراء عن القصد الذي هو من مميزات الطبع العربي الخالص ، وسفل به الشعراء حتى اتخذوه أداة للكسب في غير تعفف ولا كرامة ولا حياء .

وأشد الفنون الشعرية وأكثرها نموا وشيوعا في هذا العصر المجون ووصف النحر ، وقد دعا إلى نمو هذا الفن وتهالك الناس عليه ما أحدثه الانتقال من فساد الأخلاق وانحلال الروابط الاجتماعية ، وتسلب الاماء على الحياة المنزلية ، واستبدادهم بمكان الحرائر من الرجال واتقانهن للعربية وآدابها ، وبروزهن للناس ، واشترا كهن في حياة العبت واللهو جهرا ، وما كان من تسلط الرقيق من غلمان الترك والروم على نفوس الزعماء والسادة ، واستئثارهم بالسلطان على حياة هؤلاء الزعماء يدبرون قصورهم وثروتهم كما يحبون ويشتهون ، أضف إلى هذا كله ظهور المذاهب الفلسفية المختلفة وكثرة المقالات الدينية وما يدعو اليه هذا من اضطراب العقول وتسلب الشك على نفوس الطبقة الوسطى من الناس .

على أن فنا آخر من الشعر جديا ظهر في هذا العصر ، وكان أبو العتاهية هو الذي أظهره وأذاعه وهو الزهد ، ومهما يكن ظهور هذا الفن غريبا في هذه البيئة فإن تعليقه يسير بما كان من اشتداد الصلة بين العرب والفرس ، وانتشار الحكمة الشرقية فارسية وهندية في هذه البيئة ، وحرص الفرس على اذاعتها ، فظهرت هذه الحكمة في زهد أبي العتاهية شعرا ، وظهرت في كتب ابن المقفع ثرا ، ولكنها لم تجد ما يزينها من شعر أبي العتاهية كما وجدت ما يجعلها من ثرا ابن المقفع ، وظهر في هذا العصر نوع طريف من الشعر ليس له هذا الجمال الشعري الذي نألفه فيما ورثناه من شعر القدماء والمحدثين ، ولكن ظهوره يدل على ما كان من تسلط العقل على الحياة الأدبية في هذا العصر ، وهذا الفن هو الشعر التعليمي الذي اتخذ أصحابه وسيلة إلى نظم ألوان من فنون العلم ليسهل حفظها

سدر السبا
المدوح

المجنون
المجدد

الزهد
راحمه الله
سواك

أبو العتاهية
سواك
العصر العباسي

واستظهارها ، فمنهم من نظم كليلة ودمنة ، ومنهم من نظم قصائد في الفقه ودإ إلى ذلك من الفنون التي كان المثقفون يحرصون على إتقانها وإجادتها .

وبرعت طائفة من شعراء هذا العصر في الوصف المبادئ على نحو ما كان يفعل العرب الجاهليون والاسلاميون ، ولكنهم غيروا موضوع هذا الوصف ، فلم يسرفوا في وصف الإبل والحيل والصحراء ، بل لم يقصدوا إلى هذا النوع من الوصف إلا حين كانت تدعوهم إليه المحافظة على السنن الشعرية الموروثة ، وإنما وصفوا أشياء جديدة أحدثتها الحضارة العباسية كالتصور والبساتين والكثوس وما يتصل بكل هذا من أدوات اللهو والترف حتى الصيد ، فقد اتقنه الجاهليون ، وانصرف عنه الاسلاميون ، ولكن هؤلاء الشعراء والمحدثين عادوا إليه وأكثروا فيه ، وسلكوا سبيلا غير سبيل الجاهليين ، فوصفوا الصيد على نحو ما كان يصطنعه الفرس ، ودققوا في وصف الكلاب والجوارح تدقيقا لم يوفق إليه الجاهليون ، ومن الغريب أنهم اتخذوا الرجز أداة لهذا الوصف ، وبرع أبو نواس فيه وأكثر من الغريب كأنه يريد أن يزن التجديد في المعنى بالمحافظة الشديدة في اللفظ .

هذه هي صورة مجمل شديدة الاجمال ، فيها نقص كثير ، لحياة الشعر العربي في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، ولكن الاكتفاء بها كما هي لا يغني من يريد الامام بالحياة الأدبية في هذا العصر ، فلا بد من الوقوف عند جماعة من الشعراء الذين صارت إليهم الزعامة الفنية في العراق لتبيين خصائصهم ، ولتبيين من هذه الخصائص نفسها صحة هذه الصورة المجمل .

وهؤلاء الشعراء طبقات يتبع بعضها بعضا عن قرب ، ويلاحظ الناظر في تاريخها أن كل واحدة منها كانت تخطو بالشعر خطوة إلى الأمام ، بالقياس إلى الطبقة التي سبقتها ، فأما أولى هذه الطبقات فزعماءها ثلاثه . بشار بن برد والسيد الجعفي ومروان بن أبي حفصة وكلهم ولد في أيام بني أمية ، ونشأ في ظلهم ، ومنهم من أدركه العصر العباسي وقد شب وأكثر من قول الشعر والاجادة فيه .

BRASSON

بَشَّارُ بْنُ بَرْدٍ

فأما بشار بن برد ففارسي الأصل وأبوه فيما يقال من سبي المهلب بن أبي
صُفْرَةَ ، وكان ولاؤه في بني عقيل من قيس عيلان ، ولشأ بشار في البصرة نشأة
عربية خالصة ، فأتقن اللغة وبرع في الأدب ، وكان شاعرا محاورا وخطيبا ،
واختلف إلى مسجد البصرة وما كان يقام فيه وفي غيره من مجالس المتكلمين ،
وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فاضطرب بين هذه المذاهب ، وكاد يستقر
رأيه على مذهب المعتزلة ، فقد قتن بواصل بن عطاء زعيمهم ، ومدحه فأحسن
مدحه ، ثم وقع الخلاف بينه وبينهم فتركهم وهجهم ، واستطار الشر بينه وبين
واصل حتى تحدث واصل بأنه كاد يدس إليه من يقتله لولا أن دينه وخلقه يبيان
عليه الغيلة ، وصار بشار إلى الشك ثم إلى الزندقة ، وصار في الوقت نفسه إلى
الشُعوبية ، فكره العرب ودينهم وأحب الفرس وفاخر بهم وآثر مذهبهم الديني ،
يجهز بهذا ان سنحت له الفرصة ، ويخفيه ان أشفق من السلطان .

شعره

على أن الذي اشتهر من أمره حتى عرفه الناس به عما هو الشعر دون غيره
من ألوان العلم والفن ، فقد كان شاعرا مجيدا ، تأثر الشعراء الاسلاميين وأخذ
عنهم ، وكان يحب جريرا ويؤثره على غيره ، وقد أدركه وهجاه فيما يقول الرواة
رغبة في أن يتوه به جرير فيرتفع أمره ، ولكن جريرا أعرض عنه . وكان بشار عربي
الزعة في الشعر ، حريصا على متانة اللفظ ورسانته ، قلما يميل إلى تجاوز المألوف
في الألفاظ والأساليب والوزن والقافية ، ولكن مزاجه الفارسي قد ترك في شعره
أثرا ظاهرا ، فسنحت له خواطر ومعان لم تكن تسنح للشعراء من العرب الخُلص
ولاسيما حين كان يتغزل ، فقد مال في غزله إلى نحو من الفنون والمجون لم يعرفه
الغزلون من شعراء الحجاز ، سواء منهم العذريون وأصحاب المجون . كان بشار صريحا
في غزله قبيح الصراحة أحيانا ، وكان مسرفا في الرقة إذا تغزل ، حتى خاف
الأشراف وأهل الصلاح شره على النساء والشبان فذمه الوعاظ والقصاص

في وعظهم وقصصهم ، وشكاه أشرف الناس إلى السلطان فنهاء المهدي عن الغزل
فاتتهى على كره ونفاق . وكان طويل اللسان مُقَدِّعُ الهجاء مسرفا فيه ، لا يتحرج
ولا يري لأحد عهدا ولا ذمة ولا مكانة ، وما زال به اسرافه في الغزل الفاجر
والهجاء المقذع والشك المرير حتى كاد له بعض خصومه عند المهدي فأمر بضربه
حتى مات سنة ١٦٧ هـ

وكان شعر بشار كثيرا ، يقال انه بلغ اثني عشر ألف قصيدة ، ولكن لم
يبق لنا من هذا الشعر الكثير الا مقطعات متفرقة في كتب الأدب نعرف فيها
شدة اللفظ وماتته اذا جد ، ونعرف فيها اللين والفتور اذا تغزل أو هزل ، ونعرف
فيها على كل حال جودة المعاني ودقتها وحسن الاستقصاء لها .

والرواة مجمعون على أنه زعيم الشعراء المحدثين كافة ، وقد نستطيع أن نقبل هذا
لو أن من شعره بين أيدينا مقدارا يمكننا من الحكم عليه .

وكان بشار أكمه ، قبيح المنظر ، ضخيم الجسم ، ثقيل الظل ، يُعجَبُ الناس
به ولا يحبونه (١) .

(١) أمثلة من شعره .

اجعل الحب بين حبي وبينى قاضيا انى به اليوم راضى
فاجتمعنا فقلت يا حبي نفسي إن عيني قليلة الاغراض
أنت عذبتى وأنحلت جسمى فارحم اليوم دائم الأمراض
قال لى لا يحل حكى عليها أنت أولى بالسقم والاحراض
قلت لما أجابنى بهواها شبل الجور فى الهوى كل قاضى

وقال

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودى لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم
نفسى يا عبد عنى واعلى أنى يا عبد من لحم ودم
ختم الحب لها فى عنق موضع الحاتم من أهل الدم =

السيد الجيـري

وأما السيد الجيـري واسمه اسماعيل بن محمد فـعربي من يمانية العراق ، نشأ كبشار في العصر الأموي ، وأظله عصر بني العباس ، وقد أكثر من قول الشعر والإجادة فيه ، وكان أبواه من الخوارج الإباضية ، ولكنه نشأ شيعة لعل وبنه ، فاستنفذ فيهم أكثر شعره ، ولم يمنع حبه إياهم أن يمدح العباسيين ، ويأخذ جوائزهم ، ولكنه كان صريحا لا يخفي حبه للعلويين مخافة بني العباس ، كما أنه كان يحب العباسيين ويؤثرهم على بني أمية ، ويستبشر بقيام دولتهم .

وكان السيد الجيـري ضعيف العقل مضطرب النفس شديد التردد ، وكان هذا كله مصدر ما يروى عنه من سخف كثير ، فقد يؤمن بالرجعة والتناسخ ، ويفهم ذلك فهما أدنى إلى فهم العامة منه إلى فهم العلماء ، وكان لفظه اذا قال الشعر سهلا يسيرا ربما أسرف في السهولة واليسر حتى أسف وابتدل ، أما معانيه فكان منها الجيد القيم ، ومنها السخيف المرذول ، وقد ضاع شعره الا مقطعات مفرقات في الكتب وتوفي سنة ١٧٣ هـ (١)

وقال

== اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكاجباب الشمس أو تمطر الدما
اذا ما أعزنا سيدا من قبيلة ذرا منبر صلى علينا وسلمها

وقال

يقولون لو عزيت قلبك لارعوى فقلت وهل للعاشقين قلوب
اذا نطق القوم بالجلوس فاني مكب كافي في الجميع غريب

(١) أمثلة من شعره قال :

أمرر على جدث الحسين فقل لأعظمه الزكية
أعظا لا زلت من وطفاء ساكبة روية
واذا مررت بقبره فأطل به وقف المطية
وابك المطهر للطهر والمطهرة النقية
كبكاه معولة أتت يوما لواحدنا المنية ==

مروان بن أبي حفصة

وكان مروان بن أبي حفصة من أسرة فارسية جلب أصلها إلى الحجاز أيام
عثمان بن عفان ، فوهبه عثمان لمروان بن الحكم فأخلص هذا الرجل لمروان وأحسن
البلاء في الدفاع عنه يوم الدار فأعتقه مروان ، واستقر الرجل في اليمامة فظلت أسرته
فيها طوال العصر الأموي ، وفي هذا العصر ولد شاعرنا ونشأ وشب حتى أدخل
على الوليد بن يزيد ، ولكن تفوقه في الشعر لم يظهر الا أيام العباسيين ، وقد أبي
مروان بن أبي حفصة أن يترك اليمامة ويستقر في مصر من أمصار العراق ، فظل
بعيدا عن التأثير الفارسي الى حد ما ، وظهر أثر ذلك في شعره ، فهو متين رصين ،
جزل اللفظ صُلب المعنى أشبه بشعر الفحول من شعراء الاسلام ، وقد انقطع أول
أمره لعامل من عمال العباسيين في جزيرة العرب هو معن بن زائدة الشيباني ،
فأحسن مدحه وأكثر فيه وأخذ منه أموالا طائلة ، واشتهر شعره حتى بلغ المهدي
فحسد عليه عامله ، كالذي كان بين جرير والحجاج وعبد الملك ، ثم عظم أمر مروان
فارتحل بشعره الى العراق ومدح الخلفاء من بني العباس وأحسن مدحهم ، ووجه
هذا المدح نحو الدفاع عن الخلافة العباسية والرد على العلويين وانكار حقهم
في الخلافة ، ففتح هذا الباب للشعراء المعاصرين فدخلوا فيه من بعده ، وقدر له

وقال

== سائل قريشا اذا ما كنت ذاعمه من كان أثبتها في الدين أوتادا؟
من كان أهلها عليا وأهلها حلها وأصدقها قولا وميعادا؟
ان يصدقك فلن يبع وأباحسن إن أنت لم تلق للابرار حسادا

وقال

أبها المداح العباد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم وارج نفع المنزل العواد
لا تقبل في الجواد ما ليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد

هذا البيت
من
المدح
للعباسيين

الخلفاء ذلك فأجزلوا العطاء له ، وكابوا يشترون منه البيت بألف درهم . وكان مروان بن أبي حفصة صاحب صنعة وتجويد للشعري يطبخ في قوله ثم يعيد النظر فيه اذا فرغ منه ، ولا ينشد القصيدة بين يدي الخليفة حتى يتفق في قولها وتجويدها واستشارة الأدباء والعلماء فيها سنة كاملة وقد توفي سنة ١٨١ هـ (١)

وقد تأثرت هذه الطبقة ولا سيما بشار والسيد الحميري بالفرس وحضارتهم من غير شك تأثراً قويا ، ولكن تأثرها باليونان وعلومهم كان قليلا بالقياس الى الطبقة التي جاءت بعدها ، وزعماء هذه الطبقة الثانية ثلاثة أيضا هم أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد .

(١) أمثلة من شعره . قال يدافع عن العباسيين ويرد على العلويين :

أني يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

وقال يمدح بني مطروهم معن واخوته :

بئر مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لهم في بطن خفان أشبل
تجنب لا في القول حتى كأنه حرام عليه قول لا حين يسأل
تشابه يوماه علينا فأشكلا فلا نحن ندرى أى يوميه أفضل
أزوم نداء الغمر أو يرم بأسه وما منهما الا أغر محجل
بها ليل في الاسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا أجاوبوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا
هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل
وما يستطيع الفاعلون فعالمهم وان أحسنوا في الثابتات وأزلوا

وقال في معن بن زائدة الشيباني :

قد آمن الله من خوف ومن عدم من كان جارا له من جورذا الزمن
معن بن زائدة الموفى بدمه والمشترى بالمجد بالعالى من الثمن
بر العطايا التي تبقى محامدها غنا اذا عدها المعطى من العبن
بني لشيبان مجدا لا زوال له حتى يزول ذوو الأركان من حضن

أبو نُوَّاس

فأما أبو نواس الحسن بن هانئ فولد سنة ١٤٥ ولم يدرك العصر الأموي ، ولكن أباه كان من جند مروان بن محمد من أهل الشام ، وكانت أمه فارسية من الأهواز ، ونشأ في العراق نشأة هذا الجيل الذي وصفناه آنفاً ، فكانت لغته عربية ، وحضارته فارسية ، وثقافته مزاجاً من الثقافة العربية الفارسية ، ومن الثقافة اليونانية التي أخذت تشيع وتنتشر في عصره ، وكان شباب أبي نواس شديد النشاط فكان يتصل بالشعراء والأدباء وأهل اللغة فيأخذ عنهم ، وكان يختلف إلى مجالس المتكلمين فيأخذ بحظ من الكلام ، وكان يسمع للقصاص والمحدثين فيروى عنهم ، ثم كان يفرط في الأخذ بحظه من الحياة ولذاتها .

وأبو نواس هو الشاعر الذي يمثل هذا العصر الجديد أصدق تمثيل ، يمثله من ناحية الأدبية ، فقد كان راوية كثير الرواية ، يتقن اللغة العربية قولاً وعلماً ، ويمثله من هذه الناحية التي التقت فيها الثقافات الثلاث المختلفة ، فهو عربي خالص إذا قصد إلى بعض أنواع الجدل كالمديح والرياء ، وهو إذا قصد إلى الهزل ظُرف ولاءم بين هذه الثقافات كلها ، فأخذ عن العرب لفظاً متيناً جزلاً ، وأخذ عنهم أوزانهم وقوافيهم ، وأخذ من الفرس أوصافهم المادية للحياة المتحضرة ، وأخذ من اليونان معانيهم الدقيقة واصطلاحاتهم الفلسفية ، وقد أكثر أبو نواس من قراءة شعر الوليد بن يزيد ، وكان الوليد وصافاً للخمر فوصفها أبو نواس وتفوق في وصفها على أستاذه .

شعره

وشعر أبي نواس يصور فساد البيئة العراقية في ذلك العصر فهو أكثر الشعراء في هذا العصر مجوناً ، وأشدهم انحفاً في هذا المجون ، وأقلهم احتياطاً في القول والعمل ، أقام في العراق متردداً بين البصرة والكوفة وبغداد ، ثم رحل إلى الشام ثم إلى مصر ، ثم عاد إلى العراق واستفاد من كل هذه البيئات ، وكان ثورة

التجديد قد وجدت فيه أداة صالحة فاتخذته لها ترجمانا ، فكان أبو نواس أشد شعراء هذا العصر سخطا على المذهب الشعري القديم ، ودعوة الى العدول عنه الى المذهب الجديد الذي يؤثر الحضارة على البداوة ، ويريد أن يكون الشعر حضريا في ألفاظه ومعانيه وأغراضه .

ولم يكن أبو نواس بريئا من الشُّعوبية وبغض العرب ، وكانت تهمة الزندقة تحوم حوله ، ولم يكن يتحرج من الجهر بالفسق والمعصية ، معتمدا على عفو الله ومغفرته ، وقد كره الرشيد والأئمة منه هذا كله أو بعضه فحسباه وغضبا عليه ، ولكن حبسه والغضب عليه كانا يتهيان دائما بالعفو عنه ، ومات أبو نواس في آخر هذا القرن الثاني سنة ١٩٩ (١)

(١) أمثلة من شعره :

بعث للفضل بن الربيع وكان قد حبس لتهمته :

أنت يا ابن الربيع علمني الخير وعودتيه والخير عادة
فارعوى باطلي وراجعتي الخلم وأحدث عفة وزهاده
لو تراني ذكرت في الحسن البصري في حال نسكك أو قتاده
من خشوع أزيته بخضوع واصفرار مثل اصفرار الجواده
التساييح في ذراعي والمصحف في لبتى مكان القلاده
فاذا شئت أن ترى طرفة تعجب منها ما بحة مستفاده
فادع في لاعدت تقويم مثل فتأمل بعينك السجاده
ترسيا من الصلاة بوجهي توقن النفس أنها من عباده
لو رأها بعض المرائين يوما لاشتراها يعدها للشهاده
ولقد طالما شقيت ولكن أدركتني على يدك السعاده

ويقول في وصف الكأس وما عليها من تصاویر :

تدور علينا الراح في عسجدية حبتها بألوان التصاویر فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدرىها بالقيسى الفوارس
فلغمز مازرت عليه جيوبها وللاء ما دارت عليه القلائس =

أبو العتاهية

وولد اسماعيل بن القاسم أبو العتاهية في آخر العصر الأموي ، ونشأ نشأة
عباسية ، في أسرة من الموالى فقيرة بالكوفة ، كان سيء السيرة في طفولته ثم عمل
مع أبيه في صنع الحرار وبيعها ، ولكنه أتقن العربية وأحب الشعر فتكلفه ،
ولم يلبث أن برع فيه ، وأصبح الشعر له طبعاً كالنثر ، وقد اضطرب أبو العتاهية
بين مذاهب المتكلمين وأصحاب المقالات كما اضطرب في حياته بين الهزل والجد
واتصل بالخلفاء من بني العباس فقربوه وأحبوه إلى أن مات سنة ٢١١ هـ .

شعره

وقد عرض أبو العتاهية لفنون الشعر التي كانت مألوفة في عصره فمدح
وأحسن المدح ، وهجا ولكنه لم يثبت للهجائين ، وتغزل عن تكلف ، وأكثر من
الزهد عن تكلف أيضا ، ولكنه نشر هذا الفن وأذاعه شعرا ، ولعله إنما كان
يقصد إلى اذاعة الحكم الفارسية كما قلنا آنفا ، وحظ أبي العتاهية قليل من متانة
الشعر وورصاته ، وسهولة شعره تدنيه من السخف في كثير من الأحيان ولكن
معانيه الجيدة لا تكاد تحصى (١) .

وقال

= يا عاقد القلب مني هلا تذكرت حلا
تركت قلبي قليلا من القليل أقلا
يكاد لا ينجزا أقل في اللفظ من لا

وقال يتهكم بالقديم :

لا تيك ابلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من براء كالورد

(١) أمثلة من شعره :

إذا المرء لم يعق من المال نفسه تملكه المال الذي هو ماله
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه =

مُسلم بن الوليد

وكان مسلم بن الوليد "ويلقب بصريع الغواني" مولى من موالى الأنصار ،
نشأ نشأة عباسية أيضا ، واتصل بقواد الدولة وعمالها ، فمدحهم وظفر منهم
بالجوائز الضخمة ، ومدح الخلفاء ورفع شعره حتى عمل في بعض المناصب ،
ومات في أوائل القرن الثالث بـ ٢٠٨ سنة

وكان مختلف المذهب في الشعر ، يسهل حتى لا تحس وأنت تقرؤه أنك تقرأ
الشعر لولا الوزن والقافية ، ويجزُن حتى يخيل إليك وأنت تقرؤه أنك تقرأ للفحول

وقال

== أذن حتى تسمعي اسمي ثم عى وعى
أنا رهن بمضجعي فاحذرى مثل مصرعي
عشت تسعين حجة في ديار التزعزع
ليس زاد سوى التقي نخذي منه أودعي

وقال

شدة الحرص ما علمت وضاعه وعناء وفاقة وضاعه
إنما الراحة المريحة في اليأس من الناس والغنى في القناعه
نحن في دار مرتع غيبه المر ت ودار صرامة خداعه
عزم الليل والنهار على أن لا يملا تفريق كل جماعه

ومن أرجوزته التي قالوا ان فيها أربعة آلاف مثل :

إن القليل بالقليل يكثر إن الصفاء بالقذى ليكدر
هي المقادير ذمهي أو فذر إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح ورب جسد جره المزاج

من شعراء الجاهلية والاسلام ، وكان متأثراً بشاراً يسترسل مع طبعه أحياناً ويحود
فنه أحياناً أخرى ، والرواة يعدونه بعد بشار أكثر الناس عناية بالبديع (١)

أب مرام

ثم تقدم القرن الثالث قليلاً وإذا الطبقة الثالثة من هؤلاء الشعراء قد ظهرت
وعلى رأسها حبيب بن أوس أبو تمام الطائي الذي ولد بجاسم وهي قرية من قرى
دمشق ، ورحل إلى مصر طفلاً فنشأ فيها ، ثم عاد إلى الشام والعراق ، وإذا هو
شاعر فحل ، ولكنه يذهب في الشعر مذهباً جديداً يدقق في المعاني أشد التدقيق
ويتكلف تجويدها أشد التكلف ، ويهمل اللفظ أحياناً حتى يفتر ، ويعني به أحياناً
حتى تفسده العناية ، ويتكلف البديع إلى غير حد ، ويكاد يقطع الصلة بين الشعر
والطبع ، ويجعله صناعة كغيره من الصناعات التي لا ترسل النفوس فيها على سميتها ،
وهو شديد التأثير بالناحية اليونانية من الثقافة الاسلامية ، قد درس الفلسفة ،

(١) أمثلة من شعره :

يقول في الوداع :

وإني واسماعيل يوم وداعه لكأعمد يوم الروع زايه النصل
فان أغش قوما بعدهم أو أزرهم فكأوحش يدينها من الأنس المحل

وقال يمدح يزيد بن مزيد :

موف على مهج في يوم ذي ربح كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما يهيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل
لا يرسل الناس إلا نحو حجرته كالموت يضحي إليه ملتقى السبل
يقرى المنية أرواح الكفاة كما يقرى الضيوف شحوم الكوم والزل
يكسو السيوف رهوس الناكثين به ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

وقال

إذا التقتينا منعنا النوم أعيننا ولا نلثم نوما حين تفرق
أقر بالذنب متى لست أعرفه كيا أقول كما قالت فنتفق
حبست دمي على ذنب تجدده فكل يوم دموع العين تستبق

فأحسن درسها واستغلَّ الحكمة اليونانية في شعره فأكثر من ضرب المثل ، وأغنى
اللغة العربية بمعان لم تكن مألوفة فيها (١)

البحترى

ويتبعه أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائى ، فيأخذ ويتخرج عليه ،
ولكنه لا يسلك في شعره نفس الطريقة التى سلكها أستاذه ، وإنما يتوسط بعض
التوسط فيميل الى الناحية العربية الخالصة ميلا ظاهرا ، وإذا في شعره شئ من
البديع وكثير من التدقيق فى المعانى ، ولكن عنايته باللفظ الجزل على أسلوب
الفحول من شعراء القرن الثانى ظاهرة جليلة ، وهو وصاف بارع فى الوصف ،
ولكن ميله إلى وصف الحضارة المادية أشد من ميله إلى وصف المعانى ، وهو
مصور ماهر لعواطف النفس ، قادر على أن يرثى فيسيكك ، وعلى أن يستعطف
فيعطفك ، يبلغ ذلك من نفسك دون أن يتكلف فيه عناء ، وهو غززل خفيف
الروح اذا تغزل ، مادح موفق اذا مدح ، ويقول الرواة انه كان على هذا كله مغرورا
ثقيل الظل بغيض الروح (٢)

(١) أمثلة من شعره :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تجبه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها فليتب الله سائله

وقال

لا تنكرى همى فانى زائدى حزما حضار النائبات وشيها
والحادثات وان أصابك بؤسها فهو الذى أئبأك كيف نعيمها

وقال

أولى السيرة حقا أن تراعيه عند السرور الذى آسأك فى الحزن
ان الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى الوطن الخشن

(٢) أمثلة من شعره :

أقوى العواقب يأس قبله أمل وأعضل الداء تكس بمد إبلال
والمرء طاعة أيام تنقله تنقل القل من حال الى حال =

أمرنا بقراءة شعره
لأنهم صرخوا بالسين ما شعره

ابن الرومي

وبينا يقوى تأثير أبي تمام والبحتري في الشام والجزيرة ويأخذ الناس في الإعجاب بهما والاختلاف فيهما أيهما أشعر من صاحبه ، يظهر في العراق شاعران مختلفان أشد الاختلاف ، ولكنهما يتمنان هذه السلاسل الذهبية من الشعراء العباسيين ، أحدهما رجل من السوق من موالى العباسيين ، ولكنه مولى يوناني لا فارسي هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريح المعروف بابن الرومي ، كان أطول الشعراء المساهمين إلى عصره نفسا ، وكان إلى ذلك قوى الطبع ، خصبه ، غنى النفس حاد الشعور مضطرب المزاج إلى حد التطير ، وكان لفظه سهلا ولكن حظه من الجزالة والمتانة عظيم ، وكان من أفتح الشعراء هجاء ، ومن أبرعهم في العتاب ، ومن الطبيعي أن نلاحظ الفرق في شعره بين أصله اليوناني والأصول الفارسية أو العربية ليزه من الشعراء ، فقصيدته قطعة مؤلفة تأليفا منطقيا فنيا لا عوج فيها ولا ضعف ، ولا ميل إلى الاستطراد ، وقد مات ابن الرومي مسموما سنة ٢٨٣ هجرية (١) .

== وقال يمدح التميمي بن خاقان :

إونا ضرائب من قد نرى فما ان رأينا لفتح ضريبا
فكالسيف إن يمه صارخا وكالجران جئته مسنينا
فنتي كرم الله أخلاقه وألبسه الحمد غضا قشيبا
وأعطاه من كل فضل بعد مدحقا ومن كل مجد نصيبا

(١) أوثمة من شعره :

قال في الشباب :

رأيت سواد الرأس واللهاوتحتة كإيل وحلم بات رائيه يتم
فلها اضمحل الليل زال تعبه فلم يبق إلا عهد المنعم

وقال في قوس الغمام :

وفند نثرت أيدي الجيوب مطرفا على الجلود نأ والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأضطر على أحم - ر في أصفر أرمبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل صبغة والبعض أصغر من بعض =

ابن المعتز

والثاني رجل عربي ولد في قصر الخلافة ونشأ في حجور الخلفاء ، وهو عبدالله ابن المعتز بن المتوكل الذي ارتقى إلى عرش الخلافة فلم يكديستقر عليه حتى أنزل عنه مقتولا إلى القبر سنة ٢٩٦ وهو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكلفة ، فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليلهو به كما يلهو بالطعام والشراب والصيد والزينة وغيرها من متاع الحياة .

كان في العباسيين كالوليد في الأمويين ، ولكن بينه وبين الوليد نحو قرنين نضج فيهما الفن العربي ، وترجمت فيهما الفلسفة ، وتأثر بهما العقل والشعور ، فكان ابن المعتز متكلفا بمقدار ما كان الوليد مطبوعا ، وأجاد ابن المعتز في تكلفه كما أجاد الوليد في طبعه .

وكل هذه الطبقة الثالثة ، إلا ابن الرومي ، تمتاز من الطبقتين الماضيتين بأنها جمعت بين الفن والعلم ، فكان أصحابها شعراء ومؤلفين ، فأما أبو تمام والبحترى فقد نظما الشعر وتخييرا من شعر غيرهما ، فجمع أبو تمام ديوان الحماسة والنقائض بين الأخطل وجريير ، وجمع البحتري حماسته ، وأما ابن المعتز فقد تصرف في فنون من العلم العربي فاستقصى أنواعا من البديع ووضع كتباً مختلفة في الأدب ، منها ما يقصد إلى الأدب الخالص ، ومنها ما يقصد إلى الحياة العملية ولهذا الظاهرة الجديدة قيمتها ، فهي تدل على أن الشعر قد أخذ يفقد مكانته الأدبية قليلا وأخذ الشعراء يشكون في إمكان الاكتفاء به ويقصدون إلى

وقال

= لاح شبيبي فرحت أمرح فيه مرح الطرف في العذار المخلى

وتولى الشباب نار ددت ركضا في ميادين باطلي إذ تولى

إن من ساء الزمان بشئ لأحق امرئ بأن يتسلى

أن يعنوا معه بشئ آخر هو الذى يمتاز به هذا العصر ، وهو العلم ، أى أن هذه
العصر العباسى ولاسيما منذ القرن الثالث قد أصبح عصر العقل لاعصر الخيال (١)

الخطابة والنثر الفنى

فأما النثر فقد كان قليل الخطر فى العصر الأموى لا يكاد يحفل به أحد ، الا الخطابة
فقد عرفت ما كان لها من مكانة رفيعة وسلطان عظيم ، فلما كان هذا العصر الجديد
ضعف أمر الخطابة لما قدمناه من ضعف الحياة السياسية للأحزاب وفناء حرية
الأفراد والجماعات فى سلطان الدولة وتسلط العنصر الأعجمى على العنصر العربى ،
واعتماد الدولة فى الاقتناع على السيف دون اللسان ، وأخذت الخطابة تصبح شيئا نادرا
لا يلجأ اليه الا فى أيام الحفل ، التى يقصد فيها إلى اظهار جلال الخلافة وهيبة الخلفاء .
وإذ كانت الحياة العقلية قد أصبحت مظهرها يمتاز به هذا العصر عظم أمر
العلم وكثرت مجالس العلماء للدرس والمناظرة ، وأخذت هذه المجالس تقوم مقام
الاجتماعات التى كانت تظهر فيها الخطابة . وأخذت المناظرات بين الفقهاء
وزعماء الفرق تقوم مقام الخطابة ، وأخذ أصحابها يحرصون على مثل ما كان يحرص
عليه الخطباء من فصاحة اللسان وبلاغة القول والتفوق فى القدرة على الاقتناع .

وقد قلنا غير مرة ان ظهور النثر الفنى ونموه رهينان بـ برق العقل واتساع
الحضارة وانتشار الكتابة والقراءة ، وقد اجتمعت هذه الأشياء كلها للمسلمين فى

(١) أمثلة من شعره :

أهدت الى صحيفة مكتوبة أرضت بها سخط الضمير العاتب
ياليتنى ضمننت طى جوابها حتى أقبل كفى ذاك الكاتب

وقال

قلبي وثاب الى ذا وذا ليس يرى شيئا فيأباه
هميم بالحسن كما ينهني ويرحم القبيح فيهواه

وقال

ولقد قضت نغصى مآربها وقضيت غيا مرة ورشد
ونهار شيب الرأس يوقظ من قد كان فى ليل الشباب رقد

العصر الذي نحن بصددده ، فظهر النثر الفنى أيام بنى أمية ، ثم نما وتنوع وكثرت فنونه أيام بنى العباس ، فمن نثر الدواوين الذى يصدر عن الخلفاء والوزراء مصرفا لأعمال الدولة ، فى عبارة ظريفة رائعة الى هذا النثر الذى أخذ يتناول بعض الأغراض التى كان يتناولها الشعر من رغبة ورهبة وعتاب ورتاء ومدح وتهنئة ، الى غير ذلك من هذه الفنون التى تصور عواطف الأفراد وأهواء نفوسهم والأغراض التى يقصدون اليها فى حياتهم العامة والخاصة ، الى نوع آخر من النثر لا يتناول شؤون الدولة ولا أهواء الأفراد ، وانما يتناول النفس الانسانية من حيث هى مؤثرة فى الحياة ومتأثرة بها ، فهو يصفها ويبين أخلاقها ، وهو يرشدها الى الخير ويعظها أن تتورط فى الشر ، ويوضح لماسبيل الحياة العامة بما يضرب لها من مثل وما يفصل بين يديها من حكمة ، الى نوع رابع من النثر يقصد به الى التفككة والترفيه على النفس أو الى تحقيق اللذة الفنية الخالصة بتناول الموضوعات الأدبية من نقد للشعر والخطابة أو شرح لها وما يتصل بهذا كله مما تجده فى كتب الأدب .

وكما أن النثر قد نما وتنوع وكثرت فيه الفنون تنوعت مذاهب الكتاب أيضا فى أساليبه وطرائقه فمنهم من كان يقصد الى الايجاز المعجز ، ومنهم من كان يقصد الى الاطناب ، ومنهم من كان يسلك طريقا بين بين .

هذا ولم نعرض للنثر العادى الذى كان العلماء والمؤلفون يصطنعونه فى دروسهم وكتبهم العلمية الخالصة .

ولنعرض الآن لذكر طائفة من مشهورى الكتاب .

ابن المقفّع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفّع ، أحد فحول البلاغة ورؤساء الكتاب الأوائل ، وكان أبوه من أبناء الفرس الناشئين فى ولاء فصحاء العرب فقد نشأ فى بلاد خوزستان ، وهى الأهواز ، وهى ولاية كانت تكثُر فيها جمهرة الأعراب من الفاتحين والمهاجرة ، لخصب أرضها وقربها من البصرة . ولا تزال العناصر العربية غالبية على أهلها حتى الآن ، فنشأ المقفّع فى ولاء آل الأهم ، وهم بيت فصاحة ولسن وخطابة

في الجاهلية والإسلام ، فلا غرو ان نشأ المقفع وابنه مستعربين فصيحين . والمقفع واسمه دازويه نشأ مجوسيا عاملا للخراج زمن يوسف بن عمر والى العراق ، فظهرت عليه خيانة في مال الدولة ، فضربه الأمير ضربا تقفعت منه يده ، فسمى من حينئذ المقفع ، ومات على دينه ونشأ ابنه في البصرة يتكسب بصناعة أبيه نخدم في دواوين العراق آخر من بني أمية ، وجمع بين ثقافتى العرب والعجم وقد قرأ آداب الفرس والهنود وكتب الحكمة التي كانت ترجمت زمن كسرى أنوشروان من اليونانية ، بفعله كل ذلك واحد زمانه ، ولما جاءت الدولة العباسية اتصل بوالى البصرة والاهواز سليمان بن على وعيسى بن على ، عمى أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى ، وهو على دينه ، فكتب وترجم لهما وللخليفة المنصور بعض كتب الأدب وكتب الفلسفة المنقولة من اليونانية ، ثم أسلم على أيديهما . واتفق أن نخرج عبد الله بن على عم المنصور عليه ، فهزمته جيوش المنصور ففر الى أخويه سليمان وعيسى فطلبه المنصور منهما فأبيا الا ان يكتب له أمانته ، فكفهما كتابته ، فأمر ابن المقفع فتصعب في كتابة الأمان تصعبا أغضب المنصور فيقال انه أغرى به سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عمه سليمان فقتله وأخفى أمره . ويقال انه قتله لاتهامه بالزندقة والكييد للاسلام ، وكان ابن المقفع آية في البلاغة ، ورسالة القول ، وشرف الدانى ، الى حسن بيان وسهولة لفظ ورشاقة أسلوب ، ولا توصف بلاذته بأحسن مما وصف هو البلاغة به ، وقد قيل له : ما البلاغة ؟ فقال ”هى اتى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها“ .

ونصح لآخر فقال ”ياك والتبع لوحشى الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فان ذلك هو العى الأكبر“ وكان ممن يضع السير والخرافات أو يترجمها ، ومنها كتاب كيلة ودمنة أقدم كتاب أدب خيالى في اللسان العربى (١)

(١) أمثلة من رسائله :

- (أ) أما بعد فان من قضى الحوائج لآخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم فانفسه عمل لاهم ، والمعروف اذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده .
- (ب) انك ان تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا تدرك ، وكيف يتفق لك رأى المختلفين ؟ وما حاجتك الى رضا من رضاه الجور . والى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة ؟ فعليك بالتماس رضا الأخيار منهم رضى العقل ، فانك متى تصب ذلك تصعب عنك مؤونة ما سواه .

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صُول ، أحد وزراء المأمون ، وأبلغ كتاب الأيجاز . وكان جده صُول وأخوه فيروز مابكي جرجان ، وهما من الترك الذين تمجسوا وتشبهوا بالفرس ، أسلموا في زمن بني أمية ثم دخل جده سعيد بن صُول في الدعوة العباسية ، وكان من أكبر دعاة وأنصارها ، ثم صار بنوه كتابا في دواوين الدولة ، ونشأ عمرو حفيده من أشهر كتاب الدولة وأبلغها وصار كاتب التوقيع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي قال عن نفسه كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى فرفع إليه غلمانه يستريدون في روايتهم ، فرمى بها إلى وقال أجب عنها . فكتبت (قليل دائم ، خير من كثير منقطع) فضرب بيده على ظهره ، وقال أي وزير في جلدك ! ثم كتب للفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل ثم صار وزيراً للمأمون على ديوان الرسائل ، ووثق به ووكل إليه تفتيش الولايات ، وكان يستصحبه في غزواته ، وربما ولاه قيادة بعض الجيوش . ومات بأذنة في غزوة مع المأمون سنة ٢١٦ .

وكان عمرو بن مسعدة ممن يضرب به المثل في الأيجاز كما يضرب بجعفر بن يحيى ، وكأنه تعلم منه هذه الصناعة ولم يأت بعد من يقاربه فيها إلا ابن عمه إبراهيم بن العباس الصُولي (١) .

الجاحظ

هو أعجوبة الزمان ، وإحدى حجج اللسان العربي ، أبو عثمان ، عمرو الجاحظ ابن بجر بن محبوب الكنتاني ، وسُمي الجاحظ لمحوظ عينيه ، ونسبته إلى كنانة بالولاء ، فليل إن جده محبوبا كان أسود جمالا لأحد سادات بني كنانة من أهل البصرة ، وإن الجاحظ نشأ يتكسب بيديه ، فربأ بنفسه عن هذه المهانة ، وأقبل (١) ومن كلامه في شفاعته : كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، معني بمن كتب له ، ولن يضع حامله بين الثقة والعناية .

على العلم والأدب واللغة يأخذها عن أئمة البصريين ، وأدرك طبقة سيويه والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد ، وأخذ عنهم اللغة والأدب ، وأخذ عن النّظام مذهبه في علم الكلام ، وتفرد بآراء في التوحيد كونت له مذهبا خاصا به ، وتابعه طائفة من الفرق الاسلامية سموها بالجاحظية ، ولم يأت عصر المأمون حتى صار من حدّاق المؤلفين ، وبلغت كتبه المأمون فأعجب بها وأثنى عليه في حضوره ، ثم ذاع صيته حتى ملأ الدنيا ، وأصبح أديب البصرة وبغداد وسرّ من رأى .

وتقرب في زمن المعتصم والواثق من وزيرهما الجبار محمد بن عبد الملك الزيات ، فحظي عنده وكفاه مؤونة قصده غيره ، وكان يريد نظمه في سلك كتاب الدواوين فكتب بها في زمنه مدة فلم ترقه ، فعاد إلى التصنيف والتدوين حتى مات سنة ٢٥٥ ببغداد بعد أن بقي مدة مقلوجا . قيل وقعت عليه قماطر الكتب وهو ضعيف فقضت عليه . والجاحظ أول من أكثر التصنيف في الأدب وأول من أسهب القول في اللطائف والفكاهات ، وأول من وضع كتب المحاضرات الجامعة في الأدب والفنون الكثيرة ، وأول عالم عظيم جمع بين طرفي الجلد والهزل ، فكان إماما في الدين وسامرا من السمار ، وكانت له مشاركة في أكثر العلوم ، فهو راوية متكلم فيلسوف كاتب مصنف مترسل مؤرخ عالم بالحيوان والنبات والموات ، وصّاف لا حوال الناس ووجوه معاشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم ، وهو على الجملة أحد أفاض العالم وإحدى حجج اللسان العربي ، وكان على دمامة خلقه خفيفا ظريفا محببا إلى الظرفاء والأدباء .

وكان سهل العبارة طويل الاطناب إذا شاء ، كثير إيراد الجمل المترادفة ، دقيق الاستقصاء في وصف ما يريد وصفه أو يتحدث عنه ، وكان كثيرا الاستطراد في كتبه المطولة .

وأظرف ما كان يعجب الناس منه مزج الهزل بالجد ، وقد خَلَّفَ للعلم والأدب
العربي أكثر من خمسين ومائتي كتاب ، طبع منها بعض الكتب وأشهرها البيان
والتبيين ، والحيوان ، وكتاب البلاء ، ومجموع رسائله (١)

لمحة في الثقافة العلمية في هذا العصر

مراكزها : كان أهم مراكز الثقافة في هذا العصر البصرة والكوفة وبغداد في العراق ،
والمدينة في الحجاز ، والقُسْطَاط في مصر ، ونحن نذكر لك كلمة عن كل منها :

المدينة

المدينة : كانت المدينة من أعظم مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ
الهجرة ، فقد هاجر إليها النبي صلى الله عليه وسلم وعلم بها أكثر تعاليم الإسلام ،
وكانت مقام كثير من الصحابة الذين تلقوا عن النبي ورووا أحاديثه ، وكان بها
كثير من الموالى الذين أُتِيَ بهم أسرى من الممالك المفتوحة وأسلموا وتلقوا العلم من
الصحابة ، وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير القرآن ومدارسة الحديث
واستنباط الأحكام منهما ، واشتهر من علمائها زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر بن
الخطاب من الصحابة ، ثم سعيد بن المسيب وعمرو بن الزبير بن العوام من
التابعين ، ومن بعدهم كان الامام مالك بن أنس صاحب المذهب المشهور .

(١) أمثلة من كلامه :

كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات وكان قد تنكر له :
أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب
الانصاف ، وريح في قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت ، أيدك الله ، أن أكون عندك من المنسوين
إلى نرق السفهاء . ومجانبة الحكماء .

وكتب إلى احمد بن دؤاد يستعطفه .

ليس عندي ، أعزك الله ، سبب ولا أقدر على شفيح إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل
الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول ، وأرجو أن أكون من العتناء
الشاكرين ، فتكون خير معتب ، وأكون أفضل شاكر الخ .

ولم تقتصر المدينة على الشهرة في المسائل الدينية بل نبغ فيها كثير من رجال التاريخ كمحمد بن اسحق والواقدي ، وهما يعدان من أشهر المصادر الأولى للسيرة والمغازي .

البصرة والكوفة

البصرة والكوفة : وهما كما قدمنا من أشهر مدن العراق ، والعراق قطر شهر من قديم الحضارة ، تداولت عليه أمم كثيرة ممدنة وتركت فيه آثارها العلمية والفنية ، وهوالى ذلك قطر غنى خصب كثرت مياهه وخيراتاه ، وقد أسست هاتان المدينتان في عهد عمر بن الخطاب ونزل بهما كثير من الصحابة ، واختلط فيها العرب بالموالي بالتزواج والسكنى ، وأصبحتا بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العلمية ، فكان في الكوفة عبد الله بن مسعود من الصحابة ، وشريح والشعبي وسعيد بن جبيرة من التابعين ، ثم أبو حنيفة النعمان أمام المذهب المنسوب إليه ، واشتهر من علماء البصرة أبو موسى الأشعري وأسس بن مالك من الصحابة ، ثم الحسن البصري وابن سيرين من التابعين ، واشتهرت هاتان المدينتان أيضا بالنبوغ في علوم النحو واللغة ، وتفوقت البصرة في ذلك ، فكان من علماءها أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن احمد والأصمعي ، واشتهر من الكوفيين الكسائي ، وكان بين المدينتين تنافس في اللغة والأدب والصرف وعلم الكلام ، ولكل علماء يتعصبون لمذهبهم وينصرونه بحججهم ، وكان الكوفيون ، على الجملة ، أكثر استعمالا للقياس ، والبصريون أكثر إثارا للسمع .

بغداد

بغداد : وهي مدينة بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ ، وجعلها مقر الخلافة الاسلامية ، فأتمها العلماء والأدباء من كل صقع على اختلاف ملهم ونحلهم وثقافتهم ولغاتهم ، وأصبحت ، بعد قليل ، أهم مركز للحركة الفكرية في المملكة الاسلامية ، وتفوقت في كل ناحية من نواحي العلم الدينية واللغوية

والأدبية والفلسفية ، وكان أكبر الفضل في ذلك لأبي جعفر المنصور ثم هارون الرشيد ، حتى إذا جاء المأمون خطأ في ذلك خطوات واسعة ، فأنشأ بيت الحكمة وجعل على رأسه سهل بن هارون ويحيى بن ماسويه ، وكان لهذا البيت أثر كبير في نشر العلوم ، إذ كان مجتمع النساخ والكتّاب والعلماء .

الفُسْطَاط

الفسطاط : كانت مدينة الفسطاط في مصر في مقدمة المدن الإسلامية التي أزهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية ، وأول من اشتهر بها من العلماء عبد الله ابن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة ، ثم عبد الله بن طيبة وهو من أكبر المصادر الذين يروى عنهم كثير من الأحداث التاريخية في فتح العرب لمصر ، ثم الليث بن سعد أحد الأئمة الذين يُقرنون بمالك وأبي حنيفة لولا أن تلاميذه أضاعوا مذهبه ، ثم نزل بها الامام الشافعي ودرس فيها ووضع مذهبه الجديد .

التدوين والتأليف

التدوين

لم يكن تدوين الكتب وتأليفها أمرا فاشيا في العهد الأموي كما قدمنا ، وأكثر ما روى عن التأليف في هذا العصر كان من قبيل الروايات لا من قبيل ما نعهده الآن في التأليف ، فكان الرجل اذا سمع حديثا كتبه ، وكذلك اذا سمع قطعة من الشعر أو خبرا من الأخبار ، وقد يجمعون هذه الأحاديث بعضها الى بعض ويسمون ذلك كتابا ، وكذلك يفعلون بما سمعوا من الأخبار ، وكانوا يبدهون رواية الخبر أو الحديث بذكر من روى عنهم الخبر ، حتى يتصل سند الرواية بنا قل الخبر ، فأما التأليف بالمعنى الذي نفهمه من أن تكون للكتاب وحدة يريد المؤلف وتوضع أبواب وفصول لموضوعاته ونحو ذلك فكان نادرا في الدولة الأموية ، إنماكثر هذا النوع في العهد العباسي الأول فوضعت الكتب في المواضيع الدينية والأدبية والتاريخية ، وترجمت من اللغات الأجنبية ولا سيما اليونانية ، ولتكم كلمة عن الأنواع المشهورة منها .

(١) التدوين في الأدب

بدأ التأليف في الأدب في هذا العصر ، على ما يظهر ، بتأليف رسائل صغيرة في الأخلاق كالذي نراه لابن المقفع في كتابه الدرّة اليمّة والأدب الصغير ، وكذلك في اللغة ، كما فعل الأصمعي في كتاب الخليل وكتاب الإبل ، وكتاب الشاء وكتاب فَعَلَّ وَأَفَعَلَ وَكَتَابَ الْأَنْوَاءَ .

ثم أتت الطبقة التي تلي هؤلاء فألفت الكتب المطوّلة الجامعة التي تشمل مواضيع مختلفة ، وكان على رأس المؤلفين في الأدب الجاحظ ثم المبرد وابن قتيبة .

الجاحظ

فأما الجاحظ فقد قرأت ترجمته قبل ، ولكنا نتعرض الآن لكلمة في تأليفه : كان الجاحظ من أكثر الناس اطلاعا ، وأوسعهم علما ، حتى نستطيع أن نعرف ما وصل إليه العلم في ذلك العصر في كل ناحية من نواحيه من كتب الجاحظ ، وأشهر كتبه : كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان . فأما كتابه الأول فيعد من أصول كتب الأدب ، لم يسبق ، فيما نعلم ، الى مثله ، وجميع من ألف بعده من الأدباء كالمبرد وابن قتيبة يعتمد عليه ويقتبس منه ، وهذا الكتاب مزيج من الحكمة واللغة والشعر والخطابة ، يمزج فيه الهزل بالجد ، وينقل عن الفرس والروم والهند ، ويذكر عادات الناس وأحوالهم وطرق معاشهم ، ولكن الكتاب مملوء بالعيوب اذا نظر اليه من الناحية الفنية في التأليف ، فهو كثير الاستطراد ، تدخل فيه من باب فيسلمك الى باب آخر لأدنى مناسبة ، لم يوّب ولم يفصل في دقة ، ولم يجمع فيه ما يتعلق بالموضوع الواحد في مكان واحد ، شأن كل من يعالج موضوعا في أول أمره ، وهذه العيوب أثرت في المؤلفين بعده كالمبرد وابن قتيبة فكان لهم منها حظ غير قليل .

وأما كتابه الحيوان ، فقد تكلم فيه كما يدل اسمه ، في الحيوان وأنواعه ، ومزج فيه الأدب بعلم الحيوان ، وجمع فيه ما عرفه العرب عن الحيوان وما عرفه اليونان والفرس ، وهو من أغنى الكتب وأوسعها مادة لمن يريد دراسة معارف الناس في ذلك العصر ، ولكن فيه من العيوب ما أشرنا اليه من قبل .

المبرد

أما المبرد فهو أبو العباس محمد بن يزيد عربي الأصل من بني ثماله ولد بالبصرة سنة ٢١٠هـ ثم نزل بغداد، وكان من أئمة العربية في عصره، حسن المحاضرة فصيح اللسان، واسع العلم بالأخبار والنوادر، ومات سنة ٢٨٦ ببغداد، وأشهر كتبه كتاب الكامل، وهو كتاب في الأدب يذكر الحكمة المختارة أو الخطبة أو القطعة الشعرية ويشرحها، وقد تعرض في أثناء الشرح كلمة فيتعرض لها، ويختلف عن "البيان والتبيين" بقلة الاستطراد، وأنه لا يتعرض لعادات الناس وشؤونهم الاجتماعية إلا قليلا، قد قسم إلى أبواب، ولكن يصعب أن تتبين في كثير من الأحيان الفرق بين باب وباب إلا من ناحية أن هذه طائفة من المختارات وهذه طائفة أخرى، كذلك يمتاز عن البيان والتبيين بأن الكامل كثير التعرض للنواحي النحوية والصرفية فيما يختار، وأول من طبعه الأستاذ "ريت" وقد صرف فيه سنين عدة في ضبطه وتصحيحه ثم طبع بعد في مصر على نهج الطبعة الأولى.

ابن قتيبة

أما ابن قتيبة فهو أبو عبد الله محمد بن مسلم المروزي الدِّينَوْرِيّ ولد سنة ٢١٣ بالكوفة، وتولى القضاء بدينور، ثم أخذ يعلم في بغداد وتوفي بها سنة ٢٦٧ وكان جم المعارف واسع الاطلاع، ألف في الحديث وألف في الأدب، وألف في اللغة، وألف في التاريخ، وأشهر كتبه "أدب الكاتب" أبان فيه ما يجب على الكاتب أن يعرفه، وكتاب "عيون الأخبار" ذكر فيه كثيرا من المختارات الأدبية واقتبس منه كثيرا ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد، وفيه خطأ ابن قتيبة خطأ نحو الترتيب والتبويب، وجمع ما يتعلق بموضوع واحد في موضع واحد، وقد طبع بعضه في أوروبا وطبع جزءان منه في دار الكتب المصرية، وله كتاب طبقات الشعراء، أو الشعر والشعراء ترجم فيه لمشهورى الشعراء وذكر طرفا من أشعارهم.

(ب) علوم اللغة

النحو

كان من أثر امتزاج العرب بالأعاجم ومخالطتهم بالسكنى والتزواج أن فسدت ملكة اللسان العربي وكثر اللحن ، فعمد العلماء الى وضع قواعد النحو لضبط أواخر الكلمات . وقد ذكروا أن أول من وضع بعض قواعده أبو الأسود الدؤلى ، ثم تبعه العلماء يزيدون قواعده ويضبطونها ، وكان أسبق الناس اشتغالا به البصريون ثم أخذ منهم الكوفيون وخالفوهم في بعض مسائله ، وكان البصريون أصح رواية وأكثر تحرياً ، ولكن العباسيين نصروا الكوفيين سياسة ، ونذب الرشيد رئيس الكوفيين وهو الكسائى لتعليم ولديه الأمين والمأمون ، واشتد الخلاف بين المذهبيين مذهب البصريين والكوفيين وألفت في هذا الخلاف الكتب ، وقد نشأ بعد مذهب منتخب من المذهبيين هو مذهب البغداديين .

اللغة

كذلك أصبح الناس في حاجة الى كتب تبين معانى المفردات اللغوية بعد أن هجر الناس جزيرة العرب وأقاموا في المدن بعيدا عن البادية ، فكان العلماء يرحلون إلى البادية يسمعون من أهلها ويقيّدون ما يسمعون ، ويرحل أهل البادية إلى المدن يأخذ عنهم علمائها ، وأخذ العلماء يقيّدون الكلمات التي تتصل بشيء واحد في رسائل فيذكرون ما يتعلق بالكروم وما يتعلق بالأشجار ، فلما جاء الخليل ابن أحمد ابتكر طريقة المعجم فأحصى المفردات الثنائية والثلاثية وهكذا ورتبها على حسب مخارج الحروف ، بفعل ما يبدأ بالحروف الحلقية أولا ، وبدأ بالكلمات المبدوءة بالعين ، ومن أجل هذا سمي كتابه العين . وكثير من العلماء يشك في نسبة هذا الكتاب اليه ويقول إنه من وضع تلاميذه ، وقد عثر على نسخة من كتاب العين في العراق ، ثم تتابع بعد ذلك وضع المعاجم على طرق مختلفة .

الخليل بن أحمد

والخليل بن أحمد عربي الأصل أزدى ، من علماء البصرة ، وكان من أمهر العلماء في استعمال القياس واستخراج مسائل النحو وتعليقه ، زهد في الدنيا وقنع بالقليل ورأى لذة العلم فوق كل شيء ، وكان ذا عقل مبتكر ، على قلة العقول المبتكرة ، فهو أول من وضع فكرة حصر الكلمات العربية في معجم ، وأول من حصر أوزان الشعر في بحور ، ومن تلاميذه سيبويه والأصمعي والنضر بن شميل ، وكثير من آرائه في النحو أخذها عنه سيبويه وأدججها في كتابه ، ومات سنة ١٦٠ هـ في رواية وسنة ١٧٠ في رواية أخرى .

سيبويه

وسيبويه هو عمر بن عثمان من أصل فارسي ، وهو إمام علماء البصرة ، كان تلميذاً للخليل وأخذ عنه كثيراً من علمه ووضع في كتابه المعروف — كما قدمنا — وافته في هذا الكتاب لغة راقية ، ولكنه لم يكن فصيحاً في قوله فصاحته في كتابته ، ويذكرون أنه وفد الى بغداد وقصد البرامكة وأنهم جمعوا بينه وبين الكسائي في مناظرة خذل فيها سيبويه فرجع ومضى الى بعض مدن فارس فمات هناك وهو كهل سنة ١٧٧

الكسائي

أما الكسائي علي بن حمزة فهو امام الكوفيين ، وكان من أصل فارسي كذلك ، وقد خرج الى البادية وسمع من فصحاءها ، وكتب ما سمع وأخذ عن الخليل بن أحمد واستقدمه المهدي ثم اختاره الرشيد لتعليم الأمين والمأمون كما ذكرنا ، وألف كتباً كثيرة في النحو واللغة ، وهو أحد القراء السبعة ومات سنة ١٨٩ هـ .

(ج) التاريخ والحكايات

ابتدأ التاريخ ، على ما يظهر ، بالحديث ، فقد جمعت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه والحوادث التي وقعت في أيامه وأيام صحابته في شكل ما يروى من الحديث ، ومن أشهر المؤلفين في ذلك ابن اسحق والواقدي وابن سعد .

ثم توسعوا فكتبوا في تاريخ فتوح البلدان كما فعل "البلاذري" وكتبوا في الأنساب كما فعل البلاذري أيضا في كتابه "أنساب الأشراف" ثم لما وقفوا على تواريخ الأمم كتبوا في التاريخ العام ، وأشهر المؤلفين في هذا النوع يعقوب بن محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ فقد كتب تاريخه الكبير، ورتبه على حسب السنين ، فيذكر في كل سنة ما وقع فيها من فتن وفتوح وأحداث ، ثم ينتقل الى السنة التي تليها وهكذا ، وقد سلك هذا المسلك في التأليف ابن الأثير من بعده ، واشتهر في هذا العصر من المؤرخين أيضا المسعودي المتوفى سنة ٣٨٥ وأشهر كتبه كتاب "مروج الذهب" ولم يرتبه على حسب السنين كما فعل الطبري وإنما يذكر الحوادث تحت عنوان الخليفة التي وقعت الحوادث في أيامه .

والأمة العربية لم تُعن بالقصص عنايتها بالتاريخ ، ولم يكن لها الخيال الواسع في وضع القصص ، ولذلك ماروى عن العرب منها قليل بالنسبة لما روى عن الأمم الأخرى ، فلما جاءت الدولة العباسية واصطبغت الدولة بالصبغة الفارسية كثر القصص فنقل ابن المقفع كلبلة ودمنة أو ألفه وقد نظمه أبان اللاحق وابن الهبّارية ، ووضع سهل بن هرون الفارسي كتابا على نمطه سماه "ثعلبة وعفرة" لم يصل اليينا ولكن نقلت منه فقر في كتاب زهر الآداب للحصري ، وترجم كتاب "هزار افسانه" ومعناه ألف خرافة وهو أصل للكتاب المشهور "ألف ليلة وليلة".

(د) العلوم الدينية

كان حظ العلوم الدينية في هذا العصر عظيماً ، فأقبل الناس على القرآن يتدارسونه ويعنون بتفسيره ، وأشهر المفسرين في ذلك العصر ابن جرير الطبري ، فقد ألف كتاباً في التفسير في ثلاثين جزءاً ، وطريقته فيه أن يذكر الآية الكريمة ، ويتبعها بما روى عن الصحابة والتابعين من تفسيرها ، ويذكر الأقوال المختلفة فيها ثم يرجح أحد الآراء ، ولا يزال كتابه من أكبر المراجع في التفسير الى اليوم ، وعليه اعتمد من أتى بعده من المفسرين .

الحديث

كذلك الشأن في الحديث ، فقد رَوَّع العلماء في ذلك العصر ما رأوا من جرأة بعض الناس على وضع الحديث ونسبته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا على الأحاديث يمتحنون صحتها ، وينتقدون رجالها ، ويجمعون ما صح منها ، وكان من أسبق الناس تأليفاً في الحديث الامام مالك فقد جمع كتابه "الموطأ" ورتبه على حسب أبواب الفقه ، ثم جاء محمد بن اسماعيل البخاري بفرد في جمع الأحاديث وفحصها ونقدها ، وطوّف في الآفاق يروي عن علماءها ، ويسمع من محدثيها ، حتى جمع كتابه المعروف بصحيح البخاري في ست عشرة سنة . وصحيحه يشتمل على تسعة آلاف حديث منها ثلاثة آلاف مكررة . وقد توفي البخاري سنة ٢٥٦ هـ .

وكان يعاصره مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، فرحل الى الحجاز والعراق والشام ومصر وسمع من علماءها ، وجمع كتابه المعروف بصحيح مسلم وقد قال انه اختار كتابه من ثلثمائة ألف حديث .

ويعد هذان الكتابان (صحيح البخاري ومسلم) أصح ما ألف في الحديث الى اليوم .

الفقه

يراد بالفقه استخراج الأحكام من القرآن والحديث . وقد كانت الحوادث تكثر وتختلف باتساع العمران وكثرة الفتوح ، فكانت تعرض مسائل لم تكن معروفة من قبل ، يحتاج فيها الناس لمعرفة أحكامها ، فكان المجتهدون يستخرجون هذه الأحكام مما ورد في كتاب الله أو سنة رسوله أو بالقياس عليهما ، وقد اختلف المجتهدون وانقسموا قسمين عظيمين : أهل الرأي والقياس ، وأهل الحديث ، فالأولون كانوا يشترطون شروطا دقيقة للعمل بالحديث ، ويتوسعون في استعمال القياس عند ما لا يصح عندهم نص من كتاب ولا سنة ، وقد غلبت هذه الطريقة في العراق لقلة الحديث هناك مع كثرة الأحداث ، وامام هذه الطريقة أبو حنيفة النعمان ، والآخرون كان الحديث عندهم وافرا فكانوا يقدمون الحديث ولو لم تتوافر فيه شروط خاصة على القياس والرأي . وغلب هذا المذهب على أهل الحجاز ، وإمام هذه الطريقة مالك بن أنس ، وقد كثرت المجتهدون في هذا العصر والذي قبله كالإمام ابن سعد في مصر ، والأوزاعي في الشام ، ولكن ذهب هذه المذاهب ولم يشتهر منها الا المذاهب الأربعة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل .

الامام أبو حنيفة

فأما أبو حنيفة فهو النعمان بن ثابت فارسي الأصل ولد سنة ٨٠ هـ ونشأ بالكوفة وأخذ العلم عن علماءها ، وكان إمام أهل الرأي كما ذكرنا ، وقد أريد على القضاء فأبى زهدا وتورعا ، ولم يصل اليه شيء من كتبه في الفقه ، وإنما وصلت اليه كتب تلاميذه ولا سيما أبي يوسف ومحمد ، ويلقبان عادة بالصاحبين ، أى صاحبي أبي حنيفة ، وقد مات أبو حنيفة سنة ١٥٠ هـ وقد انتشر مذهبه في العراق .

مالك

وأما مالك بن أنس فقد ولد سنة ٥٦ هـ من أصل عربي بالمدينة وبها تعلم ، ويمتاز مذهبه عن مذهب أبي حنيفة بكثرة اعتماده على الحديث كما أسلفنا ، وتوفي سنة ١٧٩ هـ وأشهر كتبه التي وصلت اليها كتاب الموطأ ، وقد انتشر مذهبه في المغرب والأندلس والحجاز .

الشافعي

والشافعي هو محمد بن ادريس ، عربي ، قرشي ، ولد بغزة بالشام ثم رحل الى مالک وأخذ عنه العلم ، ثم وفد الى بغداد ولقي علماءها ، ثم جاء مصر سنة ١٩٩ هـ فأقام بها وسكن الفسطاط وأملى مذهبه وبها توفي ودفن في مدفنه المعروف سنة ٢٠٤

أحمد بن حنبل

وأحمد بن حنبل عربي الأصل كذلك من شيبان ، ولد ببغداد ونشأ بها وطلب الحديث وأكثر من روايته ، وهو أكثر الأئمة استنادا إلى الحديث ، وقد عُدَّ عذابا شديدا في فتنه خلق القرآن ، ومات سنة ٢٤١ ببغداد .

(هـ) الترجمة

مصادرها

لما اتسعت الدولة الاسلامية واختلط العرب بغيرهم ورأوا آثار الأمم الأخرى من علم وحضارة تطلعت نفوس الخلفاء الى أن يكون للأمة العربية نصيب وفيه من علوم الأمم الأخرى وفنونها ، وكان قد التجأ الى بغداد في هذا العصر العلماء الأعاجم فقرّبهم الخلفاء وأغدقوا عليهم الأرزاق واستعانوا بهم في ترجمة الكتب من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها .

وأول من عمّل على نشر الثقافة الأجنبية في الدولة العباسية الخليفة أبو جعفر المنصور ، فقد كان عالما فقيها يميل الى النظر في التجوم وما اليها . فدعا اليه جماعة من علماء الطب والرياضيات والفلسفة ، فترجموا له كتبها . ويعد عصره أساسا لهذه النهضة العلمية التي أتم بناءها من جاء بعده من الخلفاء ولاسيما المأمون ، فقد أرسل طائفة من العلماء الى بلاد الروم فجاءوا بكثير من غرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب ، وغصّ بيت الحكمة في بغداد بالعلماء في كل علم وفن ، فنققت في أيامه سوق العلم والأدب ، وكثر الباحثون ، واشتهر في عصره كثير من المؤلفين والمترجمين ، ووضعت المصطلحات ، وعرب كثير من الألفاظ الأعجمية حتى أصبحت العربية تضارع غيرها من اللغات في العلوم العقلية .

وقد نقل الى العربية في هذا العصر مئات من الكتب في الفلسفة والمنطق والطب والتجوم والرياضيات والسياسة والقصص والأسمار وغيرها ، ومن أشهر المترجمين ابن البَطرِيق والمجَاج بن مطر وحنين بن اسحق وجرجس بن بختيشوع وثابت بن قرة .

وقد أقبل المسلمون على الكتب والترجمة يتفهمونها ويشرحونها ولم يعض على ذلك الا قليل حتى ظهر في المسلمين أنفسهم فلاسفة أولهم وأشهرهم يعقوب ابن اسحاق الكِندي ، وهكذا أعقب دور الترجمة دور التأليف .

العصر العباسي الثاني

نشأة الأوطان السياسية وأثرها في ظهور آداب قومية

لما ضعف الخلفاء العباسيون عن تولى شؤون الخلافة بأنفسهم لاغتصاب ممالكهم الترك السلطة من أيديهم اختل نظام الملك ، وكثرت الفتن والثورات ، واستقل كل حاكم بالبلاد التي يحكمها ، وكان بعض هؤلاء الحكام من أبناء الأكرسة^(١) مثل الدولة السامانية في خراسان والبويهية في فارس . واستقل بعض أمراء العرب بالجزيرة والشام كبنى حمدان بالموصل وحلب . ووجد العلويون أن الفرصة سانحة لتحقيق أميتهم وهي انتزاع الخلافة الاسلامية من أيدي العباسيين فأسسوا دولةً عدة أهمها الدولة الفاطمية التي امتدت مملكتها من المحيط الأطلنطي الى حدود نجد والفرات . ولم يستغن جميع هذه الممالك والإمارات التي تشعبت من الدولة العباسية فارسية أو غير فارسية عن اتخاذ العربية الفصيحة في هذا العصر لغة رسمية في التعبد والتعليم والسياسية ، الا أن هذه اللغة أخذت تصطبغ بعد قليل بصبغة قومية في بعض أحوالها وهذه الصبغة هي التي نريد أن نبينها بايجاز في كل صقع من الأصقاع .

(١) قد حاول بعض هؤلاء الحكام إحياء دولة الفرس القديمة ولقبتها وأدبها فنجحوا بعض النجاح في نظم الشعر وبعض الآداب بالفارسية ولم ينجحوا في استعمالها في تعليم العلوم وخاصة الشرعية منها الا بعد سقوط الدولة العباسية .

الأدب العربي في الشرق

العراق وفارس وخراسان في القرنين الرابع والخامس

فتح العرب بلاد الفرس ، وكانت أمة الفرس ذات حضارة راقية ولغة متينة وعصبية قومية ، فاستطاعوا أن ينسخوا دينهم "المجوسية" ولكنهم لم يستطيعوا أن ينسخوا عصبيتهم للجنس والوطن ، ولذلك كان الفرس يشورون لاستعادة ملكهم مرة بعد أخرى الى أن تحققت لهم أمنيته في القرن الرابع ، وشرعوا في انشاء آداب جديدة بلغتهم الفارسية الحديثة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوها لغة دامة للعلم والتعليم والاشتراع والسياسة الا بعد انقضاء هذا العصر الذي تتكلم فيه كما قدمنا ، لخلو الفارسية الحديثة من الاصطلاحات ، ولذلك بقيت العربية الفصيحة صاحبة السيادة والنفوذ في جميع الممالك الشرقية ، التي اشتقت من الدولة العباسية ، يبذل كل ملك من ملوكها وأمراءها جهده في ترغيب العلماء والأدباء والكتاب والشعراء والمهندسين والأطباء وكل ذى احسان في صناعته في الاقامة عنده تأييداً لدولته وزينا للملكة .

فبقيت سوق الأدب العربي والعلم رائجة في هذه الممالك أكثر من قرنين ، ثم اضمحلت بالتدريج بتغاب النزعات القومية وانقراض العلماء والأدباء الذين كانت تربيتهم للغوية العربية متأثرة ومطبوعة بطابع الدولة العباسية العربية ، حتى خرج التتار في أواسط القرن السابع الهجري فاكتسحوهم جميعاً وخرّبوا بلادهم وقتلوا علماءهم وبددوا كتبهم نَحَمَدَتْ بعد ذلك اللغة العربية في أواسط آسيا نحوياً لم تنعش بعده ، وان بقيت منها آثاراً على أسنة بعض علماءها وفلاسفتها الى الآن .

الشعر والشعراء في المشرق (١)

عاش كثير من الشعراء في ظلال هذه الممالك الشرقية يتكسبون بالكتابة في دواوينها أو بمدح ملوكها ومنادمتهم أو املاء الأدب واللغة في مدارسها ، وكثير منهم كان يتنقل من مملكة الى أخرى ، ولم يكن شعرهم العربي أرقى شعر في زمانهم

(١) يراد بالمشرق هنا بلاد العراق وفارس وخراسان الى حدود الصين والهند ويدخل في ذلك بلاد التركستان .

لمكان بيئتهم الأعجمية ، بل كان يفضلهم شعراء الجزيرة والشام ومصر والأندلس
لكثرة العناصر العربية في هذه الممالك . ومع ذلك سلكوا في الشعر مسلك
المتقدمين في أغراضهم من الغزل والمديح والرثاء والوصف والفتخر مع ضعف قليل
في البلاغة واحتراع المعاني ، إلا أن تنوع الحياة الاجتماعية في هذا العصر في بابي الهزل
والجد وانتشار مذاهب الفلاسفة وطرق الصوفية أحدثت في فنون الشعر وأغراضه
في الشرق شيئاً جديداً : كالشعر التهكمي المضحك الذي نشأ في بغداد على لسان
ابن سكرة وابن حجاج ثم شرق وغرب ، وكانت منزلة هذا الشعر منزلة المجالات الهزلية
والتمثيل الهزلي في زماننا ^(١) . وكالشعر الفلسفي الذي يشرح أو يشير إلى بعض الحقائق

(١) ابن سكرة الهاشمي هو أبو الحسن محمد ، كان يعيش ببغداد في القرن الرابع ، وكان من فحول
شعرائها لولا كثرة مجونه وإقذاعه إلى حد لا يمكننا معه التمثيل هنا بشيء من شعره هذا . ومن المقبول من
هزلياته قوله وقد نزلت به نزلة في حلقه :

قلت للزلة حل وانزلى غير لهاقي
واتركي حلق بحق فهو دهليز حياتي

وقوله في هجاء بخيل :

تجشأت في وجه بوابه ليعرف شعبي فلا أمتع
وقلت له إن بي تخمة فهل من دواء لها ينفع
فقال لقد غزني معشر بهذا الحديث الذي أسمع
فلها نذرت بهم صاحبي ولاحت موائده أسرعوا
فراحوا بطانا ذوى كظفة وأقبلت من أجلهم أصقع

وابن حجاج هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج كان معاصراً لابن سكرة يتناقضان ويتهاجيان
وكان يقال ببغداد إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخى جداً ، وكان أشد الخاشا من ابن سكرة في
ذكر الأقدار وبذى الكلام . ومن قوله في رجل يسمى أبا الحسين كان معه في دار بخيل فالتمس أبو الحسين
من البخيل العشاء بعد الغداء فقال ابن الحجاج :

يا كلب الضرس ما يدأوى ضرسك إلا بكلبتين
وبلك قل لي جنت حتى تلتمس الخبز مرتين
في دار من خبزه عليه ألف رقيب وألف عن

الفلسفية كأحوال الروح وحركة الاجرام السماوية وغيرهما كما في شعر ابن سينا والرازي وابن التلميذ الطيب^(١) وكالشعر الصوفي الرمزي ومنشؤه الشرق والعراق ، ثم غرّب الى الشام ومصر كما في شعر الحلاج والشبلي والقشيري^(٢) وحدث أيضا ان هجر الشعراء استعمال الغريب من اللفظ والعويص من الأسلوب ، ولم ينزهوا شعرهم عن استعمال الكثير من الألفاظ الأعجمية^(٣) والاصطلاحات الفنية وزادوا على أهل الماضي في استعمال المحسنات البديعية وألفاظ المجون والسخف وأسماء المعيبات والأقذار لغلبة هذا النوع على شعر الكثير من خُعاء بغداد .

وكان أكثر المعاني المخترعة في شعر المشاركة تقع في الهزل اذ كانوا هم فاتحى بابه ، ولكن الفحول من شعرائهم ألموا بكثير من المعاني الشريفة والأخيلة الرائعة كالشريف الرضى ومهيار الديلمي وكلاهما من أهل بغداد ، وكان شعر أهلها وأهل العراق عامة أرق أسلوباً وأفصح لفظاً من شعر أهل فارس وخراسان .

الشريف الرضى

عاش الشريف الرضى في بغداد وكان أبوه نقيب أشرافها فنشأ نشأة راقية في العلم والأدب ، ونبغ نبوغاً استحق به أن يسمى شاعر قرين ، ويغلب على شعره الفخر والنسب على طريقة المتقدمين في لفظ جزل ومعنى فخم ، وجمع خطب

(١) وذلك كقول أبي بكر الرازي الكيميائي الطيب المتوفى سنة ٣١١

لعمري ما أدرى وقد أذن البلى
بعاجل ترحالى الى أين ترحالى
وأين محل الروح بعد خروجه
من الهيكل المنحل والجسد البالى

(٢) وذلك كقول الشبلي أبي بكر دلف الزاهد الصوفي المتوفى سنة ٣٣٤

على بعدك لا يصير من عادته القرب
ولا يقوى على هجر ك من تيمه الحب
فان لم ترك العين فقد يبصر ك القلب

(٣) وذلك كقول البديع الاصلرلابي وكان يعيش في أواخر القرن الخامس .

وذى هيئة يزهو بخال مهندس أموت به في كل وقت وأبعث
محيط بأوصاف الملاحه وجهه كأن به أقلبس ينحدث
فعارضه خط استواء وخاله به نقطة وانخذ شكل مثلث

جده الامام علي رضي الله عنه في كتابه المشهور (نهج البلاغة) غير مدقق في صحة رواية بعض خطبه ، وتولى نقابة الأشراف ، ثم عزله الخليفة عنها لاتهامه بالميل إلى الفاطميين خلفاء مصر ، وتوفي سنة ٤٠٦ هـ ، وله ديوان مطبوع .

مهيار

أما مهيار بن مرزويه فكان دياليميا مجوسيا يتكسب بالكتابة في ديوان البويهيين المستولين على بغداد ، ثم صاحب الشريف الرضي فأسلم على يديه وتخرج عليه في الشعر وحكاياه في أسلوبه وربما رق عنه في بعض الأحيان ^(١) وتوفي سنة ٤٢٨ هـ وله ديوان مطبوع .

النثر الفني

أو كتابة الترسل والانشاء

ولما كان هذا النوع من النثر من نحو الرسائل والمقامات وال اخبار والقصص والسير مثارا للخيال ومظهراً لحركات الوجدان والشعور وإظهار التفوق في براعة القول والحذق في الصناعة اللفظية اصطبح في القرن الرابع وما بعده من القرون بصيغة يغلب فيها تفضيل جانب اللفظ على جانب المعنى ، فالتزم فيها السجع القصير الفقرات غالباً ، واستعملت الأساليب الشعرية وعُني بالانكسار من الأخيالة والتشبيهات والاستعارات البديعة ، وقبّلت المعاني المخترعة فاضطر الكاتب إلى حل كثير من أبيات الشعر ذوات المعاني الجميلة وإلى الاقتباس من

(١) كقوله في الفخر :

أم سجد فضت تسأل بي	أمجبت بي بين نادي قومها
سرها ما علمت من خلقي	فأرادت عليها ما حسبي
لا تخالي نسبا يخفضني	أنا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتي	ومشوا فوق رموس الحقب
عمموا بالشمس هاما تمهم	وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبي كسرى علا اوانه	أين في الناس أب مثل أبي
قد قبست المجد من خير أب	وقبست الدين من خير أبي
وضممت الفخر من أطرافه	سودد الفرس ودين العرب

Handwritten signature or mark

القرآن والحديث والأمثال لفظاً ومعنى حتى سمي الأدباء هذا النوع بالشعر المشهور^(١) وأول من أشاع هذه الطريقة ابن العميد (وزير آل بويه) وشابهه كثير ممن عاصره أو جاء بعده ، وأعظم نموذج لها مقامات الحريري ، وكان ابن العميد هذا رأس كتاب المشرق ، وفارس حلبهم ، ومع أنه إمام طريقة الشعر المشهور لم تحط كتابته في البلاغة كما انحطت كتابة تابعيه في طريقته من المتأخرين ، حتى لقد كان يقال فيه بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وتوفي سنة ٣٦٠ وتخرج على يده الوزير الكاتب المشهور الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ وكان يلتزم السجع أكثر من ابن العميد ، وتولع بالجناس ، ومن أشهر كتاب هذه الطريقة بديع الزمان ، وله ديوان شعر وديوان مقامات وديوان رسائل وكلها مطبوعة ، والخوازمي ، وله ديوان رسائل مطبوع ، والصابي وله ديوان رسائل طبع منها الجزء الأول ، والحريري وله المقامات المشهورة طبعت بأشكال مختلفة وشرحت شروحاً عدة .

التدوين والتصنيف في المشرق

بقيت حركة التأليف بالمشرق في هذا العصر في تقدم وارتقاء في العلوم اللسانية والشرعية والفلسفية التي وضعت أو ترجمت في العصر الماضي ، وتنوعت أشكال المؤلفات فيها جميعها من مبسوطات ومختصرات ووسائط بينهما : لما قدمنا من تنافس الملوك في تزيين ممالكهم وتأبيدها بالعلوم والصناعات .

ففي العلوم اللسانية شرحت أمهات كتب النحو وأكملت قواعده وعللت أحكامه ، والسيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ وابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ ونظرأئهم عظيم الفضل في ذلك ، وكذلك وضعت أمهات كتب

(١) كقول ابن العميد : من أسر داه ، وستر ظمائه ، بعد عليه أن يبيل من غلله ، ويبل من علله . وكقول أبي بكر الخوارزمي : الرجال حصون بينها الاحسان ، ويهدمها الحرمان ، وانه لا مال إلا بالرجال ولا صالح إلا بعد قتال . وكقول بديع الزمان : أنت ولدي ما دمت والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، فان قصرت ، ولا إخالك ، فغبري خالك .

البلاغة ، وفصلت أبوابها ، وتنوعت قواعدها ، في مثل كتابي دلائل الإعجاز
وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ ، ثم زاد قواعدها وعلل
أحكامها بعيده هذا العصر السكّاني المتوفى سنة ٦٢٦ ، وفي الأدب وضع كتاب الأغاني
العظيم لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ في إحدى وعشرين مجلدة ، ووضعت
كتب أخرى في الأدب ممزوجة بالبلاغة . وظهرت كتب عدّة في الأسمار
والخرافات وسير الأبطال من الشجعان ، ومنها كتاب ألف ليلة وليلة ، وأصله
بالفارسية زيدت عليه على طول الزمن حكايات عربية عراقية وشامية ومصرية ،
وفي متن اللغة وضعت أفضل المعجمات المرتبة المهذبة ككتاب الجمهرة لابن دريد
المتوفى سنة ٣٢١ وكتاب التهذيب للأزهري المتوفى سنة ٣٧٠ وكتاب الصحاح
للجوهري المتوفى سنة ٤٠٠ .

وفي العلوم الشرعية وضع الكثير من أمهات الكتب في علم تفسير القرآن وشرحت
كتب السنة النبوية الجامعة وأكملت قواعد علم أصول الفقه وفصلت فروعه ووضع
في علم التوحيد مذهب الأشاعرة وضعه أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ .

وفي العلوم الفلسفية هذبت كتب المترجمين الأولين وشرح غامضها ، وملك
كثير من فلاسفة المسلمين ناصيتها ، فأصبح لهم فيها آراء ناضجة وبعضها صبغ
بصبغة إسلامية ، كباحث علم الكلام وبعض فروع الفلك من الميقات والتقويم ،
ومثل علم الحساب والجبر والكيمياء العملي والطب وغيرها . ومنهم من زيد الفضل
في ذلك أبو نصر محمد الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ ، وأبو علي الحسين بن سينا المتوفى
سنة ٤٢٨ وأبو بكر الرازي الكيمياء الطيب المتوفى سنة ٣٢٠ . وظهر كثير من
كتب الصوفية ومن أشهرهم الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ . وسلك ذلك السبيل في التقدم
كثير من الفنون الاجتماعية كفن التاريخ وتدير الملك والمنزل والأخلاق وغير ذلك .

الخلاصة

فيري مما تقدم أن اللغة العربية تعهقرت في المشرق شعراً وكتابةً ، وارتقت
في العلوم بأنواعها تدريسا وتأليفاً .

الأدب في مصر والشام

زمن الفاطميين والأيوبيين

فتح العرب مصر والشام وانتشرت جمهرتهم بهما لخصبهما وقربهما من بحيرة العرب ، فغلبت لغتهم وآدابهم ودينهم على لغة أهليهما من الروم والقبط ، وعلى آدابهم ودينهم إلا قليلا ولما ضعفت خلافة بغداد وقعت مصر والشام غنيمة باردة في أيدي الطولونيين ثم الأخشيديين ثم الفاطميين ، واتخذ هؤلاء جميعا مصر مركزا لحكومتهم لخصبها وكثرة خيراتها ، فكانت القاهرة زمن الفاطميين حاضرة لخلافة عربية علوية ضخمة ذات حضارة راقية ، وطال عمرها نحو سبعين ومائتي سنة ، فصبغت مصر والشام بصبغتها في بعض الاعتقاد ، وأكثرت العادات والأعياد ، وكانت حضارتها في الصناعات والعمارة أساسا للفن العربي الاسلامي إلى وقتنا هذا .

وكانت محبة خلفائها وأمرائها ووزرائها للعلم والأدب والشعر بالغة أقصى الغاية ، فاتخذ كثير من الأدباء والنحاة والكتّاب والشعراء في زمنهم مصر دار إقامة ، وأسنى الخلفاء الفاطميون لهم الجوائز وجلسوا لهم يستمعون بدائعهم في الأعياد والمواسم ، وما كان أكثرها عندهم . ولم تُجَد شعلة حضارتهم إلا الحروب الصليبية ومنازعة مواليتهم ووزرائهم لهم في الملك على مثل ما كان الأمر في الدولة العباسية ، حتى سهل على صلاح الدين الأيوبي ابادته خلافتهم وتأسيس دولة كُرْدِيَّة في النسب مستعربة في اللسان والترعة على انقاضها ، فأثقلت معظم بلاد الشام من الصليبيين ، وانتفعت بحضارة الفاطميين أي انتفاع ، وان عملت جهودها على نسخ مذهبهم الشيعي الباطني واحلال مذهب أهل السنة محلّه ، الى أن انتزع الملك منهم مما ليكهم التركان .

الشعر في مصر والشام

زمن الفاطميين والأيوبيين

كانت مصر والشام في العصر الأول من حكم الدولة العباسية ولايتين من ولايات الخلافة ، يتعاقب على حكمهما ولاية من قبل بغداد لا تزيد ولايتهم غالبا على بضع سنوات ، ولا يتصرفون في شيء من خراج الولاية الا بحقه : من عمارة أرض ، أو رزق جند ، أو كُتاب ديوان ، أو قضاة أو شرطة ، أو نحو ذلك ، ويرفعون باقي الخراج الى الخليفة محاسنين عليه من أهل الديوان ببغداد حسابا عسيرا ، فلم يكن في استطاعتهم الانفاق على أمر عام : من نشر ثقافة علمية أو أدبية دأمة الأثر ، وإنما كان أصحاب المهم النديلة والنفوس الشريفة من الرعايا يطلبون الفقه أو الحديث أو اللغة أو الأدب والشعر غير مدفوعين بدافع الاحب العلم والمعرفة . فاذا نبغ أحدهم وأصبح إماما يرجع اليه في علم ، أو شاعرا يرغب في شعره الملوك ، وأحس ذلك من نفسه ، وجد أن مقر الولاية لا يتسع لمثله ، فيخرج الى بغداد حيث المعرض العام والسوق النافقة للعلم والأدب والشعر ، فيعرض بضاعته على الراغبين فيها من الرؤساء والعلماء والنقاد والمؤلفين في الأدب ، فلا يلبث أن يشتهر فاما أن يدخل في غمار كُتاب الدولة ان كان أدبيا ، أو حكامها وقضاتها إن كان فقيها ، وإما أن يتكسب بالشعر مدحا وهجاء ومنادمة ومحاضرة .

وإذا آثر أحد من هؤلاء النابغين الإقامة في وطنه من الولايات والأقاليم الصغيرة بسبب عجز في جسمه أو قصور في همته أو زهادة منه في الدنيا ، تحمل ذكره ، وجُهل قدره ، وانحصرت الرواية عنه في أهل بيئته ، وأكثرهم حسادله ناقدون منه مزاياه . وما جلب عليه كل ذلك الا ابتعاده عن ميدان التناضل العام ، وموطن الاعلان والاشتهار ، وهو دار الخلافة .

ولذلك نرى في العصر الماضي أمثال أبي تمام الناشئ بين الشام ومصر ، والبحترى الناشئ في مَنبج شمالي حلب لم يشتهروا إلا بعد أن هجروا مواطنهم الى

دار الخلافة وإنا لنقرأ شعر بعض شعراء الشام ومصر ممن آثر النحول على الهجرة الى حاضرة الملك فنجده في بعض الأغراض يفوق أشعار المشهورين أو يكاد ، ولكن أهل التاريخ والرواية والنقد والتأليف ، ومقرهم الحاضرة غالبا ، لم يشعروا بهم فنسيت أخبارهم ، وعفى الزمان على آثارهم .

إذا فهمت هذا عرفت لماذا لم تكن الفسطاط ولا الاسكندرية ولا دمشق في العصر الأول العباسي بيئة صالحة لإقامة كبار الشعراء ولكن لما ضعفت خلافة بغداد في العصر الثاني الذي نحن بصدد الكلام فيه ، نشأت في الشام ومصر دول وإمارات مستقلة قاسمت بغداد فضل العناية بالعلم والأدب والشعر والفنون ، فأبقت من جهة على نبغائها باصطناعهم وترفيه العيش عليهم ، فطاب لهم المقام في ظلها وربوا بأنفسهم عن الهجرة الى غيرها ، وجلا اليها كل من لم تتسع له بيئة وطنه من أهل الاجادة في العلم والأدب والشعر . ومن الأمثلة لذلك دولة صغيرة في شمالي الشام ملكها أمير من تغلب يجيد الشعر ونقده ويرغب في الأدب واللغة والحكمة ، ويُسني جوائز أهل الاجادة ، وهو سيف الدولة أمير حلب وبعض الثغور ، قد اجتمع بها في خدمته من الفلاسفة واللغويين والنحويين والأدباء والخطباء والشعراء من أهل الشام ومن مختلف الأقطار جمهرة لم تجتمع خليفته وقته ولا للديلمي المتغلب على بغداد ، ومدحه بل تخرج في دولته أبو الطيب المتنبي الذي أنف أن يمدح خليفة بغداد ووزيرها المهلبى عند مروره بها قاصدا عضد الدولة .

غير أن حال الشعر في خلال العصر العباسي الثاني أى زمن الفاطميين والأيوبيين لم تكن مطردة التقدم لطول هذا العصر وتقاصر همم الملوك في أواخره عن معاضدة أهله ، فانصرفوا عن التكسب به الى الخدمة في دواوين الدولة ، ونظموه إما تمكلا وتظرفا ، وإما تماقلا للرؤساء وتقربا اليهم .

لذلك كانت حال الشعر في مبدأ العصر الثاني العباسي بمصر والشام نهاية ما وصل اليه الشعر العربي من الارتقاء : كما في شعر المتنبي وأبي فراس والمعري لقرب عهد هؤلاء الشعراء بالعصر الأول العباسي وتأديبهم بأدبه .

وكانت حالة أواسط العصر الثاني وأواخره تتحوّل شيئاً فشيئاً الى صورة موطنية قومية بسبب ما نشأ في مصر والشام في مدة تزيد على مائتي سنة من حضارة خاصة ، ومذاهب مختلفة شيعية وباطنية وصوفية وسنية ، وكلها ذوات رسوم حديثة ، وبسبب ما دهم البلاد بعد من الحروب الصليبية التي غيرت مجرى نظام الحكم وطرق الكسب والمعيشة ، وشغلت أهلها عن الاستزادة من العلم والأدب ، وصبغت طبائعهم بصبغة خاصة لم تنهض بالشعر الى منزلة أسمى من منزلته في مبدأ هذا العصر ، بل انخفضت منزلته في البلاغة واختراع المعاني الشريفة .

وتتضح لنا صفة الشعر العامة في هذا العصر بما يأتي :

بقيت فنون الشعر وأغراضه القديمة من نحو الفخر والمدح والثناء والغزل والوصف والتهنئة مستعملة بمصر والشام في جميع هذا العصر اذ كان أكثرها من لوازم الحياة الاجتماعية العامة .

ثم استدعت حوادث هذا العصر السياسية وتشكل التربية الخلقية والأدبية والثقافة العلمية بصور خاصة بعض توسع في هذه الأغراض القديمة ، أو تنوع فيها وزيادة عليها .

فتوسع شعراء الشام ، من قبل أن تنغص عيشهم الحروب الصليبية ، في وصف الطبيعة ، وتنوعوا فيه لسببين اجتماعاً لهم :

الأول — اتساع مجال الخيال الجميل عندهم ووفرة مادته لديهم بمجال بيئتهم ، وكثرة ما فيها من مناظر الطبيعة الرائعة : كالجبال الشاهقة المكاملة رءوسها بالسحب ، وكالمروج النضرة ، والجدال المتسلسلة بين بساتين الفاكهة وحدائق الأزهار ، وكثرة السحب ونزول الأمطار والثلج والبرد ، إلى صحة الهواء واعتدال الفصول وتميز بعضها من بعض .

والثاني — قُربُ صُقع الشام من صُقع العراق ، منشأ الحضارة الاسلامية ، ومنبت علماء اللغة والشريعة والحكمة ، ومن صقع بلاد العرب مهّد الفصاحة الأولى ، وكان عند أهلها في ذلك العهد بقية منها ، واتصاهم بالشام أيسر عليهم من اتصاهم بمصر ، ولذلك نجد أغلب سكان شرقيّ الشام حتى وقتنا هذا من أهل البدو أو المتطبعين بطباعهم .

وكان لقرب الشام من العراق مزية أخرى ، فإنه أبقى فيهم في مُفْتَح هذا العصر ملكة التكل بالمعرفة والعلم ، والترود من العلوم الاسلامية التي كانت قد اتسعت دائرتها في هذا العصر ، ومن الفلاسفة المنقولة عن الأوائل ، وكانت قد رسخت في أذهان نابتة هذا الزمان بالعراق والجزيرة وشمالي الشام .

كل ذلك بلا ريب ينمي مادة الخيال ، ويحمل صورَه ، ويشكلها بما لا يحصى ، ويُجود اللفظ .

ولذلك نجد أشهر الوصّافين من المشاركة مثل كُشاجم والصنوبري من أهل الشام (١) .

وتوسّع الشعراء وخاصة شعراء الشام في وصف المعارك الحربية ، لكثرة ما كانت تقع بين دول الجزيرة والشام ومصر من جهة ، والروم البيزنطيين ثم الافرنج الصليبيين من جهة أخرى .

وكل شعراء سيف الدولة الحمداني من أمثال المتنبّي وأبي فراس والناهي والبيغاء ، وكذلك شعراء نور الدين بن زنكي وصلاح الدين الأيوبي ممن يجيدون وصف المعارك الحربية .

وتوسعوا أيضا في التحريض على مجاهدة الصليبيين الذين أغاروا على بلاد الشام ومصر في هذا العصر ، وحث الناس على استخلاص المدن والسبي من

(١) كُشاجم هو أبو الفتح محمود بن الحسين من أهل الرملة من بلاد فلسطين خدم سيف الدولة ابن حمدان ولقب نفسه بكُشاجم فسئل عن ذلك فقال : الكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والحيم من جواد والميم من منجم وكذلك كان ، توفي سنة ٣٥٠ ومن شعره :

يا حبذا يومنا ونحن على رهوسنا نعقد الأكاليل
في جنّة ذلت لقاطفها قطوفها الدانيات تذليلًا
كأن أترجّجها تميّل به أغصانه حاملا ومحمولا
سلاسل من زبرجد حمت من ذهب أصفر قتاد يلا

والصنوبري هو أحمد بن محمد من أهل حاب من شعراء سيف الدولة ، وكان معاصرا لكُشاجم وهو أكثر من كُشاجم وصفا للطبيعة ومن قوله في الترجس :

أرأيت أحسن من عيون الترجس أم من تلاحظهنّ وسط المجلس
درر تشقق عن يواقيت على قضب الزمرذ وسط بسط السندس
أجفان كافور خفقن بأعين من زعفران ناعمات الملس
فكانها أقمار ليل أهدقت بشموس أفق فوق غضن أملس =

أيديهم^(١) . ومن هذا النوع الأشعار التي وضعت في الحماسة والافتخار بقهر الأقران والأبطال في السير الخيالية المخترعة بمصر في هذا العصر ، لتربية ملكة الشجاعة والاقدام في نفوس شبانه ، كسيرة عنتر بن شداد ، وسيرة البطال ، وفتوح الشام ونحوها .

وتوسع بعض شعراء الشام ومصر في باب الحكم والأمثال مما جرى على لسان المتنبي^(٢) ، وشرح الحقائق الفلسفية^(٣) ونقد العادات ونظام الحكم والاشتراع والاجتماع والتقاضى والتعبد ، ومعاملة الحيوان ، وغير ذلك مما جرى على لسان

= ومن شعراء الشام الوصافين أبو الفرج محمد بن احمد المشهور بالأزواء الدمشقي توفي سنة نيف وتسعين وثلاثمائة وهو القائل :

فأمطرت لزلوا من ترجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد
ومن وصافي الطبيعة على بن رستم المشهور بابن الساعاتي المتوفى سنة ٦٠٤ أحد شعراء صلاح الدين الأيوبي
لله يوم في سيوط وليسلة صرف الزمان بمنلها لا يعلاط
بننا وعمر الليل في غلوائه وله بنور البدر فرع أشمط
والطل في تلك الغصون كلؤلؤ رطب يصاغفه النسيم فيسقط
والطير تقرأ والغدير صحيفة والريح تكذب والغمام ينقط

(١) قال أبو الفرج عبد الواحد بن نصر الشهير بالبيغاء المتوفى سنة ٣٩٨ أحد شعراء سيف الدولة بصف معركة له :

من السالبات الشمس ثوب ضياؤها بثوب تولى نسجه عثير التراب
أعادت علينا الليل بالنقع في الضحا وردت علينا الصبح في الليل بالشهب
وقال الكاتب الشاعر العهاد الأصماني أحد رؤساء الكتاب في دولة صلاح الدين ، من قصيدة لشيركوه بن شاذى :

فتحت مصر وأرجو أن يصير بها ميسرا تمتع بيت القدس عن كئيب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من فتح البلاد فبادر نحوها وشب
شكا اليك بنو الاسلام يتمهم فقمتم فيهم مقام الوالد الحدب
في كل دار من الافرنج نادبة بما دهاهم فقتلوا على نذب

(٢) كقول المتنبي وسيأتي الكلام في ترجمته وبعض شعره :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجددت عفة فلعللة لا يظلم
ومن ألبية عدل من لا يعوى عن غبه وخطاب من لا يفهم

(٣) ستأتي أمثلة كثيرة لذلك عند الكلام في أبي العلاء المعرى ومن قوله من مرثية :

بان أمر الاله واختلف النا من فداع إلى ضلال وهاد
والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد
فالليب اللبيب من ليس يفتتر بكون مصيره للفساد

المعري . وقد علمت أن السبب في ذلك انتشار العلوم والآداب اليونانية والفارسية والهندية في أهل الملة الاسلامية ، واتصال زمن شعراء هذا الصنف بزمن النهضة العربية في الدولة العباسية .

وتنوعت عند أهل القطرين ، وبخاصة المصريين ، التهانى باستحداث أفراح وطنية لم تكن معهودة من قبل ، أو كانت نادرة الوقوع ، من نحو الحفلات الكثيرة التي كانت تُعنى بها الدولة الفاطمية جِدَّ عناية كوفاء النيل وفتح الخليج ، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد عليّ وأولاده ، وعيد الغدير وأول العام الهجري ، والنيروز المصري ، وقافلة الحاج ، وغير ذلك (١) .

وكالتهانى باستنقاذ المدن والأماكن المقدسة من الصليبيين والانتصار عليهم (٢) زمن الدولة الأيوبية .

وكذلك تنوع الشعر الصوفي بتنوع الكنايات والرموز عن أسراره بالغزل والخمريات ووصف السَّيرِ والسُّرى ، ولمع البروق وارتفاع النيران في البوادي ونحو

(١) كقول كافي الدولة أبي العباس أحمد أحد شعراء الدولة الفاطمية يهني أحد خلفائها بفتح الخليج ووفاء النيل من قصيدة :

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد للنيل أم ك يا ابن بنت محمد
أم لاجتماعكم معا في موطن وافيتا فيه لأصدق موعد
هذا يقى ويعود ينقص تارة وتسدأت النقص ان لم يزد

(٢) وقال نقيب الأشراف بالديار المصرية أحمد بن أسعد المعروف بالخوانى يهني صلاح الدين بفتح القدس من قصيدة قال في أولها :

أترى متاما ما بعينى أبصر القدس يفتح والقرنجة تكسر
ومليكمهم في القيد مصمود ولم ير قبل ذلك لهم مالك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
من كان هذا فتحه لمحمد ماذا يقال له وماذا يذكر

ذلك ، بل نخرج أحيانا عن طريقة الرموز والكنائية إلى تقرير حقائق التصوف وتقسيم مقاماته وأحواله ، كما في شعر ابن الفارض ولا سيما تائيته الكبرى التي شرحت بشروح مطولة لكثرت ما حوته من حقائق طريقة القوم (١) .

ألفاظ الشعر وأساليبه

وأما ألفاظه وأساليبه فقد كان لفظ الشعر بمصر والشام في مفتح هذا العصر لا يزال جزلا رصينا مزوجا ببعض الغريب ، ولا سيما شعر شعراء الشام وأعلى الفرات لغلبة العربية والبداوة بين أهليهما : كما في شعر المتنبى وأبي فراس والمعري ، ثم لما غلبت على القطرين دولة الفاطميين بحضارتها وترف معيشتها وعلومها وفلسفتها وطيب العيش في ربوعها نشأ في مصر نابتة من الأدباء يميلون إلى الظرف وسباجة الطبع والتأنق والتلمح في كل شيء ، وذلك يستدعي سهولة البيان ورقة اللفظ ولطافة لفظه ومبناه وحسن نغمه وجرسه والتباعد به عن الحوشي من اللفظ المتنافر الحروف ، والميل إلى المحسنات اللفظية ، فسهل بذلك لفظ الشعر ولان ، وتبعته في ذلك الأساليب وطرق التعبير ، واشتهرت هذه الطريقة في أواخر هذا العصر بين المصريين من أمثال القاضي الفاضل وابن سناء الملك وابن النبيه وابن مطروح وآلت إلى البهاء زهير فتبسط فيها إلى درجة كادت تقرب من درجة لفظ العامة ، وسرى هذا الروح إلى شعراء الشام وأعلى الفرات لأنهم كانوا أهل مملكة واحدة (٢)

(١) ومن ذلك قول شرف الدين عمر بن الفارض الشاعر الصوفي أحد المولعين بالمحسنات البديعية المتوفى سنة ٦٣٢ من مطلع قصيدة :

أعد ذكر من أهوى ولو بلام فان أحاديث الحبيب مداى
وأول تائيته الكبرى :

سقتني حيا الحب راحة مقلتي وأسى محيا من عن الحسن جلت

(٢) من ذلك قول كمال الدين ابن النبيه المصري أحد شعراء الدولة الأيوبية المتوفى سنة ٦١٩

من سحر عينيك الأمان الأمان قتلت رب السيف والطلسان

أسمر كالريح له مقلّة لو لم تكن كحلاه كانت سنان

يزداد اذ أشكو له قسوة ولو شكوت الحب للصخر لان

وقول بهاء الدين زهير وزير الصالح الأيوبي وشاعره المتوفى سنة ٦٥٦

تعيش أنت وتبقى أنا الذي مت حقا

حاشاك يا نور عيني تلقى الذي أنا ألقى

يا أنعم الناس قل لي الى متى فيك أشقى

الشعراء

كان كثير من شعراء مصر والشام يتكسبون بالشعر أول هذا العصر ، فلما اتسع نظام الدواوين زمن الدولة الفاطمية والأيوبية ، واقتضى ضبط الأعمال فيها تجزئتها وتعدد أقسامها كثر عدد عمال الكتابة بها وزيد في أرزاقهم ووظائفهم فدخل في غمار كتّاب الدواوين كثير من أصناف المتعلمين من الكتّاب والشعراء والفقهاء ، ويظهر أن الفقه والقضاء كان لهما المقام الأول في التعليم عند الدولة الفاطمية ، فخرّص كل كاتب أو شاعر على الاحتفاظ بلقب القاضي وان لم يل القضاء بالفعل ، وتلقبوا — مثل الخلفاء والوزراء — بألقاب خاصة مثل القاضي الرشيد ، والقاضي السعيد ، والقاضي الأعزّ ، والقاضي الفاضل ، والقاضي الأسعد الخ وسرت عادة تلقيب الشاعر والكتّاب بالقاضي من الدولة الفاطمية الى الأيوبية ، ثم الى دولتي المماليك بعد هذا العصر .

المتنبى

ومن غلبت عليه صفة الشعر سواء أتكسب به أم لم يتكسب أبو الطيب أحمد ابن الحسين المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ ولم يأت بعده في الأمة العربية أشهر منه ولا أشعر، وكان ممن يؤثر جانب المعنى على جانب اللفظ في كثير من شعره، ويشتهر بإيراد الحكم وضرب الأمثال المخترعة له أو المنقولة عن غيره من شعراء العرب أو الأمم الأخرى، وبوصف المعارك الحربية^(١) وله في استخراج المعاني واختراعها باع

(١) فن قوله في وصف معركة لسيف الدولة مع الروم البيزنطيين :

أتوك يجرون الحديد كأنما مروا بجياد مألحن قوائم
نحيس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمام
تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحدّث الا التراجم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهونام
مربك الأبطال كلّى هزيمة ووجهك وضاح وتغرك بامم

ومن قوله في الفخر :

واني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظا
فلا عبرت بي ساعة لا تعزى ولا صحبتي مهجة تقبل الظلما

طويل ، ورزق السعادة في شعره حتى لم يوجد متأذب في زمانه أو بعد زمانه لم يستعن بشعره .

وهو من أصل عربي من أهل الكوفة ، رحل به أبوه في صغره الى بلاد الشام فتأذب ، ودخل باديتها ، فُلِّقَ الفصاحة من أعرابها ، فقيـل انه ادعى النبوة فيهم ، وهو شاب صغير ، فقبض عليه وسجن مدة ، ثم خرج يتكسب بالشعر ، يمدح أمراء الشام وخاصة سيف الدولة ، وفي دولته طار صيته . ثم دخل مصر ، ومدح كافورا الاخشيدي ثم خرج منها وهجاء ، وذهب الى الشرق فمدح عضد الدولة وابن العميد ، ثم قتل بقرب بغداد عند منصرفه الى الكوفة .

المعري

وفيهم أبو العلاء المعري التنوخي الفليسوف الضير من أبناء الفقهاء بالمعرة ، نظم الشعر في صباه ، وأجاد علوم العربية حتى عد من أئمتها .

واطلع على كثير من آراء فلاسفة اليونان والهنود ، فامتنع في كهولته عن أكل كل ذي روح وما يخرج منه ، وضمن آراءه الفلسفية شعره في ديوان خاص سماه لزوم ما لا يلزم لبناء روى أبياته على حرفين ، وتعرض فيه للشرائع والمذاهب .

ومن قوله في الحكم والحجاسة :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فزهوس الرواح اذهب للغيظ وأشفى لعل صدر الحقود
لا كما قد حبيت غير حميد وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز في لظى ودع الذلل ولو كان في جنان الخلود

ومن قوله في الحكم :

وكل امرئ يولى الجميل محب وكل مكان ينبت العز طيب
من بين يسهل الهوان عليه ما بلحرج يميت ايسلام
وليس يصح في الأذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليل
ومن فكك الدنيا على الحرا أن يرى عدوا له ما من صداقته بد
واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام
وما الحسن في وجه الفتى شرف له اذا لم يكن في فعله والخلاق
وشر ما قنصته راحتي قنص وشب البراة سواء فيه والرخم

والعادات ونظام الملك والاجتماع فاتهم بالزندقة ، ولم يطرق شاعر في الاسلام قبله ولا بعده تلك الأغراض التي قصد اليها أو انتقدها (١) وله ديوان شعر آخر ضمنه كثيرا من شعره في أغراض الشعر المعتاد وسماه سَقَطَ الزَّند وتوفي بالمعزة سنة ٤٤٩ هـ وله مؤلفات في الأدب واللغة والشعر .

تميم بن المعز

ومن شعراء المصريين الأمير تميم بن المعز الخليفة الفاطمي (٢) وكان في دولتهم لا يقل عن ابن المعتز في الدولة العباسية ، توفي شابا سنة ٣٧٤

وكمال الدين ابن التنبية علي بن محمد شاعر بنى أيوب المتوفى سنة ٦١٩ ، وبهاء الدين زهير وكان من أرق شعراء السهل المتنوع وهو وزير الصالح الأيوبي توفي سنة ٦٥٦ ومنهم أشعر شعراء الصوفية على الاطلاق شرف الدين عمر بن الفارض المتوفى

سنة ٦٥٢

(١) فن ذلك قوله في القناعة :

والموت أحسن بالنفس التي ألفت عز القناعة من أن تسأل القوتا
ومن قوله في المأكل والملبس :

يكفيك أدما سايط ما أريق له دم ولا مس روحا اذ جرى ألم
وقوله زاعما ان الوالدين جنيا على الولد :

مى لمأني على زلة رجعت على أمي الهابل
وقوله في الحكام :

مُلُّ الْمُقَامِ فَمَنْ أَعَاشَرَ أُمَّةً أَمَرْتُ بِغَيْرِ صَلَاحِهَا أَمْرًا
ظَلَمُوا الرِّعْيَةَ وَاسْتَجَاوَزُوا كَيْدَهَا نَعَدُوا بِمَصَالِحِهَا وَهَمَّ أَجْرًا

(٢) ومن قوله :

أما والذي لا يملك الأمر غيره ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلما لإعلانها عندي أشد وآلم
وبئ كل ما يبكي العيون أمله وان كنت منه دائما أتبسم

النثر الفني

أو كتابة الترسل في هذا العصر

كانت كتابة الانشاء والترسل في النصف الأول من هذا العصر ، أى مدة بنى حمدان والفاطميين ، على مثل ما كانت عليه في الشرق من اتباع طريقة ابن العميد بل ربما قل فيها التزام السجع ومحسنات البديع .

وكان آخر من نسج على هذا المنوال العماد الكاتب الأصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ ولمّا نُبِه شأن القاضى الفاضل في أواخر الدولة الفاطمية أراد أن يحاكي كتاب الشرق في البديع ، فزاد عليهم وأرّبى وابتدع طريقة جديدة يصح أن تسمى الطريقة الفاضلية (١)

وذلك أنه جرى من قبله من كتاب المشرق في التزام السجع والجناس والطباق ، وزاد عليهم أن استعمل في رسائله أكثر أنواع البديع التي كانت فاشية وقتئذ في الشعر ، وأكثر من حل المنظوم واقتباس الآيات ، وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال . وأكثر جدا من استعمال التورية فاستدعى ذلك إطالة السجعات طولاً أخرجهما عن المألوف ، لأن التورية يُحتاج فيها الى ذكر مرثجات وقرائن لمعنيها القريب والبعيد ، وأمعن في التشبيه والاستعارة مع قلة المبالاة بالمبالغة والاعراق في ذلك حتى جاءت معاني رسائله منقاداً لألفاظها وأساليبها ، غير أن هذا التكلف لم يظهر في رسائله بقدر ما ظهر في رسائل من خلفه في دواوين الانشاء بمصر والشام لسلامة ذوق الرجل وانطباعه على طريقته وسعة مادته في اللغة ووفرة محفوظه من الأدب ،

(١) وله من رسالة في وصف حصن منيع :

”وردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعُقاب في عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأتملة اذا خضها الأصيل كان الهلال لها قلامة“

وله من رسالة في وصف حمام الزاجل :

”لا زالت أجنحتها تحمل من البطائق أجنحة ، وبجهاز جيوش المقاصد والأقلام أساحة ، وتحمل من الأخبار ما تحمله الضائر ، وتطوى الأرض اذا نشرت الجناح الطائر ، وكادت تكون ملائكة لأنها رسل اذا نيطت بالرقاع ، طارت أولى أجنحة منى وثلاث وربع ، وقد باعد الله بين أسفارها وقربها ، وجعلها طيف اليقظة الذي صدق العين وما كذبها ، وهى أنبياء الطير لكثرة ما أتى به من الأنباء ، وخطبائها لأنها تقوم على منابر الأغصان قيام الخطباء .“

فلما جرى في حلبيته من ليس على صفاته حسب أن البلاغة تملك ناصيتها بعشرات من أنواع
البديع ، فاسترسل في تكلفها تكلفا أبعد الكتابة عن أساليب البلاغة العربية جملة .
ولم يظهر أثر ذلك جليا الا بعد سقوط بغداد وتراجع الرسائل العربية إلى
دواوين مصر والشام والغرب زمن الممالك التركية كما سيأتي بيانه .

وبرع في كتابة الرسائل الديوانية في مصر والشام في هذا العصر بلغاء ، منهم :
أبو القاسم علي بن منجيب بن الصيرفي المصري المتوفى سنة ٥٥٠ هـ صاحب
ديوان الرسائل المطبوع بمصر .

وموفق الدين يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال كاتب المصريين وصاحب
ديوان الانشاء المتوفى سنة ٥٦٦ هـ .
وهذان من كتاب الدولة الفاطمية .

والقاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ وزير صلاح الدين الأيوبي وأبو عبد الله
محمد بن محمد عماد الدين الكاتب الأصبهاني المتوفى سنة ٥٧٥ هـ كاتب صلاح الدين .
وهؤلاء ممن أدرك عصر الفاطمية والأيوبية .

التدوين والتصنيف

أو الثقافة العلمية والأدبية في مصر والشام

كان اشتغال علماء الشام ومصر بتدوين العلوم الأدبية والشرعية والتاريخ لا يقل
عن اشتغال علماء الشرق غير أن الفاطميين نشروا فقه الشيعة في زمانهم ، وكان لهم عناية
عظيمة بعلوم الحكمة والطب والفلك وسائر العلوم ، وجمعوا من الكتب وآلات العلوم
ما لا يحصى ، حتى جاء صلاح الدين فبدد كتبهم وأعاد مذهب أهل السنة في مصر
والشام ، ومن ذلك قلت عناية علماء المصريين بالعلوم العقلية وانصرفوا إلى العلوم
الأدبية والشرعية ، ومن اشتهر من مؤلفي هذا العصر أبو العلاء المعري من الأدباء
والشعراء والمسبّحي وابن زولاق وابن عساكر والقضاعي والعماد الكاتب من المؤرخين .
ومن الأطباء ابن رضوان المصري ، ومن الفلكيين ابن يونس .

الأدب العربي في الأندلس

تمهيد

فتح المسلمون الأندلس سنة ٩٢ هجرية على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير زمن الوليد بن عبد الملك، وجلا إليها العرب والبربر من شمالى أفريقيا، ولحقهم بها من جميع قبائل العرب وبطونها كثيرون من عرب الشام ومصر حتى كان منهم بها بعد من قليل جمهرة عظيمة مختلطة بطوائف من البربر وصلت في فتوحها الى نهر لوار بفرنسا، وكان لأوائك الفاتحين والطارئين بعدهم السيادة على أهل البلاد من القوط والأسبان واليهود وغيرهم من الأهالي، ثم امتزجوا بهم بالمصاهرة لاسلام كثير منهم، فنشأ من الجميع بعد حين شعب مسلم مؤلف من عناصر عدة ذو صفات ومزايا جديدة، شاركه في بعضها من يقي على دينه من بقايا الاسبان واليهود، وتنوعت هذه الصفات بتنوع العصور المختلفة بسبب ما وقع فيها من الحوادث السياسية والاجتماعية والدينية، التي أبقت أثرا بيّنا في اللغة وأدبها.

ويمكن تقسيم هذه العصور بالنسبة إلى اللغة وأدبها إلى أربعة :

(١) عصر الولاة الأولين الذين كانوا يبعثون من قبل خلفاء بني أمية بالشام، ومدته من سنة ٩٢ — ١٣٨ هجرية نصفها فتح وطاعة، ونصفها فتن داخلية انتهت الى عصبية ممقوتة، قد ختمت باستيلاء عبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك على الأندلس وتأسيسه بها دولة بني أمية الثانية، وعدة الولاة عشرون.

(٢) عصر رقي اللغة وآدابها، وهو عصر الدولة الأموية الغربية وملوك الطوائف الذين استبد كل منهم بناحية بعد زوالها واستقر فيها، ومدته من سنة ١٣٨ — ٤٨٤ هجرية.

(٣) عصر وقوف اللغة ثم تقهقرها، وهو عصر دولتي البربر من المرابطين والموحدين، وهم الذين استولوا على ممالك الطوائف وجعلوا الأندلس ولاية تابعة لسلاطينهم بمراكش وفاس ومدته من سنة ٤٨٤ — ٦٣٠ هجرية.

(٤) عصر يقظة الموت ، وهو عصر الدولة العربية الثانية من بني هود
و بنى الأحمر ومدته من سنة ٦٣٠ — ٨٩٧ هجرية وهم الذين أمكنهم المحافظة
على جنوبي البلاد أكثر من قرنين ، ثم أجلاهم الاسبان عنها .
ونكتفى هنا بشرح حال اللغة وآدابها في عصر بني أمية وملوك الطوائف لأنه
أرق عصور الحضارة والأدب بها .

حال اللغة والأدب

زمن بني أمية وملوك الطوائف

الحضارة بالأندلس

كانت حال اللغة والأدب في عصر الولاة بين العرب ومستعري البربر نظير ما كانت
عليه عند بني أمية في الشرق أى على صورة بداءة وبعدهن مقتضيات الصناعة ، ثم كانت
في زمن الدولة الأموية الأندلسية تسلك طريق الدولة العباسية تحاكيها ، بل تنافسها
في كل شيء ، وبلغت حضارتها ورقيا في العلوم والآداب غاية المجد من الخليفين الناصر
وابنه المستنصر ، وزمن الحاجب المنصور بن أبي عامر المستبد بأمر الخلافة بعدهما .
ولما انتشرت الفتن في آخر دولة الأمويين انقسمت الى ممالك عدة مستقلة
مدة تقرب من نصف قرن ، ولم تكن حال حضارة العلم والأدب فيها أقل منها
زمن الدولة الأموية ، ثم تدهقرت بعد أن صارت الأندلس ولاية تابعة لملوك
البربر في مراکش من المرابطين والموحدين وانتعشت قليلا زمن دولة بني الأحمر ،
آخر دولة اسلامية بالأندلس .

الشعر بالأندلس

زمن الأمويين والطوائف

هاجر العرب في أواخر القرن الأول الى الأندلس ناقلين اليها معهم أخلاقهم
وعاداتهم ، وأدبهم وشعرهم ، فاستخدموا الشعر في بعض ما كان يستخدم فيه
عصر بني أمية بالشرق ، من أنواع الحماسة والحض على الجهاد أولا ، ثم الدعوة

الى العصبية واثارة الفتن ثانيا ، ثم لما قر الملك في بيت عبد الرحمن ، ونجحت الفتن
هَبَّ الشعراء يَحُونُ مناحى الأغراض التي فشت في الاسلام ، وأصبح الشعر صناعة فئدة
من المتأدين يتكسبون به بمدح الخلفاء والأمراء والقواد والاقطاع اليهم ، وشجعهم
هؤلاء أمويهم وعلويهم وبربريهم ببذل العطاء لهم وتقريب مجالسهم منهم ، واتخذوهم
بطانة وندماء بل أعوانا ووزراء ، اذ لم تكن صناعة الشعر مزرية بعضاء الناس هناك ،
بل كانت حلية كل متعلم ، فقلما عجز عنه انسان منهم ، بل نظمه كثير من الأميين ،
ولم يأنف الخلفاء والأمراء والفقهاء والوزراء من نظمه واداعته عنهم في الناس ، فأواع
به كل الطبقات حتى النساء ، ونبغ فيه كثير من فضلياتهن وبارين الرجال ، ولا
نكاد نسمع في الأندلس بقيقه أو نحوى أو متكلم أو فيلسوف أو طيبب أو رياضي
أو مؤرخ إلا وجدناه شاعرا بليغا صاحب مطولات ومقطعات في أغراض شتى .
وذلك لجمال بيتهم ، وطيب العيش في صقعهم ، وميلهم الفطرى إلى
الشعر ، لأن أكثرهم من عناصر عربية ، وإذا لم يشتهر فيهم أمثال فحول الشرق
مثل بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى فما ذاك إلا لبعدهم من
المشرق مهد العربية وميدان التنافس العام في آدابها وعلومها .

أغراض الشعر

ونظم شعراء هذا القطر الشعر في كل الأغراض التي كان ينظم فيها شعراء الدولة
العباسية حتى الخمريات والمجون ، ولكنهم فاقوهم في أنواع الوصف ، وخاصة مناظر
الطبيعة ورتاء الممالك الزائلة ونظم قواعد العلوم ، ونقصوا عنهم في نظم الشعر الحكيم
المشتمل على الحكم التي تسير سير الأمثال على مثال شعر أبى تمام والمتنبى .
وكان أسلوبهم في الشعر جاريا على سنن العرب في الجزالة والسهولة فلم يَجْمَلُوا
اللفظ أكثر مما يطبق من المعانى المزدحمة كما يفعل أبو تمام والمتنبى .
وكان شعرهم في الغزل والخمريات والأوصاف ذاية في الرقة ، وكان الخيال
الشعري الجميل مادة معانيهم ، وقد أتوا في شعرهم بقضايا عقلية وأحكام فلسفية ،
وزادوا على المشاركة في أوزان الشعر وقوافيه فنَّ الموشَّح ، وهو يتركب من طوائف
من أبيات أو شطور تتغير فيها القوافي .

نظمت في هذا الموضع
وكتبت في مرامك
اجلاد من همة ربك
صاحب الامور
الاعلى

ثم نظموا الموشح بالعامية فلقب بلقب جديد وهو "فن الزجل" وشاع النوعان بعد ذلك في المشرق فحَاكُوا الأندلسيين فيهما وبقيا الى وقتنا هذا .

وقد نبغ في الأندلس من لا يُحْصَوْنَ من الشعراء والشواعر ، ومن أشهر مشهور بهم في عصر الأمويين وملوك الطوائف :

ابن هاني الأندلسي

أبو القاسم محمد بن هاني الأندلسي الملقب بمتنبي الغرب ، وهو أشعر شعراء الأندلس على الاطلاق ، وكان يتكسب بالشعر ومنادمة الأمراء زمن الناصر والمستنصر ، ثم اتهم في شعره بالزندقة ، ففر الى المغرب واتصل بقواد المعز الفاطمي وعماله فأوصلوه اليه فحَظِيَ عنده واتخذهُ شاعر دولته ، إلا أن منيته عاجلته فمات عند رحلته الى مصر بعد فتحها وانتقال المعز اليها سنة ٣٦٢ هجرية وشعره جزل اللفظ نغم العبارة على مثال شعر بشار ومسلم وأبي تمام ، ويجيد فيه الاستعارة والتشبيه ، ويطيل القصائد ويكثر من الغلو في المدح الى حد ممقوت (١) .

(١) ومن قوله في المبالغة الممقوتة :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وقوله في المعز الفاطمي :

ملك اذا نطقت علاه بمده نرس الوفود وأقم الخطباء
هو علاه الدنيا ومن خلقت له وأعلاة ما كانت الأشياء

ومن أنغم شعره قوله يصف جيش القائد جوهر عند خروجه لفتح مصر :

رأيت بعني فوق ما كنت أسمع وقد راغني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمنله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر اذ سلمت كيف أشيع ولم أدر اذ شيعت كيف أودع

وقوله في مطلع قصيدة :

فتقت لكم ريح الجلال بعنبر وأمد كم فلق الصباح المسفر
وجنيتمو ثم الوقائع يانعا بالنضر من ورق الحديد الأخضر
ومن شعره الرقيق الذي يتغنى به :

فنكات لحظك أم سيوف أيبك وكتوس نمر أم مراشف فيك
أجلاد مرهفة وفنك محاجر ؟ ما أنت راحمة ولا أهلوك

ابن عبد ربه

أحمد بن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد من شعراء الناصر ، كان من أرق شعراء الأندلس لفظاً وأعذبهم أسلوباً ، وكان شعره يعجب المتنبئ ويطرب له وتوفي سنة ٣٢٨ (١)

ابن خفاجة

وابن خفاجة ، وكان في زمن ملوك الطوائف وهو من أشهر وصافي الطبيعة توفي سنة ٥٣٣ هـ وتكثر في كلماته الاستعارات وتراحم المعاني وقلما تكسب بالشعر (٢)

النثر الفنى فى الأندلس أو كُتابة الانشاء والترسل

كانت مناصب الكتابة عصر الولاة وصدرا من عصر بنى أمية مثلما كانت عليه فى المشرق ، فيتولاها الأمير مملياً كاتبه ، أو الكاتب بارشاد الأمير ، وإذا علت مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة سمي بالحاجب ، وهو أشرف الألقاب فى الدولة ، وكان اسم الوزارة يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم ، ثم صار الوزير الذى ينوب عن الملك فى سياسة الدولة يلقب بذى الوزارتين ، ويكون

(١) ومن رقيق شعره :

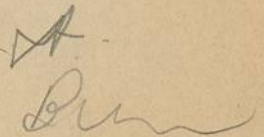
أيها البدر الذى ضن علينا بالطلوع
أبغ لى عندك قلباً طار من بين ضلوعى
يا بديع الحسن كم لى فيك من وجهه بديع

(٢) ومن شعره :

سقى لها من بطاح أنسٍ ودوح حُسنٍ بها مُطلٌ
فا ترى غير وجه شمسٍ أطلَّ فيه عذارٌ ظلٌ

وقوله :

لله نهر سال فى بطحاء أشهى وروداً من لى الحساء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه مجرّ ساء
وغدت تحف به الغصون كأنها هذب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبت بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على بلجين الماء



غالبا من أهل الأدب ، وكذلك كانت أحوال الكتابة من جزالة اللفظ ونخامة المعنى وخلوها من السجع الا في النادر (١)

ثم حاكوا المشاركة في نظام الدواوين ورسوم المكاتب من تمييز أقسامها وتنويع صور بدئها وختمها ، وتسجيع عبارتها ، محاكين طريقة حلبة ابن العميد ، من التزام السجع القصير الفقار غالبا ، ومن الاعتماد في استمداد المعاني على الخيال (٢) ومن حل المنظوم والاقباس من القرآن والحديث ، وتضمين الأمثال ، والاشارة الى حراثة التاريخ المشهورة ، وكتبوا في أكثر الأغراض التي طرقها كتاب المشرق ، ولكن بلاغتهم لم تحط كثيرا في آخر أمرهم كما انحطت البلاغة في مصر والشام في العصور التركية لقلة طروء العناصر الأعجمية عليهم ، وقصر مدة من طرأ منهم ، على عكس المشاركة ، ولتأصل عادة الاشتغال بالعلم والأدب فيهم .

ابن شهيد

ومن أشهر كتّابهم الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد حفيد سميّه أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذى الوزارتين ، وهو من أبلغ كتّاب الأندلس ، وله في الوصف والمداعبات رسائل بديعة وتوفى سنة ٤٢٦ بقرطبة .

(١) أمثلة من هذا النوع من الكتابة : فن ذلك ما كتب به المنذر بن الأمير عبد الرحمن الأوسط الى أبيه يستعطفه ، ودان قد نفاه الى مكان موحش لسوء خلقه " انى قد توحشت في هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد ، وعلمت فيه من آس اليه ، وأصبحت مسلوب العز فقير الأمر والنهى ، فان كان ذلك لذنب كبير ارتكبه وعلمه مولاي ولم أعلمه ، فانى صابر على تأديبه ، ضارع اليه في عفوه وصفحته ، وان أمير المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

(٢) من ذلك ما كتبه ابن خفاجة من رسالة له في وصف مئزّه " فترددنا بتلك الأباطح نتهادى تهادى أغصانها ، وتنضاحك تضاحك أخوانها ، وللنسيم ، أثناء ذلك المنظر الوسيم ، تراسل مشى ، على بساط وشى ، فاذا مر بقدير نسجه درعا ، وأحكمه صنعا ، وان عثر بمجدول شطب منه نصلا ، وأخلصه صقلا " .

ابن زيدون

وذوالوزارتين أبو الوليد أحمد بن زيدون وزير آل جهور بقرطبة ثم آل عبّاد بأشبيلية
وكان شاعرا رقيقا وكاتبا بليغا ويشتهر برسالتين: هزلية وجدية وتوفي سنة ٤٢٣

الفتح بن خاقان

والفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان أحد البلغاء الأدباء المؤرخين في عصر
ملوك الطوائف والمرابطين .

التدوين والتصنيف

أو الثقافة العلمية والأدبية في الأندلس

كان مبدأ تدوين العلوم بالشرق أواخر عصر بني أمية وصدر بنى العباس ،
ولم يكن المغرب والأندلس وقتئذ في حال من العافية والسلم تمكنهما من مجاراته ،
فلما وطد عبد الرحمن أركان ملكه بالأندلس ، ومهد طريق الحضارة والرخاء
والأمن لأهلها ، هبوا يرحلون الى المشرق لأداء فريضة الحج والاقباس من نور
العلم ، ولم تزل رحلاتهم اليه برا وبحرا متتالية حتى نقلوا الى بلادهم أكثر ما صنف
في علوم اللسان والدين ، لأنهم كانوا أشد أهل الأرض حبا للعلم وتفانيا في تحصيله
وتوقيرا لأهله ، وساعدهم على ذلك أمراء بني أمية وخلفاؤهم فبدلوا الأموال
العظيمة في جمع الكتب ومكافأة العلماء والمصنفين ، وأحلّوهم عندهم في المنزلة
الرفيعة ، وسمعوا قولهم وخضعوا لأمرهم ونهيبهم ، وأخصهم الخليفة عبد الرحمن
الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وقد جمع الحكم هذا في خزانة كتبه بقصر قرطبة
مئات الألوف من الكتب .

وكذلك كان أكثر خلفاء بني أمية وأعيان قرطبة ، ولم ينقض القرن الرابع
حتى زحرت بحور العلم ، ونبغ ألوف العلماء ، وصنفت ألوف من الكتب الجليلة
في ديار الأندلس ، وحتى كادت تضارع المشرق بل فضلتها في بعض العلوم ،
ولم يقصر ملوك الطوائف في هذا المضمار ، فأزرو العلم وقرّبوا العلماء ، وكان من
ملوكهم الأدباء والمؤلفون والمؤرخون .

وفي عصر المرابطين ركبت ريج العلم قليلا ، واضطهد بعض أصحاب الآراء والنحل المذهبية في الفقه والكلام ، إلا أن الموحدين ترخصوا في أمر مطاردة الفلسفة وعلومها ، فنبح فيها أفاضل من الحكماء والأطباء الكيميائيين مثل ابن رشد والباجي وابن زُهر .

ثم ضعفت النهضة العلمية واستمرت الحال كذلك مدة يتخللها بعض فسحات انتعاش ، حتى أباد الأسيبان المسلمين من الأندلس وأحرقوا كتبهم ومحووا آثارهم . وما سلم من كتبهم الا ما كان قد نقل قبل الجلاء منها أو جهل العدو مكانه .

حال اللغة العربية في العصر التركي

١ - عصر المماليك من سنة ٦٥٦ - ٩٢٣ هـ

سقوط بغداد

نشعر عند الكلام في تاريخ الأدب العربي في هذا العصر بكثير من الحزن والألم ، لما أصاب العرب في خلافتهم ووحدتهم ولغتهم ، فقد كان زوال الخلافة سنة ٦٥٦ هـ نهاية لتاريخ مجيد حافل بالآداب والفنون ، وخاتمة لمدينة مزدهرة كانت في القرون الوسطى مصدر هداية ونور للأمم العربية وغير العربية .

ففي سنة ٦١٦ هـ زحف جنكيز خان بجيشه متجها إلى الغرب فاكتسح نخراسان وفارس ، وأعمل السيف في أهل كل بلد نزل به ، لا تأخذه رحمة ولا يعطف قلبه لين ، حتى إذا غادر مملكة تركها فقرا يبابا .

وفي سنة ٦٥٤ هـ عبر حفيده هولاكو نهر جيحون زاحفا على بغداد ، فملك قلعة (الموت) من الاسماعيلية وذبح من فيها من الجنود .

وفي سنة ٦٥٥ هـ حدث في بغداد خلاف عنيف بين أهل السنة والشيعة ، أدى إلى ما يُشبه أن يكون حربا داخلية قتل فيها عدد من الشيعة ، وقد أثار ذلك غضب الوزير ابن العلقمي ، ودفعه إلى تشجيع التتار على غزو العراق والاستيلاء على بغداد ، فلكوها سنة ٦٥٦ هـ ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ، وأعملوا السيف في أهلها أربعة وثلاثين يوما ، فلم ينج من حده الا القليل ، وكان بين من قتل ٥٠٥ دَجْم من العلماء ورجال الأدب .

انحياز الاداب العربية الى مصر (القاهرة)

مصير الممالك العربية

بدخول المغول بغداد دالت دولة العرب ، ولم يبق لهم من صور الملك غير دويلات كان ملوكها أشبه بالولاة منهم بالحكام المستقلين ، فقد أسس المغول ثم الفرس دولا اسلامية ، وكانت مصر والشام في حكم المماليك حتى سنة ٩٢٣ هـ ، ثم صارتا الى العثمانيين ، ولم يبق في يد العرب غير غرناطة التي وقعت في يد الأسبانيين سنة ٨٩٧ هـ ، أما اليمن وبعض بلاد البربر فقد استولى عليها العثمانيون في أواخر القرن العاشر الهجري .

العلماء بعد سقوط بغداد

في هذه الزعازع والأعاصير التي أصابت بغداد وما يجاورها ، وفي وسط هذا الاضطراب العنيف الذي أثاره الغزو والارهاب والحكم الجاهل ، وقف العلماء ورجال الأدب وقفة الحائر يتطلعون إلى بغداد التي كانت مثابة لهم ، فوجدوا السيف مُصلتا والتدمير يعصف بكل شيء من آثار العربية ، التي كانت مقخرة الشعوب جميعها ، ورأوا أن علمهم وأدبهم يُقَدَف به قذفا في نهر دجلة ، فاتجهوا إلى مكان يُدْسُون فيه دولة عربية للعلم والأدب ، فلم يجدوا غير مصر والشام .

الممالك

كانت مصر والشام في حكم الممالك كما أسلفنا وهم قوم أشداء فيهم ميل شديد إلى الحروب والفتك والفروسيّة ، وقليل من الممالك البحريّة من كان يميل إلى الترف ، أو تهفو نفسه إلى العبث واللهو ، وكان الكثير منهم تمسك بالدين ، يهتمونه بقدر ما تصوّره لهم فطرتهم ، وتلوّنه بيئتهم ونشأتهم ، وإن شئت فقلّتهم كانوا يمزجون الدين بالسياسة ، فقد يكون الدين مرة ذريعة لخدب قلوب الأمم إليهم ، وأكبر مظهر لذلك بناء الجوامع والمدارس والبيمارستانات والملاجئ ، وحبس المال الوفير على نواحي الخير ، وتقريب العلماء وتشجيعهم على نشر العلم بالدرس والتأليف ، وقد يكون الدين آنا وسيلة لشفاء ما طبعت عليه نفوسهم من الميل إلى اذكاء نار الحروب ، كوقائعهم مع الصليبيين والمغول ، ألم يروا أنهم أصبحوا حُماة الخلافة الاسلامية وأنهم صاروا ملجأ الأمم العربية المهزومة ؟ ألم يرضن الظاهر ببيرس خلافة بنى العباس ويتقبل ولاية الحكم من المستنصر بالله العباسي الذي قر من وجه التتار الى مصر ؟

هجرة العلماء الى القاهرة

نزل العلماء والأدباء القاهرة التي أخذت مكان بغداد ، وبها حينئذ عدد كبير من المدارس ومجالس العلم ، فوجدوا فيها حرّما آمنا ، ولاقوا من عطف الممالك ما حثب إليهم البقاء ، فانبسطت نفوسهم ، واطمأن بهم المقام ، وأخذوا يكتبون ويؤلّفون وينثرون وينظمون .

وقد هاجر إلى القاهرة في غضون هذا العهد عدد غير قليل من علماء الأندلس وأدبائها فارين من وجوه الاسبان ، الذين تغلبوا على العرب في استرداد بلادهم . ولو سامت مصر والشام في هذا العصر من بعض نوبات الظلم ، والأمراض والطواعين ، وسكنت فيها العواصف والثورات والحروب التي تكاد تسمع صليل سيوفها كلما قلبت كتابا في تاريخ هذا العصر لتغير وجه الأدب ، وانكان اللغة وآدابها شأن آخر ، فان الفنون لا تنمو ولا تزدهر إلا في جو ملؤه السكينة والسكون ، كالطائر الغريد لا يصدح بين حفيف السهام .

موازنة بين هجرتين

واتجاه أهل العلم والأدب إلى القاهرة يشبه من بعض نواحيه هجرة علماء اليونان إلى إيطاليا بعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ٨٥٧ هجرية ، فانهم أحيوا نهضة العلوم ، وبعثوا في أوربا جميعها حياة علمية جديدة بدراسة اليونانية وترجمة آثار فلاسفتها ، وقد غيرت هجرتهم هذه كثيرا من وجوه الحياة الأوربية ، ودفعت الناس إلى التخلص من أوزار القرون الوسطى ، والتفكير في إصلاح معيشتهم وطرائق علومهم ومذاهب دينهم .

لم تترك هجرة العلماء إلى القاهرة كل هذا الأثر العظيم ، فانها وإن بعثت في العلم والأدب حياة في الديار المصرية والشام لم تمتد آثارها إلى غيرهما من بلاد المشرق ، ولم تغير وجوه الحياة الاجتماعية ، لأنها كانت دينية أدبية علمية ليس غير ، حتى إن مقدمة ابن خلدون نزيل مصر أيام السلطان برقوق ، التي أودعها كثيرا من الآراء الاجتماعية وسياسة الممالك ووسائل إنهاض الشعوب وإصلاح طرائق التعليم ، لم تنفذ إلى نفس غيره من علماء عصره ، ولم يظهر لها أثر في الحياة المصرية ، ذلك لأن العلماء كانوا جامدين متمسكين بالقديم ، ولأنهم لم يرزقوا حظا من الشجاعة يحفزهم إلى زعامة الأمة والدعوة إلى الإصلاح ، ولأن الشعب كان جاهلا خائرا لا يشعر بعزة ولا بقوة .

مظاهر الأدب في هذا العصر

النثر الفني

أسباب ضعف النثر

إذا نظرنا إلى مظاهر الأدب رأينا أن النثر الفني كان ضعيفا ، لشغف الكتاب بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية ، وانصرافهم عن العناية بالمعاني والأفكار واختيار الأساليب الملائمة لها .

وإذا قرأت رسالة لكاتب في هذا العصر ، رأيت أنها ، في الكثير الغالب ، لا تشتمل على معنى باهر ، أو فكر بعيد المدى ، لأن صاحبها كان يفكر في الألفاظ المزخرفة أولا ، ليؤلف منها المعاني ثانيا ، وفي هذا مناهضة لأصل الفطرة ، لذلك جاء الكلام متكلفا خائرا .

وهذا الضعف لم يكن جديدا في هذا العصر ، بل إنه حادث قبل سقوط الدولة العباسية بزمان غير يسير ، غير أن الكتاب هنا نحو منحنى القاضي الفاضل في طريقتة ، وهي الترام السجع والتورية ، وغلوا في ذلك غلواً يباه الذوق ، ويُنكره الطبع السليم .

أشهر الكتاب

وأشهر كتاب الرسائل في هذا العصر :

(١) القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، ولد سنة ٦٢٠ وتوفي سنة ٦٩٢ وهو كاتب السر لملك الأشرف خليل ، وكان كاتباً شاعراً .

ومن انشائه ما كتبه عن لسان الأشرف خليل الى صاحب اليمن بالبشرى بفتح طرابلس :

”أعز الله تعالى نصره المقام ، وأوفد عليه كل بشرى أحسن من أختها ، وكل تهينة لا يجليها إلا هو لوقتها (١) ، وكل مبهجة يعجز البنان والبيان عن ثبثها ونعيمها (٢) ، وتبليج فتود الدرر والدرارى لورقيت الى ترأقيها وسمت الى سمتها (٣) ، وصحبه

(١) أى لا يظهرها في وقتها الا هو .

(٢) البنان أطراف الأصابع والمعنى أن القلم واللسان يعجزان عن أثبات اخباره السارة ووصفها

(٣) تبليج تضي ، والدرر اللآلى ، والدرارى النجوم ، والترأقي جمع ترقوة وهي العظم في أعلى الصدر وعليها تكون القلائد والعقود ، والسمت هنا الارتفاع والمعنى أن موجبات السرور تضي . فتنمى اللآلى . لو ارتفعت الى نحرها لتكون عقودا وتود النجوم لو وصلت في الرفعة الى ما وصلت اليه .

منها بكلِ هاتفةٍ أسبجَ من هوائفِ الحمامِ ، (١) وبكلِ عارِفةٍ أسرعَ من عوارفِ الزهرِ عندِ عزائمِ النَّسائمِ (٢) .

(٢) شهاب الدين محمود الحلبي توفي سنة ٧١٩ وهو كاتب سر الملك الناصر ، ومن نماذج إنشائه ما كتبه في وصف موقعة :

”أصدرناها والسيوف قد أنفت من الغمود ، ونفرت من قربها (٣) والأسنة قد ظممت إلى موارد القلوب ، وتشوقت إلى الارتواء من قلبها (٤) والسيوف قد أضرمت الحمية للدين نارَ غضبها (٥) ، وعداها حرُّ الإشفاقِ على ثغورِ المسلمين عمّا عرقت من بردِ الثغورِ وطيبِ شنبها (٦)“ .

(٣) شهاب الدين بن فضل الله العمري ، ولد بدمشق سنة ٧٠٠ وتوفي سنة ٧٥٥ وهو كاتب السر للملك الصالح من آل قلاوون .

الشعر

أسباب ضعف الشعر

وقد بدت على الشعر أيضا آثار التقهقر ، لأنه لم يرسل مع الطبع والسليقة كما كان في العصر العباسي الأول ، ويظهر أن لضعف الملكة الشعرية والخيال والابتكار والتوليد شأنا كبيرا في هذا ، فلما أحس الشعراء هذا الضعف لجئوا إلى

(١) أي ولازمه من موجبات السرور كل مغردة ألذ نغما من الحمام المغردة .

(٢) العارفة المعروف والمكرمة وعوارف الزهر هنا رواحه الطيبة .

(٣) الضمير في أصدرناها يعود على الجيوش والقرب جمع قراب وهو غمد السيف وجفنه يعني حاربنا بعد مدة طويلة لم نحارب فيها .

(٤) القلب جمع قلب وهو البئر .

(٥) الأفة الغيرة .

(٦) الثغور الأولى مواضع الخفاقة عند حدود البلدان ، والثغور الثانية جمع ثغر وهو الفم هنا ، والشنب رقة الأسنان وعدوتها . يقول إن شدة الخوف على ثغور المسلمين صرفت رجال هذه الجيوش عن الميل إلى النعيم والتمتع ببرد الأفواه وعدوتها .

العناية بالألفاظ، وبذلوا جُهدَ استطاعتهم في أن تكون برّاقةً أنيقةً ، ونحن لا ننكر أن في هذا شيئاً من البراعة ولكن يجب أن يكون وراء هذه البراعة شيء من حكمة المتنبي ، أو فلسفة المعرى ، أو رقة البحترى ، وإلا كانت قولاً هراء .

وكان الشعر على الرغم مما أصابه أرقى من النثر كثيراً ، لأنّ تقييده بالوزن والقافية لم يجعل فيه متسعاً لتراكم المحسنات اللفظية وتراحمها .

وجَهْلُ أكثر السلاطين بفنون الأدب وذوق العربية لم يشجع الشعراء ، ولم يدفعهم الى الاجادة ، فلم يكن للملوك في هذا العصر شعراء أتيون عندهم ، الا في "حماسة" حيث بقيت هذه العادة رَدْحاً من الزمن ، لهذا لم يكن الشعر صناعة وإنما كان حلية الأديب يدفع اليه الميل الى اظهار البراعة وتدوين الحوادث .

ومن العجيب أن معظم العلماء والفقهاء والكتّاب كانوا يتصدّون لقول الشعر من غير هيبية أو خشية . وهذا أكبر دليل على انحطاط الشعر ، وما وصل اليه من سوء المصير ، ومن أمثال ذلك قول بعضهم في السلطان برقوق :

سلطان مصرٍ دام فضل عَلائه قد عمّنا بالفضل والاحسان

لم أنس يوم السبت حُسْنَ مُهمّة قد كان يوماً جاء بالسلطان

وقد زاحم الزجلُ العامى الشعرَ الفصيح في هذه الأيام ومالت اليه آذان الملوك لقصور الافهام عن ادراك العربية الصحيحة خصوصاً من عهد آل قلاوون (١) .

ولكننا مع كل هذا نجد بين شعراء هذا العصر فريقاً تتجلى في شعره الرقة وحسن الصياغة .

ومن أشهر هؤلاء :

(١) كقول بعض الزجالة يرثى فيل الملك الناصر وقد انحسفت به قنطرة على الخليج الناصري .
تعا اسمعوا بالله يا ناس الى جره الفيل وقع يوم الاثنين في القنطرة
لما أفلسوا غلمان الفيل راموا الجزاف خدوه وراحوا صوب بولاق يجبوا المطاف
رأوا شوخ من أهل الله مافيه خلاف جو ياخذوا شاشوا منه بالزنطرة
دعا على الفيل اتقنطر في القنطرة

(١) صفي الدين الخلي وشعره متفاوت في الجودة ، فهو مرة يسمو الى مافوق أفق عصره ، ومرة يتزل ويضعف ، ولد سنة ٦٧٧ وتوفي سنة ٧٥٠ ، وكان شاعر الدولة الأرتقيية في "ماردين" ورحل الى القاهرة زمن السلطان الناصر سنة ٧٢٦ ومدحه بقصيدة تعد من جيد شعره منها :

ترجى مواهبه ويهرب بطشه مثل الزمان مسالماً ومُحارباً
فاذا سطا ملاً القلوب مهابة وإذا سخا ملاً الزمان مواهباً
كالتغيث يبعث من عطاءه وأبلا سبطاً ويرسل من سطاءه حاصباً^(١)

(٢) جمال الدين بن نباتة المصري ، وهو حامل لواء الشعر في عصره ، تظهر في شعره المصرية الصادقة من حيث الرقة والسهولة وحسن ايراد النكتة المستملحة ، وُلِدَ بمصر سنة ٦٨٦ وتوفي بها سنة ٧٦٨ ومن محاسن تورياته :

بروحى جيرة أبقوا دموعى وقد رحلوا بقلبي واصطبارى
كأنا للجاورة اقسمننا فقلبي جارهم والدمع جارى^(٢)

(٣) الشاب الظريف واسمه محمد بن سليمان وُلِدَ بمصر سنة ٦٦١ ومات سنة ٦٨٨ ، ويشتهر شعره بالرقة وحسن الانسجام كقوله .

بحق هذى الأعين الساعره وحسن هذى الوجنة الزاهره
خف في الهوى إثمى يا قاتلى فاليوم دنيا وغدا آخره
قلبي مصر لك ما باله قد ذاب من أخلاقك القاهرة^(٣)

(١) العطا النوال والعطية ، والوايل المطر الكثير ويقال فلان سبط اليدى أى سخى والسطا جمع سطوة والحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصى .

(٢) يعنى أن أحبابه رحلوا وأخذوا قلبه معهم وتركوا له الحزن والدموع فكأنه هو وأحبابه اقتسموا القلب والدموع فأخذوا قلبه ليكون جاراً لهم وتركوا له الدمع ، والتورية ظاهرة فى قوله "والدمع جارى" فانه قد يكون من الجريان وقد يكون من الجوار .

(٣) يعنى أن قلبى مقر لك فلماذا يذوب من أخلاقك الشديدة القاهرة وفى الاتيان بكلمة القاهرة بعد كلمة مصر جمال بديعى .

(٤) شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفري ، ولد بالموصل سنة ٥٩٣ وتوفي سنة ٦٧٥ ومن شعره :

وَإِذَا الثَّنِيَّةُ أَشْرَقَتْ وَشَمِمَتْ مِنْ أَرْجَائِهَا أَرْجًا كَنَشْرِ عَبِيرِ^(١)
سَلَّ هَضْبِهَا الْمَنْصُوبَ أَيْنَ حَدِيثِهِ السَّمْفُوعُ عَنْ دَبِيلِ الصَّبَا الْمَجْرُورِ^(٢)

(٥) محمد بن سعيد الصنهاجي الشهير بالبوصيري ، توفي سنة ٦٩٥ واشتهر بمدائحه النبوية ، وهي البردة والهمزية ، وهما من جيد شعره ووصينه ، أما بقية شعره فليست بذلك وأول الهمزية هو :

كَيْفَ تَرْتَقِي رُقَيْكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءَ مَا طَوَّلَتْهَا سَمَاءُ
لَمْ يَدَانُوكِ فِي عُلَاكَ وَقَدْ حَالَ سَنًا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَاءُ^(٣)
إِنَّمَا مَثَلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ كَمَا مَثَلِ النُّجُومِ الْمَاءُ^(٤)
أَنْتَ مِصْبَاحُ كُلِّ ضَوْءٍ فَمَا تَصْدُرُ إِلَّا عَنِ ضَوْئِكَ الْأَضْوَاءُ

التأليف والمؤلفون

أسباب نهوض التأليف

وأعظم مظهر من مظاهر نهوض اللغة وآدابها في هذا العصر كثرة ما ألف فيه من كتب في مختلف الفنون والعلوم ، ولعل من أسباب ذلك كثرة المدارس وازدهام القاهرة وقوص والاسكندرية وغيرها بالطلاب وما كان يميل إليه بعض سلاطين المماليك من اقتناء الكتب النادرة ، وإنشاء الخزانات الخاصة بالجامعة لأنواع شتى من المؤلفات ، حتى إن بعض الكتب كان يؤلف خاصة باسم السلطان ليوضع في خزائنه .

(١) الثنية الجبل أشرفت بمعنى ظهرت والأرجاء جمع رجا وهو الناحية ، والأرج ربح الطيب والنشر الرائحة الطيبة والعبير خليط من أنواع الطيب .

(٢) الهضبة الجبل والصبا ربح تهب من الشرق وفي الجمع بين المنصوب والمرفوع والمجورور جمال بديعي .

(٣) السنا النور والسناء الرنة .

(٤) يقول ان الأنبياء كانت صفاتهم بمثل صفاتك كما تمثل الماء النجوم حين تعكس أضواؤها فوقه .

وأول ما يظهر لك في هذه الكتب اختفاء الابتكار ، وانها ، اذا استثنينا بعضها كمقدمة ابن خلدون وخطط المقرزي وتاريخ ابن خلكان ، ليست الا جمعا من أشتات الكتب وتقليدا لا أثر للاجتهد فيه .
وأشهر مؤلفي هذا العصر .

(١) في علوم اللغة

(١) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي ، ولد سنة ٦٠٠ وتعلم بدمشق وكان إماما من أئمة النحو واللغة وأشهر ما اشتهر به "تسهيل الفوائد" في النحو ، والألفية والكافية ولامية الأفعال . والثلاثة الأخيرة منظومات مطولة في النحو والصرف ، توفي سنة ٦٧٢ .

(٢) جمال الدين بن مكرم المصري ، ويعرف بابن منظور وله مؤلفات عدة أشهرها "لسان العرب" وهو معجم لغوي في عشرين جزءا ، مرتب على حسب أواخر الكلم ، ويعد دائرة معارف في اللغة والأدب والتفسير ، توفي سنة ٧١١ .
(٣) جمال الدين الشمير بابن هشام المصري ، وهو من كبار علماء العربية ، وأشهر كتبه "مغنى اللبيب عن كتب الأعريب" وهو دراسة واسعة في النحو ومعاني الحروف تدل على نبوغ وعبقرية ، توفي سنة ٧٦١ .

(٤) جلال الدين السيوطي ، وهو أكثر علماء هذا العصر آثارا ولد سنة ٨٤٩ ، ونبغ في علوم شتى ، وأشهر كتبه "المزهر" وهو كتاب يتضمن مباحث مستفيضة في فلسفة اللغة ، وكتاب "الأشباه والنظائر" في النحو توفي سنة ٩١١ .

(ب) التاريخ

وأشهر من ألف فيه :

(١) شمس الدين أحمد بن خلكان ، ولد سنة ٦٠٨ في إربل ، وكان قاضيا مدرسا ، وقد اشتهر بكتابه وفيات الأعيان وهو معجم تاريخي يدل على ابتكار وتحقيق وضبط وروية ، ويعد مرجعا في التاريخ واللغة والأدب توفي سنة ٦٨١

(٢) ابن خلدون ، ولد في تونس سنة ٧٣٢ ، وتنقل بين المغرب والأندلس كاتباً ومشيراً لأمرأئهما ، ثم رحل إلى مصر واتصل ببرقوق فولاه قضاء المالكية ومات بها سنة ٨٠٨ .

وأعظم ما اشتهر به مقدمة تاريخه التي تُعدّ مَفْخَرَةً في عالم التأليف العربي ، لأنها أول بحث جامع في علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ ، وقد بحث فيها في أحوال العمران وأسبابه وفي منشأ الدول وأسباب رقيها وانحطاطها ، ثم في آلات الكسب من تجارة وصناعة وزراعة وما يعترها من تقدم أو تدهور ، ثم في العلوم وأنواعها ، والكتب ومعانيها ، وطرائق التعليم وكيف تكون ، كل ذلك في أسلوب سهل شائق ، واستنباط منطقي صحيح .

(٣) تقي الدين المقرئ ولد بالقاهرة سنة ٧٦٦ ، واشتهر بسعة اطلاعه في التاريخ ، وألف فيه مؤلفات كثيرة ، أشهرها المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وقد جعل فيه وصف الخطط والمباني والبلاد المصرية ذريعة إلى الأفاضة في تاريخها وتاريخ مؤسسيها وماتوا على عليها من حوادث ، وله في أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدى ، وهذا الكتاب هو عماد الباحثين في الأحوال السياسية والاجتماعية لذلك العصر في مصر توفي سنة ٨٤٥ .

(ج) الكتب الجامعة

ومن أشهر مؤلفيها :

(١) شهاب الدين التُّوَيُّرِيُّ ، كان من رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأشهر كتبه نهاية الأرب في فنون الأدب ، وهو كتاب ضخيم يقع في أكثر من ثلاثين مجلداً ، به مباحث واسعة في الفلك وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعي والتاريخ واللغة والأدب ، توفي سنة ٧٣٢ .

(٢) شهاب الدين بن فضل الله العمري ، ولد بدمشق سنة ٧٠٠ وكان إماما في الأدب والتاريخ والانشاء ، وأشهر كتبه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، وهو كتاب واسع المباحث في الأدب والتاريخ وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعي ، توفي سنة ٧٥٥ .

(٣) شهاب الدين احمد القلقشندي المصري ، تولى كتابة الانشاء سنة ٧٩١ ونبغ فيها ، وأشهر كتبه صبح الأعشى في صناعة الانشاء . وهو كتاب واسع في صناعة الانشاء وتقويم البلدان ، توفي سنة ٨٢١ .

الدرس والمدارس

جاء في خطط المقرئى « أن أول ما علم من إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار (بأجر) اطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله بن المعز الفاطمى ، فعمل ذلك فى الأزهر ، ثم عمل فى دار الوزير يعقوب بن كلس مجلس يحضره الفقهاء ، ثم أيضا مجلس فى جامع عمرو بن العاص ، ثم بنى الحاكم بأمر الله دار العلم بالقاهرة ، وعند زوال الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين ، أبطل مذاهب الشيعة وأقام بها مذهب الشافعى ومالك ، وبني لكل طائفة مدرسة ، وتوالى بعد ذلك بناء المدارس » .

كثرة المدارس

وربما كان من أكبر مميزات هذا العصر ، كثرة المدارس والمدرسين والطلاب ، ولم يكن يدخر جهد أو مال فى إنشاء هذه المدارس نعمة ضخمة بدعة الصنع رائعة النقوش والزخرف ، تشهد للصانع المصرى بالنبوغ والسبق فى فن العمارة وهندسة البناء ، وقد تنافس الملوك والأمراء والأميرات وسرارة مصر والشام فى إنشاء هذه المدارس ، يتخذونها وسيلة للتقرب إلى الله ونشر علوم الدين أولا ، ثم علوم العربية وبعض العلوم الفلسفية .

وكان كثيرون من الطلبة من آفاق الاسلام يختلفون إلى هذه المدارس ،
وتجرب عليهم النفقات مما يرصد عليها من خيرات ، وكان لكثير منهم غرف يسكنونها ،
وكان بكثير منها خزانات تجمع عددا كبيرا من الكتب في مختلف العلوم .

أشهر المدارس

- (١) وأشهر هذه المدارس المدرسة الفاضلية التي أنشأها القاضي الفاضل
عبد الرحيم بن علي البيساني ، كان بها خزانة بها نحو مائة ألف مجلد .
- (٢) المدرسة الصاحبية البهائية أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا
سنة ٦٥٤ بالقرب من الجامع العتيق ، وكانت من أجل مدارس الدنيا .
- (٣) المدرسة الظاهرية بناها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ بين القصرين ،
وكان بها خزانة كتب تشتمل على أمهات العلوم ، وعند تمامها اجتمع بها أهل العلم ،
وحضر القراء وجلس أهل الدروس ، كل طائفة في إيوان منها ، وقرروا كلهم
الدروس وتناظروا في علومهم ، ثم مدت الأسمطة فأكلوا ، وقام الأديب أبو
الحسين الخزار فأنشده .

ألا هكذا يبني المدارس من بني ومن يتعالى في الثواب وفي الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همة بها اليوم في الدارين قد بلغ المنى
تجمع فيها كل حسين مفرق فراق قلباً للأنام وأعيناً (١)
ومد جاورت قبر الشهيد فنفسه الذ فميسة منها في سرور وفي هنا
وما هي إلا جنة الخلد أزلقت له في غد فاختار تعجيلها هنا

أشهر المدرسين

وأشهر المدرسين في هذا العصر ، أبو محمد الشاطبي . وأثير الدين أبو حيان
النحوي القرناطي توفي سنة ٧٤٥ وعلاء الدين بن الأثير ، وبهاء الدين بن عقيل ، وتقي
الدين بن دقيق العيد .

(١) الضمير في فيها يعود على المدرسة المفهومة من السياق .

العصر العثماني

من ٩٢٣ هـ إلى ١٢١٣ هـ

مظاهر ضعف المماليك

دب الهرم في جسم دولة المماليك ، وأصابها الضعف الذي يتقدم فناء الدول ، وأظهر ما يبدو ذلك جلياً من وفاة الأشرف قايتباي وبدء ولاية الناصر محمد الثاني ، فزالته هيبة الدولة واستهان الجنود بالملوك وتفرقوا بينهم شيعا وأحزابا ، وكثرت الغارات على حدود الشام ، وازدادت ثورات العرب على الحكام والأهلين ، وخلت خزائن الدولة من المال ، لكثرة ما كان ينفق على صد غارات الفاتحين ، وقمع صولة الثائرين ، حتى قيل إن ما أنفقه الأشرف قايتباي على الغزوات يطلع سبعة ملايين وخمسة وستين ألف دينار .

وكان من أسباب ضعف دولة المماليك كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ هـ ، في أيام الناصر محمد الثاني ، لأن التجارة الهندية الذاهبة إلى أوروبا سلكت هذه الطريق بعد أن كانت تضطر إلى اجتياز البحر الأحمر ونقل البضائع من السويس إلى الاسكندرية ، وكان المماليك يفرضون على هذه المتاجر ضرائب عظيمة ينفقونها في غزواتهم ومظاهر عظمتهم ، فلما انقطع عنهم هذا المدد انصرفوا إلى الأمة المسكينة يرهقونها بألوان المظالم ، وضروب شتى من الضرائب .

الفتح العثماني

وبينما هم على تلك الحال من الاضطراب والافلاس ، زحف السلطان سليم عليهم وغزاهم في عقر دارهم ، واستولى على مصر سنة ٩٢٣ هـ . وكان سليم مدمرا هداما ، وكان حكم العثمانيين حكم إرهاب وارتباك وإرهاق ، فن فتنك لا يكاد يستقر فيه السيف في قرابه إلى مصادرة للأموال ، وإلى ضرائب فوق الجهد والطاقة ، إلى خوف شامل ، وإلى ثورات في كل مكان .

أغار سليم على خزائن دور العلم وبدائع آثار الممالك فنقل كثيراً منها إلى القسطنطينية ، وأسر طائفة كبيرة من الأدباء والعلماء والصناع وأرسل بهم إليها ، وامتدّت يده إلى مال الأوقاف التي حُبست على معاهد العلم ومقاصد الخير فاتمبه .
أتعجبُ إذاً أَنْ انحطت مصر وزال جمالها ، ودالت دولتها ؟ لقد أصبحت ولاية عثمانية بعد ان كانت مقر الملك وموطن الخلافة ، وكسدت فيها سوق العلم والأدب ، بعد أن كانت كعبة الأدباء ومبأة العلماء ، فنكست الأقلام وجف المداد ، ذلك لأن العثمانيين لم يميلوا إلى تشجيع الأدب والتأليف ، فكانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية ، وكانت لغة التخاطب خليطاً بين العامية والتركية ، وقصارى القول ان مصر أصيبت في هذا العصر بتراجع في كل شيء وتدهور في كل شيء وإنهزمت فيها العربية أمام هذا الفساد الاجتماعي ، والعنف السياسي ، والتقهقر الأدبي .

النثر الفني

ضعف النثر

بلغ النثر الفني في أكثر حالاته أقصى ركاكته ، وعجز كثير من الكُتّاب حتى عن مجاراة سابقهم فيما كنا نتعاه عليهم من العناية بالسجع والحاسن اللفظية ، وفسدت اللغة في عبارات المؤلفين أسلوباً وإعراباً ، ويكفيك أن تطالع على بعض الكتب التي ألفت في هذا العهد كتاريخ ابن إياس لتعرف أن شيئاً من ذلك غير مبالغ فيه ، ومن خير نماذج النثر في هذا العصر ما كتبه الشهاب الخفاجي في مقدمة كتابه ريحانة الألباء .

«وكنْتُ لما ذُبل عيشي النَّضْرُ وُلِّيتُ سياحة الآفاق»^(١) فصرتُ خليفة الخضر^(٢) تهادتي التنائف^(٣) . وقذفتني الأماني في كهوات^(٤) المخاوف ، كأني قذاة^(٥)

(١) ولّيت سياحة الآفاق أي قمت بالسفر إلى بلاد شتى .

(٢) يقال إن الخضر متنقل دائماً من قطر إلى قطر . (٣) الفلوات .

(٤) جمع لهاة وهي قطعة من اللحم في أقصى سف الفم والمتصود لما بها الحاق .

(٥) القذاة شيء يسقط في العين .

بأجفان الدهر ، أو سفاة (١) بوجه نهر ، أو كرة لاعب أو سهم محارب ، طوراً
أشق قلب الشرق كأني أفقش على الفجر ، وتارة أمزق كيس الغرب حتى كأني
أريد أن أخرج منه دينار البدر .

الشعر

ضعف الشعر

ولم ينج الشعر من الكارثة ، فتناول الفساد كثيراً من نواحيه لا يشذ عن ذلك
إلا القليل النادر .

ومن أشهر شعراء هذا العصر :

(١) ابن النحاس الحلبي يمتاز شعره بالانسجام واللفظ وخلوه من التكلف وتعمد
الصناعة . مات سنة ١٠٥٢ .

ومن جيد شعره :

طَمِينٌ فَوَادِكَ أَي حُرِّمٌ يَرَعُ بِالْخَطْبِ قَلْبُهُ
وَدَعِ الْمَلَامَ فِدَاءً مَنْ عَاجَلَتْ فِي التَّسْلِيمِ طَبَّهُ
لَا تُكْثِرَنَّ "هَلَا فَعَلْتَ" عَلَيْهِ فَالْفَعَالُ رَبُّهُ
الْمَرْءُ يَصْعَبُ جُهْدَهُ وَيَلِينُ بِالْمَقْدُورِ صَعْبُهُ
لَا تَتَّهَمْنِي فَالْمَوْأَا حَذُّ فِي الزَّمَانِ النَّذْلُ نَذْبُهُ
وَأَبِيكَ مِنْ زَمَنِ التَّرَعْرُعِ لَمْ يَزَلْ دَابِيٌّ وَدَابُهُ
وَمِنَ الْعَجِيبِ لَدَى اللُّثَامِ عَطَاؤُهُ وَلَدَى سَلْبِهِ
أَنَا لَا أَبَالِي أَنْ رُمِيَتْ وَسَبَّ عَرَضِي مِنْ أَسْبِهِ
السِّيفُ يَرْمِي بِالْقُلُوبِ إِذَا قَسَفِي الصُّلْدُ ضَرْبُهُ
وَالْعَيْنُ يَدْمِيهَا الدُّبَابُ وَيَعِجْزُ الْأَسَادُ دَبُّهُ
وَالْتَّبْرُ يَعْلُوهُ السُّتْرَابُ وَلَا يَضُرُّ التَّبْرُ تَرْبُهُ
وَأَبِيكَ مَا نُكِبَ اللَّيْبُ وَفِكْرُهُ بَاقٍ وَأَبِيَّهُ

(١) شوكة النبات .

(٢) عبد الله بن شرف الدين الشبراوى المصرى ، كان من أساتذة الأزهر وله ديوان شعر أغلبه في مدح النبي وآله وشعره سهل وله غزل رقيق يُتغنى به يدل على ذوق سليم وخفة روح توفى سنة ١١٧٢
فمن مدائح في أهل البيت قوله :

قال لى قائلٌ : رأيتك تهوى آل طه ودائماً ترثيهم
كان حقاً عليك تستغرقُ العمرَ مديحاً فيهم وفيمن يليهم ؟
قلتُ ماذا أقول والكونُ طراً يستمدُّ الكمالَ من أيديهم ؟
أى معنى للمدح منى وقد جأء الكتابُ العزيزُ بالمدح فيهم ؟
أنا لا أستطيعُ أمدحُ قوماً كان جبريلُ خادماً لأبيهم

التأليف والمؤلفون

حال التأليف

نزل التأليف من مرتبته كثيراً وساء ترتيبه وتبويبه ، وأصبح تطويلاً لموجز ، واختصاراً لمطول ، وخبث فيه شعلة التفكير والنبوغ التي كانت تلمع وتختفي في كتب عصر المهاليك .

ومن أشهر المؤلفين في هذا العصر :

(١) شهاب الدين الخفاجى المصرى ، كان من أعلام هذا العصر في اللغة والأدب ، وأشهر كتبه "شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل" جمع فيه طائفة من الألفاظ الدخيلة والمعربة ، وضمنه مباحث مفيدة ، توفى سنة ١٠٦٩

(٢) عبد القادر البغدادى ، نشأ ببغداد وتردد على القاهرة ، وأشهر كتبه "خزانة الأدب ولُبُّ أبواب لسان العرب" ، شرح فيها شواهد شرح الكافية ، واستطرد في الأدب واللغة وتاريخ العرب ، وهذا الكتاب في اتساع مباحثه واستقصائها جدير بأن يوضع في مرتبة الكتب التي ألفت في عصور ازدهار التأليف توفى سنة ١٠٩٣

(٣) السيد مرتضى الزبيدي، ولد سنة ١١٤٥ ونشأ باليمن ثم حضر إلى مصر واتصل بأحد أمراءها، وخير تأليفه "تاج العروس في شرح جواهر القاموس" توفي سنة ١٢٠٥

المدارس

تقهقر التعليم

وقد أخذ ظل المدارس ودور العلم يتقلص فهجرها كثير من العلماء والطلاب لانتفاء الأوقاف المحبوسة عليهم، ولانصراف الدولة جملة عن الاكتراث بالعلم والتعليم، ولولا أن حفظ الأزهر في هذا الطور القائم بقية من العلم ودراسته لا نقطع اتصالنا العلمي بهذا العصر جملة واحدة.

النهضة الحديثة

من الحملة الفرنسية إلى الآن

اتصال مصر بأوروبا

كانت مصر في هذا العهد في شبه انقطاع تام عن الغرب، فلا يختلف إليه من أبنائها طلاب علم ولا تجار ولا رؤاد للزخمة ولا لغير ذلك من أسباب السياحات^(١) أما مصر نفسها فعلى الرغم من أنه كانت فيها طوائف شتى من الأمم الغربية ممن كانوا يطلبونها لتجارة أو يوفدون إليها من بعض دول الغرب ممثلين (قناصل) أو يهبطونها باحثين في آثارها وعادات أهلها ومعيشتهم فلم يكن اتصال هؤلاء بأهلها إلا بالقدر الذي تقتضيه حاجتهم. وهذا القدر لا يتسع لإدراك حضارتهم وما بلغوا من علوم وما حذقوا من فنون.

(١) فإذا كان قد سافر إليها أفراد من المصريين مثل إبراهيم الكبير الذي أخذه الانجليز وأسكنوه بلادهم نحو خمس سنين، فإن ذلك القدر لم يكن من شأنه أن يمتد أي صلة بين مصر والغرب.

والتعليم العالى فى ذلك الوقت كاد يكون محصوراً فى الأزهر ، تُدرس فيه علوم الدين من الفقه والأصول والتفسير والحديث وعلوم العربية من النحو والصرف والوضع والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع وتدرس فيه كذلك علوم النظر من التوحيد والمنطق وآداب البحث والمناظرة والفلسفة القديمة . وكان هناك اذاذ من العلماء يُعلِّمون الحساب والهيئة ، وأمشاجا من بعض العارم الأخرى .

على أن التعليم فى الأزهر وخاصة تعليم العربية ، كان قد استحال إلى ضرب من الفلسفة اللفظية ، واستغرقت المناقشات الجدلية التى شُحنت بها الشروح والحواشى والتعليقات القدر الأعظم من جهد الأساتذة والطلاب معاً . أما أبواب العلم وجوهره وطَلَبُ الغاية المقسومة له فكان لهما من التعليم أصغر الحظوظ .

ومهما يكن من شىء فإن فضل الأزهر لا يمكن أن يُجحد على الزمان ، فى حفظ علوم الدين والعربية فى تلك الحِقبة الطويلة التى امتُحنت فيها مصر بالفقر والجهل وسائر ألوان الفساد . ومما لا ينسى للأزهر أيضاً أن محمد على حين اعترم الاصلاح لم يرخيراً من أن يتخير من بين طلابه من يدرسون العلوم الحديثة فى مصر ثم فى أوربا . فعادوا وكانوا أئمة مصلحين .

الحملة الفرنسية

وفى سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) أقبل نابليون بونابرت فى أسطول بحرى مُعد بجميع أسباب القتال فى ذلك العهد ففتح الاسكندرية عنوة وتم له ذلك من غير كبير عناء . وبعد أن اطمان فيها بجيشه قليلا جعل يضرب فى أرض مصر غازياً حتى بلغ بلاد الجيزة . وبعد موقعة لم يثبُت فيها المماليك طويلا اجتاز بجيشه النيل فاحتل القاهرة قاعدة البلاد .

ولم يكن عجيباً أن يستولى "بونابرت" على مصر بمثل هذه السهولة وقد تهدم بنيانها وتصدعت أركانها بعسف الولاة العثمانيين وظلمهم ، وعبث المماليك وسوء حكمهم ، حتى لم يكن لهم من وسائل هذا الحكم الاموال الأذى على الأهلين وتلوين العذاب لهم ، والافتنان فى استخراج الأموال بمختلف الذرائع .

تخيم الجهل على البلاد وشاعت الفوضى ، وألح الفقر على الناس ، وتولتهم صنوف الأوبئة ، ما يدفعها عنهم إلا القدر وحده ، حتى تدلى سكان القطر إلى مادون الثلاثة الملايين .

تم للفرنسيين إذا فتح مصر الا ما كان من استقلال بعض الممالك ببلاد الصعيد وشن الغارات على الفاتحين الحين بعد الحين من بعض أطراف البلاد ، وإلا ما كان من انقضاض سكان القاهرة الفينة بعد الفينة على الجيش المحتل يخرجون اليه بعضهم ثم يرجعون وقد أصلتهم مدافعه وبنادقه ناراً حامية .

البعثة العلمية

وكان قد جاء مع بونابرت طائفة من العلماء والصناع لدراسة الحياة المصرية من جميع نواحيها ، وإقامة ما يحتاج اليه من المعامل والمصانع ، ولما استقر في مصر أنشأ مدرستين لتعليم أبناء الفرنسيين ، وأقام مكتبة جامعة ليراجع العلوم فيها من يشاء مراجعتها منهم ولقد دعا الفرنسيون كبار أعيان المصريين وعلمائهم الى زيارة الدار التي أعدوا فيها وسائلهم لمختلف العلوم والفنون وما جاءوا به من آلات وأدوات للطبيعة والكيمياء والأرصاد الفلكية وغير ذلك . فما كاد هؤلاء يطلعون على ما يصنع القوم بتلك الوسائل حتى بهر أكثرهم وظنوا أنه ضرب من السحر ، وما هو بالسحر ولكنه العلم الصحيح .

في ذلك الوقت أخذ المصريون — أو بعضهم على الصحيح — يفتنون إلى أن هناك حياة غير ما ألفوا من حياة ، وأن هناك علما غير ما عرفوا من العلم . وفي سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) أجلى الفرنسيون عن الديار المصرية ، أي بعد ثلاث سنين ذاق فيها المصريون من مر العيش ما لا يطاق . على أن حكم الولاة العثمانيين قد عاد اليهم ، كما عاد اليهم سلطان الممالك . وما برحت البلاد تعاني من هزلاء وهؤلاء ما لا يتصور من ألوان الظلم والعنت حتى كانت سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) إذ نودي بمحمد علي واليا على مصر .

محمد علي

قدم محمد علي الى مصر ضابطاً في الحملة التي وجهتها تركيا لاجراج الفرنسيين من مصر ، وكان راجح العقل ، شديد الذكاء ، واسع الخيلة ، عظيم الهممة ، واسع المطامع ، شجاعاً بلغ من قوة القلب حدا لا يثنى له معه عنان . وبهذه المواهب الجليلة استطاع أن يثب في رتب الجيش وشبا ، وأخيرا استطاع أن يجمع حوله أعيان المصريين وكبار علماءهم بلطف معاملتهم وحسن معاشرتهم فأحبوه وآثروه ، وأعانوه عند الحكومة التركية حتى قلده ولاية مصر وهي لذلك كارهة .

وكان أول همٍّ لمحمد علي في ولاية الحكم أن يتخلص من المماليك حتى يكشف عن البلاد ظلمهم ، ويخلص له وجهها غير منازع ، فأوقع بجهرتهم في القلعة سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) .

بعد ذلك وجه همته العظيمة الى أن ينشئ جيشا له كل ما لجيوش الحديثة من صفات الطاعة والنظام . مسلحاً بأجود آلات القتال . فعمد أولا الى ممالكه وبعث بهم الى الصعيد ليتعلموا فنون الحرب الحديثة على أيدي أساتذة من الافرنج . وفي سنة ١٢٤٠ (١٨٢٥ م) أنشأ في قصر العيني مدرسة حربية اعدادية ، وجمع فيها التلاميذ من طوائف مختلفة الاصريين ، غير أن هذه التجربة أخفقت فاضطر أن يجعل أكثر التلاميذ بعد من المصريي ، وكانت لغة التعليم الأساسية هي التركية ، وكانت تدرس الى جانبها العربية وغيرها . وكان قد سبق فأرسل طائفة من المماليك الى بعض البلاد الأوروبية لدراسة فنون الهندية .

ثم أنشأ مدرسة أركان الحرب في جهة أبي زعبل من ضواحي القاهرة ودعا لها بأساتذة من الفرنسيين .

مدرسة الطب

علمت أن هممة محمد علي اتجهت بادئ الرأي الى إنشاء جيش منظم مجهز بجميع الوسائل الحديثة ولم يكن في مصر الى ذلك الوقت أطباء ، اللهم إلا نفرا قليلا من الافرنج لتطبيب مرضى الجاليات الأجنبية . أما المصريون فكان مرضاهم

يعوذون بالمتطيين والدجالين . وقد يلمسون الوصفات لأمراضهم من الكتب القديمة كتذكرة داود وغيرها . وكانت اذا نشبت المعارك الحربية يدعى بالحلّاقين لياسوا الكوم ويضمّدوا الجروح . لهذا عمّد محمد على الى انشاء مدرسة طبية بجهة أبي زعبل في سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦) يقوم بأزائها مستشفى كبير ، ودعا لها بأساتذة من الافرنج وجمع طلابها من المصريين وغير المصريين ، وكثير من أولئك كانوا من متقدمى الطلاب في الأزهر ، وكان التعليم في هذه المدرسة شاقاً مجهداً فان أساتذتها لم يكونوا يعرفون العربية ، وطلابها لا علم لهم باللغات الافرنجية . فدعت هذه الضرورة الى أن يقوم بين الأساتذة وتلاميذهم مترجمون من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم ليؤدوا إلى هؤلاء بالعربية ما يلقى فيه أولئك بالافرنجية .

ايقاظه الشرق بحسن بلائه في السياسة والحرب

استمكن سلطان محمد على بما أعد من جيش قوى في البر ، وأسطول عظيم في البحر ، وعلم عالٍ يأخذ به أبناء البلاد ومعامل ومصانع أغنته عن كثير مما يرد من الغرب ، ومشروعات لارى ضاعف بها استثمار الأرض ، وغير ذلك من وسائل الاصلاح . ولقد استعانت به تركيا في اتحاد القتن في أطراف بلادها ، كما استعانت به في حروبها مع الدول الأخرى . كما تمكن بجيشه من فتح السودان ، كما اقتطع شطراً من أملاك تركيا نفسها بعد أن اشتهر الخلف بينه وبينها وكاد يظفر بمحاضرة ملكها لولا أن تألبت عليه الدول الأوربية وحُان بينه وبين غايته .

أما الأسطول الضخم الذى بناه محمد على فقد أحرقتة تلك الدول غيلةً في واقعة "ناثارين" ! وجملة القول أن محمد على لم يبعث بجيل همتة وعظيم اصلاحه مصر وحدها ، بل بعث معها الشرق كله ، فلقد كان لنهضته تلك دوى عظيم أيقظ الشرق بعد أن طال سباته وبعداً اطمأن على تطاول الأيام الى عيش الذلة والهوان . وذلك ما كانت تحسب له دول الغرب كل حساب .

تنظيمه العلاقات العلمية بين الشرق والغرب

سبق الكلام على أن مصر كانت منقطعة عن بلاد الغرب وتقدمت الإشارة كذلك الى أن الحملة الفرنسية جاءت معها ببعث من العلماء وأهل الفنون والصناع واطلع أعيان المصريين وكبار علمائهم على شيء من وسائلهم في سبيل العلم الحديث ، الا أن مصر عاشت مدة حكمهم ولم تُفد من هذا شيئاً ، ولا حقق لها هذا القدر أى اتصال علمى ببلاد الغرب .

حتى إذا قام محمد على لم ير أن يأخذها بخير من الحضارة الغربية ، فأتى بالعلماء والأساتذة وأهل الفنون من أوروبا ، وبعث البعث العلمية والفنية الى بلادها ، وأقام المدارس في مصر على نهج مدارسها ، وتقدم بترجمة ما يُحتاج اليه من كتبها في وسائل الحياة المختلفة . وبهذا وغيره انتظمت العلاقات العلمية بين الشرق والغرب ، وسيأتى توضيح ذلك .

اسماعيل واتمامه بناء جده

قُبض محمد على باشا في سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) بعد أن حكم مصر أكثر من أربعين سنة بعثها فيها من الموت بعثاً ، وأنهضها نهضة قوية تلقّت لها وجه التاريخ وما كاد المملك يصير الى حفيده عباس الأول حتى خبّت تلك النهضة ، فأغلقت المدارس ، وعطت المصانع ، وفوت تلك الحركة العظيمة التي تناولت جميع مرافق الحياة في البلاد . وكذلك كان شأن خلفه سعيد بن محمد على طول أيام حكمه . حتى إذا انتهت ولاية مصر في سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٦٣ م) الى اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على تأثر في سبيل الاصلاح خطأ جده العظيم ، وراح يُبني ما بنى لمجد مصر ، وقد ذلل له وجه هذا المطاب وجود كثير من فطاحل العلماء الذين أعدهم جده العظيم ، فبعث العلم بفتح المدارس المختلفة ، واستقدام خيار الأساتذة والمصلحين من بلاد الغرب . وايفاد البعث العلمية اليها ، ووجد في تشييد المعامل والمصانع ، كما وجههمة عظيمة الى الزراعة ، وهي كما لا يخفى عماد الثروة في مصر ، فشق الترع وبنى القناطر ، ونهض بغير ذلك من وجوه الاصلاح التي تقوم عليها الثروة والقوة والعلم والعظمة في كل البلاد .

مظاهر النهضة الحديثة في العلم والأدب

البعوث العلمية

لم يكن للبعوث العلمية التي أوفدها محمد علي في مبتدأ الأمر الى أوروبا شأن جليل . وأولها كان في سنة (١٨١٣ م) ، على أنه ما برح يوالى إرسال البعوث حتى كانت سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) إذ أوفد الى أوروبا بعثة عظيمة يزيد عدد طلابها على الأربعين ، أحرزوا قبل سفرهم قدراً صالحاً من التعليم والتثقيف . وظل بعد هذا يوفد البعوث العلمية الى مختلف البلاد الأوربية للتبحر في العلوم والفنون ، ولم يقنع بهذا بل أقام في باريس نفسها مدرسة جمعت نحو الأربعين طالباً فيهم بعض الأمراء من أولاده وأحفاده .

وكذا أتم طالب دروسه وشهد له أساتيدته بالبراعة والتبريز عاد الى مصر فوالى من الأعمال ما يصلح له ويتسق مع علمه ومواهبه .
ولما أفضت الولاية الى اسماعيل باشا هذا حدوه في جميع طرائق الاصلاح ومنها بعث البعوث .

الترجمة والتأليف

كان أول عهد مصر بالترجمة في هذا العصر ، ما قام به أولئك المترجمون الذين جاء بهم محمد علي ليؤدوا بالعربية الى طلبة مدرسة الطب ما كان يلقيه عليهم أساتذتهم من الدروس باللغة الأجنبية . فلما أخرج بعض هؤلاء الأساتذة بلغاتهم كتباً ورسائل في فنون الطب وأريد ترجمتها الى العربية جاء محمد علي بطائفة ممن تفقهوا في العربية لمعاونة أولئك المترجمين على تحرير العبارة وضبط المصطلحات العلمية بقدر ما اتسع له علمهم بالعربية وما عثروا عليه من مصطلحاتها . وكان هذا عملاً شاقاً مضنياً بحكم ذلك الجفاء الطويل بين العربية ولغات الغرب ، وبسبب فقر المصريين في ذلك العهد في العلم الحديث وفقدهم في العلم باللغة العربية نفسها .

على أنه منذ عودة طلاب البعثة الكبرى والذين من بعدهم تقدم شأن الترجمة
تقدما واضحا يتزودهم من العلم الحديث أولا ، واستفادتهم بسعى من سبقوهم ثانيا ،
وانتعاش اللغة العربية ثالثا .

وكانت جمهرة المترجمين أول الأمر من الأطباء ، لأن الطب أول العلوم
الحديثة التي عني بدراستها في مصر بعد العلوم الحربية ، ثم توالت الترجمة في العلوم
والفنون الأخرى على يد من تخرجوا فيها من الطلاب .

أما التأليف في العلوم الحديثة فكان في مبتدأ الأمر ضئيلا ، وكان أكثره من
وضع الأجانب الذين جاء بهم محمد علي لينتجى بهم وسائل الإصلاح المنشود ، على
أن المصريين قد جعلوا يقبلون على معالجته ، وخاصة من عهد اسماعيل حتى
بلغ اليوم غاية محمودة مازالت البلاد تتطلع منه الى المزيد ^(١)

(١) ومن أبرع من برعوا (في أثناء هذه النهضة) في التأليف والترجمة في فنون الطب والصيدلة — مرتين
على حسب تاريخ وفياتهم — ابراهيم بك النبراوي ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) ، وأحمد بك حسن الرشيدى ١٢٨٢ هـ
(١٨٦٥ م) ، ومحمد علي باشا البقلي ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) ، وأحمد بك ندى ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) ، وسالم باشا
سالم ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) ، ومحمد الدردي باشا ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) وحسن محمود باشا ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) .
ومن برعوا كذلك في العلوم الرياضية ترجمة وتأليفا : محمد بك بيوى ١٢٦٨ هـ (١٨٥١ م) ، وهبجت
باشا ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) ، ومحمود باشا الفلكي ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) ، وشفيق بك منصور ١٣٠٨ هـ
(١٨٩٠ م) ، ومختار باشا المصري ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) ، واسماعيل باشا الفلكي ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) .
ومن خير من ألقوا أو ترجموا في العلوم المختلفة في صدر هذه النهضة : الشيخ عبد الرحمن الجبرتي
١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) ، والشيخ شهاب الدين المصري ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) ، ورفاعة بك رافع الطحطاوى
١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) ، ومحمد قدرى باشا ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) ، وأحمد فارس الشدياق ١٣٠٥ هـ
(١٨٨٧ م) ، والشيخ عبد الهادي نجى البيارى ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) ، والشيخ حسين المرصفي ١٣٠٧ هـ
(١٨٨٩ م) ، والشيخ محمد بيرم ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) ، وعلى مبارك باشا ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) ، والشيخ
محمد العباسي المهدي ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) ، وعثمان بك جلال ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) ، وأمين فكرى باشا
١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) ، والشيخ ابراهيم اليازجى ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) ، وقاسم بك أمين ١٣٢٦ هـ
(١٩٠٨ م) ، وعمر بك لطفى (١٩١٢) ، وعلى أبو الفتوح باشا المتوفى سنة ١٩١٣ ومحمد بك التجارى
١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ، وأحمد فتحى زغلول باشا ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ، وجرى زيدان بك
(١٩١٤ م) ، واسماعيل سرهنك باشا (١٩٢٥ م) ، والشيخ محمد بك الحضرى (١٩٢٦ م) .

ولا شك في أن هذه النهضة الحديثة مديية في مستهلها لشيخ المترجمين على الاطلاق رفاعة رافع بك ،
كما أنها مديية لأكبر السابقين من المؤلفين الوزير المصلح العظيم على مبارك باشا .

المدارس والمطابع

لم يلبث مجد على طويلا حتى جعل ينشر التعليم بجميع أنواعه ودرجاته ، فأقام نحو خمسين مدرسة ابتدائية بثها في أرجاء القطر المصري ، وأقام مدارس عدة تجهيزية وخاصة . ومن هذه مدارس الهندسة ، والتعدين ، والفنون والصناعات ، والطب ، والطب البيطري ، والزراعة ، والألسن وغيرها . وجاء لهذه المدارس كلها بأساتذة من الأجانب ومن المصريين الذين تخصصوا بما يدرس فيها من العلوم والفنون .

ولقد تابع حفيده اسماعيل سعيه في هذا حتى أزهى العلم وآتى من الخير ما لا يزال تشهد من آثاره ونجى من ثماره .

ومن أهم المدارس العالية التي أنشأها اسماعيل مدرسة دار العلوم التي عادت على اللغة العربية يجليل النفع ، والتي كانت من أقوى العوامل في بث صحيح العربية وطبع الملكات على فصيح البيان .

الأزهر

واقف ظل الأزهر على شأنه الذي تقدمت الإشارة إليه حتى نهض المصلحون داعين إلى أخذ طلابه بقسط من علوم الحياة كالتاريخ وتقسيم البلدان والعلوم الرياضية ، فلقى هذا أول الأمر شيئا من المعارضة ، على أن الأزهريين لم يلبثوا طويلا حتى أطأ نوا إلى هذه العلوم وأقبلوا جاهدين على دراستها . ثم ما لبثوا هم أن هبوا يطلبون الإصلاح في جميع أنواع التعليم في الأزهر والمزيد من علوم الحياة . وقد عولج هذا الإصلاح بمشروعات عدة . وما زال يعالج إلى اليوم .

أما المطابع فلم يكن للمصريين عهد بها إلى أن قدمت الحملة الفرنسية وجاءت معها مطبعة مزودة بالحروف اللاتينية والحروف العربية ليطلع على هذه ما تريد إذاعته على الأهلين من الأوامر والمنشورات . ولقد تركوها فيما تركوا ، حتى إذا كانت سنة (١٨٢١ م) وشرع مجد على يتبسط في فنون الإصلاح ومنها التعليم ، اتخذ

Amr
Mansour

من هذه المطبعة نواة لتأسيس مطبعة عظيمة دعيت أولا المطبعة الأهلية ، ثم أطلق عليها مطبعة بولاق « الأميرية » وكان قد تقدم بتدريب طائفة من الشبان على صناعة الطباعة في فروعها المختلفة . وكانت هذه المطبعة في مستهل أمرها مقصورة على طبع حاجات الحكومة ، ثم جعلت تطبع الكتب الدراسية وتتوسع في طبع الكتب في العلوم والآداب باللغات العربية (مؤلفة ومترجمة) والفرنجية والتركية والفارسية وكان القسم الذي يقوم بطبع الكتب يُسَمَّى « بالقسم الأدبي » وأخيرا شُطِرَ هذا القسم وأضيف إلى دار الكتب المصرية تطبع فيه هذه الدار ما ترى بعثه من الكتب القديمة في العلم والأدب وما تشاء طبعه للأفراد .

ولم يكن للأهليين مطابع في صدر هذا العصر الذي يتدبى من الحملة الفرنسية . وظل الشأن كذلك حتى كانت أخريات حكم سعيد باشا ، إذ أنشأت الدار البطريركية مطبعة دعيت « المطبعة الأهلية القبطية » ثم تولى إنشاء المطابع بسبب كثرة المتعلمين وازدياد الرغبة في الترجمة والتأليف وإحياء الكتب القديمة وانتشار الصحف السيارة . ولقد ظلت المطابع تكثر وتوسع وتدرج في سنة الاجادة والانتقان متابعة بهذا مطابع الغرب حتى بلغت في تجديد الطباعة والتصوير ما تراه الآن .

احياء الأدب القديم

وكان من آثار تلك النهضة في التعليم من جهة ، وانتشار المطابع من جهة أخرى ، أن أقبل الناس — وخاصة من عصر اسماعيل — على دور الكتب ، بجعلوا يستخرجون ما فيها من الذخائر المجهّوة من قديم الزمان في فنون الآداب ، ويقومون على استنساخها وضبطها وطبعها وإشاعتها ، فخرج من ذلك الوقت إلى اليوم ما شاء الله من معاجم اللغة ، ودواوين السابقين من فحول الشعراء وما جرت به أقلام أئمة البيان في العلوم والآداب . وأقبل المتعلمون على قراءتها وإجالة الفكر في أغراضها ومعانيها ، وترشف بلاغاتها ، وتقليب الألسن والأقلام في عباراتها وصيغها مما كان له أبلغ الأثر في طبع الملكات على البلاغة الصادقة والبيان السليم .

الصحف

ولم يكن لمصر عهد بالصحافة حتى قدمت الحملة الفرنسية . وما كاد يستقر لها الأمر حتى أخرجت صحيفتين فرنسيتين ، وكان من أنظمة حكم الفرنسيين في مصر أن ألفوا من بعض العلماء والأعيان ديوانا للقضايا ، وأصدروا نشرة عربية دورية تتضمن ما يجرى فيه ، ودعيت هذه النشرة "التنبيه" وكان يقوم على تحريرها رجل من كبار المتأدبين في ذلك العصر يدعى السيد اسماعيل الخشاب . وقد طويت هذه الصحيفة بخروج الفرنسيين من هذه البلاد .

ولما صار أمر الحكم في مصر إلى محمد علي كان مما ابتغى من وسائل الإصلاح أن أنشأ في سنة ١٨٢٨م "الوقائع المصرية" . وكانت صحيفة بالمعنى المعروف ، أي أنها تُعنى بنشر الأخبار التي تم للجهور ، والمقالات التي تجول في مختلف الشؤون العامة ، بقدر ما كان يأذن به نظام الحكم ودرجة التعليم والاستنارة في ذلك الزمان . وما زالت ترقى في هذا الباب برقى أقلام من يتعاقبون عليها من المحررين ، إلى أن رأت الحكومة من عهد غير بعيد قصرها على نشر الشؤون الرسمية ، من قوانين ومراسيم وقرارات وزارية ، ولوائح ادارية ، ونحو ذلك . وما زالت تظهر الى الآن مرتين في كل أسبوع .

ولقد ظلت "الوقائع المصرية" الجريدة الفدّة التي تصدر في مصر الى أن كان عهد الخديو اسماعيل ، إذ أنشأ محمد علي باشا الحكيم بمعونة الشيخ ابراهيم الدسوقي وهو من المحررين المعروفين في ذلك الوقت صحيفة باسم "العسوب" قصرها على البحث في الموضوعات الطبية . وفي سنة ١٨٦٦ م أصدر عبد الله أبو السعود افندى من المتعلمين العارفين لبعض اللغات الأجنبية صحيفة سياسية دعيت "وادي النيل" فكانت أول صحيفة سياسية أهلية ظهرت في هذه البلاد . ثم توالى إصدار الصحف السياسية والأدبية وعظم شأنها أول الأمر بمن قدم مصر من كتّاب السوريين الذين مارسوا فن الصحافة وحقوه .

وما زالت الصحافة في مصر ترقى برقى الأفكار والتوسع في الحريات ومنها حرية الصحافة ، وبازدياد اهتمام الجمهور بالشئون العامة . حتى بلغت ما ترى اليوم من فصاحة العبارة ، وغزارة المادة الفكرية ، والعناية بتجوى الأخبار والاسراع الى نشرها ، والتبسط في أبواب السياسة القومية والسياسة العالمية . وإيراد ما يخرج في أرجاء العالم من المخترعات ويتجلى من المستكشفات . إلى ما عنيت به أخيراً من أفراد صحائف خاصة منها للبحث في أبواب العلوم والفنون والآداب .

وقامت بجوار الصحف السياسية صحف أخرى تدعى "المجلات" وهي تقتصر عادة ، على نشر البحوث العلمية والأدبية والفنية ، وإيراد مستملح الطرف ترفيها عن القارئين .

وقد كانت الصحافة — وما برحت — من العوامل القوية في إيقاظ الأفكار وإثارة الأذهان ، وبث الثقافة ، وتقويم الحكومات ، وبعث هممة الجمهور لكل سعى قوى جليل .

وهناك فضل آخر للصحافة المصرية يجب أن نثبته في هذا المقام . ذلك أن حضارتنا القائمة إنما بنيت على الحضارة الغربية ، فكل ما تلقيناه من العلم الحديث كان ممن تعلموا لغات الغرب ، وترجموا عنها إلى العربية مختلف الكتب في العلوم والآداب . وهؤلاء تأثرت لغتهم ، بقدر ما ، بلغات الغرب ، كما اضطروا في البيان إلى أن يعدلوا في أسلوب العربية وكثير من صيغها طوعاً للأسلوب الذي نقلوا عنه ووفاء بحاجة أغراض ومعان لم تكن معروفة في العربية ، أو كانت في العربية ولكنهم لم يهتدوا إليها ، وهناك ضرب من الكتاب لا يعينهم إلا أن يحتذوا حذو القديم . وهناك كتاب آخرون أخذوا من هذا ومن ذلك . وبذلك تباينت الأساليب وتفاوتت اللهجات ، وخاصة في مطلع الأمر . فكان من أثر انتشار الصحف ووقوعها بأيدي جميع الكتاب ومن عداهم من المتعلمين أن جعلت لهجات الكتاب تتقارب على الزمن ، شيئاً فشيئاً بما يمد به بعضهم بعضاً ، ومالوا في اختيار الأساليب إلى ما يؤدي الأغراض وتستقيم به العربية الصحيحة ، ونفى ما يشمس على الآذان ، وينبو عنه صحيح البيان .

التمثيل

لم يكن لمصر كذلك عهد بالتمثيل الا ما كان من ملاعب المقلّسين في الأسواق
والمواسم والحفلات الخاصة حتى كان حكم اسماعيل ، وكان جد حريص على أن
يأخذ بلاده بجميع أسباب الحضارة الغربية . فشيّد "الأوبرا" الخديوية في سنة
(١٨٦٩م) بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، ودعا اليها بفرقة افرنجية
مثلت فيها أول مرة رواية "عائدة" باللغة الفرنسية . *المسرح الجديد*
وكان السوريون قد سبقوا الى معالجة فن التمثيل ، فقدمت الى مصر فرق
من ممثلهم تباعا ومن أمثالهم الشيخ خليل القباني ، وسليمان افندي القرداحي ،
وفرّح افندي أنطون ، وظل المصريون دهرا لا يرضون بممارسته لأنهم لم يكونوا
يرون فيه بادئ الرأي ، الا ضربا من اللعب والعبث ، الى أن تقدم الشيخ سلامه
حجازي الى التمثيل والانشاد وذلك في أعقاب الثورة العراقية ، فتبعه الى التمثيل عدد
يسير من المصريين وما زالوا على الزمن يقبلون عليه حتى أصبحوا اليوم الكثرة
الغالبة فيه .

وأما المصريات فقد أحجمن عن الدخول فيه بتاتا الى وقت قريب بحكم
التعاليم الدينية والتقاليد المأثورة ؛ ولكنهن أقبلن عليه أخيرا طوعا لتطوّرات الزمان .
والتمثيل العربي بدأ كما يبدأ كل شيء ضعيفا خائرا لا يطلب منه الا مجرد اللهو
والاستمتاع بالأصوات الرخيمة ؛ ولكنه ظل يتدرج في طريق الدقة والاتقان
من جميع نواحيه ، حتى صار فناً بل فنونا لكل منها أساليبه وآدابه .

والتمثيل فوق انه أداة للتسلية وتفرّج النفس ، قد يكون وسيلة من وسائل
تنبيه الأذهان بتجلية عبرة تاريخية ، أو بمعالجة مسألة اجتماعية ، أو بالابانة الواضحة
عما يحمل الاثم في نفسه من العقوبة . وما يُيجن الخير في صدره من المثوبة .

نهضة الأدب في أيامنا

تمهيد

يمكن القول بأنه في صدر هذا العصر الذي نتحدث عنه ، أى في أيام الحملة الفرنسية ، كانت الصلة منقطعة بين المصريين والأدب العربى القديم . وذلك بطول جفائهم لكتبه ، وعدم مراجعتهم لروائع آثاره التى ظلت منبوذةً فى مطارحها من الجوامع والأضرحة ومكتبات الحكام وغيرهم . وكانت كل مادة الأدب التى يعيش عليها المصريون فى ذلك العهد ما تسرب اليهم عن سلفهم القريب بعد أن جف الأدب ونضب ماؤه ، وحالت بهجته وذهب رواؤه ، ودارت مطالب الشعر بنوع خاص فى أضيق الدوائر ، من غزل خائراً ظاهر التكلف ، ووصف لا يبرز لك أية صورة رائعة من صور الكلام ، وهجاء بارد مرذول ، ومديح لا تتسع له دائرة القبول ، وقد تجردت الهمم كلها فى طلب المحسنات البديعة يزين بها وجه القول تزييناً .

أما علوم البلاغة فقد ضُبطت فى قواعد جافة لا يمكن أن تطبع الملكات على الفصاحة ولا أن تُشعر الأنفس رُوح البيان ، فضلاً عن أن شراح تلك القواعد ومن تطوعوا للتعليق عليها قد خرجوا بها الى ضرب من الفلسفة والجدل اللفظى الذى ان أدى فهمه بعد المطاولة وشدة الجهد الى إنماء ملكات الجدل والقدرة على التماس العلل ، فانه لا يؤدي الى شىء عقدت لأجله كتب البلاغة بأى حال . ولم يكن يحرص أكثر الكتّاب الا على قواعد الإعراب ، فلما أسس مجد على مدرسة الطب كما أسلفنا وأخرج بعض الأساتذة الأجانب كتباً ورسائل فى لغاتهم أريد ترجمتها ضمُّ إلى المترجمين جماعة من الأشياخ الذين أخذوا من العربية بحظ ليضبطوا الألفاظ والصيغ العربية بازاء المعانى القائمة فى اللغة الافرنجية ، فكان هذا من أول مادعا الى مراجعة الكتب القديمة لالتماس المصطلحات الفنية التى وضعها الأقدمون فى الطب والاقرباذين .

على أن التعليم على المنهج الحديث في ذلك العهد لم يُجدد على الأدب بادئ الرأي ، شيئاً . وإن وسع في أعراض المؤلفين والكتّابين وفسّح في معانيهم ، لأنهم لم يستطيعوا أن يفرغوها إلا في لغة شبيهة بالعامية ، يخالطها كثير من الصيغ التركية ، والمصطلحات الافرنجية .

وظل شأن الأدب كذلك دهرا حتى أزهرت النهضة العلمية ، وأحسن المتعلمون شديد حاجتهم إلى لغة يصوغون بها ما يجول في صدورهم من المعاني ، وقامت المطبعة الأميرية بطبع طائفة من الكتب القديمة في اللغة والآداب . من ذلك الوقت جعل الأدب العربي في مصر يتخذ له سمياً آخر . وتم هذا في عصر اسماعيل ، وخاصة بعد أن أنشأ المكتبة الخديوية ، وجمع فيها قدرا عظيما من نفائس الكتب القديمة فأضحت مثابة المطالعين والنساخ والطابعين .

ومن حين طالع الناس الأدب القديم وتذوقوه راحوا يطلبون كتبه ويقبلون النظر في بدائع صيغه وروائع أساليبه ، وانطلقوا يتكلفونه إذا هم كتبوا أو خطبوا ، وكلما اطرد الزمن ازدادوا منه قربا ، وله حبا .

ولكن لا يذهب عنك أن حضارتنا الحديثة ليست قائمة في جميع نواحيها على الحضارة العربية القديمة ، حتى نجري في أدبنا على سبيل العرب ، ونترع منازعهم في تصورنا للأشياء ، وحكمنا عليها ، وطريقة تصويرنا لها ، فان حضارتنا في الواقع إنما تقوم على الحضارة الأوروبية الحديثة ، فنحن نأخذ عن أوربا فنونها ، ونهمل من علومها ، ونجري في أكثر وسائل الحياة على سبيلها ، هذا إلى أن بيننا كثيرا ممن تتقفوا بثقافتها ، وحذقوا لغاتها ، وتفقهوا في آدابها ، واستراحت آذانهم إلى موسيقاها ، فتأثروا بكل ذلك — من غير شك — في طريقة تفكيرهم وتقديرهم إلى حد كبير ، وهؤلاء أثروا في غيرهم ممن لا يجيدون اللغات الافرنجية . لهذا ترى الأدب المصري القائم وإن كان حق حريص على لغة العرب في مفرداتها وصيغها وأساليبها ، قد تأثر بأسباب الحضارة الغربية في أغراضه ومنازعه إلى مدى بعيد .

وهنا ينبغي أن نقف وقفة قصيرة نلم فيها بأسماء أبلغ الرجال أثرا في نهضة اللغة والأدب في العصر الحديث :

١ - رفاة بك رافع الطحطاوى

المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م)

لقد كان رفاة بك مع رجال البعثة الكبرى التى أوفدها مجد على إلى باريس فدرس اللغة الفرنسية حتى برع فيها. ودرس التاريخ وتقويم البلدان، ولما عاد إلى مصر تولى الترجمة فى العلوم المختلفة من طب ورياضة وقانون وفنون عسكرية. وقام على نظارة مدرسة الألسن التى أنشأها مجد على لتخريج المترجمين. ثم على قلم الترجمة الذى أُلّف من تلاميذ هذه المدرسة.

وإذا علمت أن اللغة العربية كانت فى ذلك العهد فى شبه انقطاع تام عن لغات الغرب، قدرت مبلغ ما عانى رفاة بك فى ترجمة هذه العلوم الحديثة إليها، وما جاهد فى استخراج المصطلحات العربية لأداء معانيها الفنية، و قدرت بعد ذلك مبلغ ما أجدى فضل رفاة بك على هذه النهضة العظيمة. هذا إلى فضله الكبير فى تخريج خيار المترجمين الذين أعانوه أولاً، وأتموا ما بنى لنقل العلم إلى هذه البلاد، ولرفاعة بك فوق هذا مؤلفات قيمة فى فنون مختلفة.

٢ - على مبارك باشا

المتوفى سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م)

لاشك فى أن على مبارك باشا يعد فى أوائل الرجال الذين كان لهم أوفر حظ فى بعث النهضة الحديثة، وواه اسماعيل باشا ديوان المدارس (نظارة المعارف) فاضطلع باصلاح التعليم وأخذ المدارس المصرية بكل ما تهيأ له من ضروب النظام. كما كان له أعظم الفضل فى إنشاء المكتبة الخديوية التى تعد الآن من أعظم المكتبات فى الشرق كله. وكان نفسه قوة لا تنى عن اذكاء الهمم لطلب العلم، يتوافر على هذا نهاره فى ديوانه وفى طوافه على المعاهد سائلاً ممتحناً مرشداً مشجعاً، وفى ليله يجلس فى داره مجلساً عاماً يغشاه من شاء من الأساتذة ومن متقدمى التلاميذ فيحاضرهم ويذاكرهم ويوجههم إلى البحوث المختلفة فى أبواب العلم والأدب ويشيب المجدد الموفق منهم. وأما فضله على اللغة والأدب بوجه خاص فبإنشائه مدرسة دار العلوم، ولقد كانت من أغزر ينباعى التى نهل منها المصريون أدب العرب القديم.

٣ — الشيخ حسين المرصفي

المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م)

كان من أول من عُني في هذا العصر باللغة وآدابها ، وآثار أعلام البيان من جاهليين وإسلاميين بحد وبحث وفصل قواعد البلاغة في كتابه « الوسيلة الأدبية » على نظم بديع ، وأظهر كثيرا من آيات البيان العربي الذي أهمله متكلفو الأدب من زمان طويل . فله أثر بليغ في بعث الأدب القديم ، وتوجيه المتأدين إليه ، واستدراجهم نحوه حتى أقبلوا عليه وتذوقوه وراحوا يشاكلونه إذا هم نظموا أو أرسلوا الكلام .

ولم يكن أثره مقصورا على التأليف وحده ، بل لقد حاضر في هذا الباب كثيرا ، وكتب في الصحف كثيرا ، وعلم في دار العلوم طويلا . وكان من حسن أثره أن دفع الأدباء الى تلمس الأدب الصحيح وإلى مشاكلة المتقدمين من أئمة البيان ، كما كان أسلوبه العربي المرسل الفصيح قدوة لكثير من الكتاتين .

٤ — السيد جمال الدين الأفغاني

المتوفى سنة (١٨٩٧ م)

لقد كان أثره في نهضة البيان العربي غير مباشر: ذلك بأنه لم يكن فقيها في لغة العرب ، ولا متقصيا لأسرار بلاغاتها ، بل لقد كان أجنبيا عنها ؛ على أنه كان إذا تكلم بها أو كتب تحرى صحة اللفظ وصحة التركيب بقدر ما يتسع له ذرعه . ولكنه كان رجلا شديد العقل ، قوى النفس متسعرا الذكاء ، جمع إلى علوم الفلسفة القديمة العلم بالشئون العامة في العالم ، وتجرد بعث الشرق من رقدته ، وانهاض الأمم الإسلامية . وهبط مصر في عهد اسماعيل فاتصل به طائفة من نجباء طلاب الأزهر وغيرهم فكان يعلمهم فنونا من العلم ، ويبت فيهم في

خلال دروسه وفي أسماره دعوة جريئة أولها الاستمتاع بالحرية كاملة في القول والعمل ، وذايتها دفع أعم الشرق عامة والأمم الإسلامية خاصة إلى العمل القوي حتى تتمتع بحياة الحرية والعزة والاستقلال .

• وكان يدرب طلابه على هذا باللسان والقلم ، وكان خطيبا قديرا فهيا بمصر ملكات الخطابة والكتابة ، حتى كانت جمهرة خطباء الثورة العربية من تلاميذه . أما أثره في الدّباب فكان في توجيه عنايتهم إلى المعنى بعد أن كانت مصروفة كلها إلى اللفظ ، ولقد دعا هذا إلى القصد في تقديم المقدمات ، وكانت العادة جرت بالإسراف فيها إلى الحد الذي قد يضع الغرض الذي سبق له الكلام ، كما دعا إلى عدم الاهتمام بزخرفة الكلام بفنون المحسنات البديعية .

٥ - الشيخ محمد عبده

المتوفى سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥ م)

هو أكبر تلاميذ السيد جمال الدين الأفغاني . وقد عالج الكتابة في الصحف في أوائل عهده بطلب العلم في الأزهر ، فكان يجرى على عادة أهل عصره في الترام السجع ، والتمهيد بين يدي الموضوع بالمقدمات الفلسفية . ثم ما برح قلمه يرقى ويعلو بتثقيف أستاذه ، وازدياد حظه من العلم ، وبمراجعة كتب الأدب القديم وخاصة « نهج البلاغة » الذي عالج به شرح لطيف حتى جرى قلمه على أسلوبه ونضح بما يشبه فصاحته . وكان حقيقا بشدة نفس الشيخ محمد عبده وقوة روحه ، وما تجرد له من الدعوة الصارخة إلى الإصلاح أن تجتمع لقلمه تلك الفحولة وهذه السطوة في الكلام .

وكان ، بعد هذا ، داعيا إلى البيان الصحيح بما استخرج من أجل كتب البلاغة (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني) وتدريسها بنفسه في الجامع الأزهر .

٦ — ابراهيم بك المويلحي

المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦ م)

وقد نجم من أسرة تتجبر في الحرير، وهي ذات حسب وغنى؛ على أنه من شباب السن قد هفت نفسه الى العلم والأدب فطلبهما في أمهات الكتب، وجعل يختلف الى أئمة عصره من أمثال السيد جمال الدين الأفغاني . والمويلحي في هذا العصر من أوائل من فحصوا عن الأدب القديم وراجعوه وتدوقوه وحفظوا من روائع آياته قدرًا جليلا . وقد تعلم الفرنسية ، وحذق التركية . وكان له ولع خاص بالتاريخ ، فكان يديم النظر في كتبه ، ويتفطن من دقائق حوادثه وغرائب نوادره الى ما لا يتجه اليه كثير . وقد اتصل بالملوك ودخل في بطانة الأمراء ، وعاشر الحكام ، وعالج السياسة العامة بالقول والعمل . وهو بعد رجل قد اجتمع له الى شدة الفطنة كمال الذوق وسلامة الطبع . فما إن أطلت يراعته على متون الصحف حتى راع المتأديين في عصره نوع من البيان غريب : جزالة لفظ وانسجام عبارة ، وحلاوة أسلوب ، ولطف استشهاد ، ووقوع على الدقائق العجيبة ، واستخراج للعاني الطريفة . واعله قد احتذى الجاحظ في نقد الأشخاص وتحليل نفوسهم والنفوذ الى مطاويها ، وتصويرهم بعد هذا في صور توزع همك بين الضحك والاعجاب .
وجملة القول ان ابراهيم بك المويلحي فوق أنه من أوائل من جرّوا في البيان على نهج المتقدمين كان له أسلوب خاص مازال مثالا يحتذيه كثير من الكتّاب الى اليوم .

٧ — الشيخ ابراهيم اليازجي

المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م)

وكان لأبيه حظ من الأدب وعلوم العربية جليل ، وقد توقّر عليها ولده من أول نشأته حتى برع فيها ، وتجبر في فقه اللغة . وكان الى هذا شاعرا متينًا . وكتبًا رصينًا . وهو من أوائل من عالجوا النقد اللغوي في مصر في مجلتي البيان والضياء . ولقد دأب طوال حياته على تنبيه المتأديين الى أغلاطهم في المفردات والتراكيب والكشف لهم عن الأخطاء الشائعة من الزمان البعيد ، وردّهم بعد ذلك فيها الى العربي الصحيح ، فكان أثره بليغًا في بعث الأدباء الى تحرى صحة الألفاظ وتأليف الكلام على قوانين العربية الخالصة .

ولليازجى فى هذا الباب فضل آخر : ذلك بأنه من أعظم من عنوا فى خلال النهضة الأخيرة بالتماس المصطلحات العربية للعانى الفنية التى جاء بها العلم الحديث .

٨ - الشيخ حمزة فتح الله

المتوفى سنة (١٩١٨م)

كان كاتباً وشاعراً ، اشتغل فى أعقاب الثورة العربية بالتحريير فى الصحف ، ثم انقطع إلى تدريس اللغة العربية حتى ولى رئاسة التفتيش الخاص بها فى وزارة المعارف . وكان فى فقه اللغة إماماً جليلاً ، واطلعه على شعر السابقين ومأثور كلامهم عظيماً .

والشيخ حمزة وان كان مولعاً بالغريب يتحراه ويتعمده اذا كتب أو نظم أو تحدث حتى ما يكاد يفهم قوله سيقى فضله على هذه النهضة مأثوراً إلى زمان طويل بما أشاع من صحيح لغة العرب ، وما كشف للناس عن أخطأهم الفاشية وبما علم من تلاميذ ، وما نبه فى تفتيشه من أساتيد .

٩ - حفى بك ناصف

المتوفى سنة (١٩١٩م)

كان شاعراً يجمع بين الرقة والجزالة ، حاضر البديهة متدفق القريحة تجدد لشعره حلاوة وسلاسة وخفة لكثرة ما يقع فيه من بارع التحف ورائع النكت . وكان كاتباً رصيناً ، اذا هو التزم السجع فى النثر الأدبى على حكم العصر الذى نشأ فيه كانت أسجاعة قوية موفقة ، لا ضعف فيها ولا تعسف ، وليس فيها ما لا تدعو إليه حاجة الكلام . لذلك كان قدوة يحتذىه المتأدبون فى تعمد المتانة فى النسج واللباقة فى السجع .

وكان حفى بك فوق هذا فقيهاً فى لغة العرب ، متمكناً من علومها ، حافظاً لكثير من مأثور آدابها . ولم يقصر أثره فى هذه النهضة على ما نظم وما نثر ، بل لقد علم وهذب وألف . وكان واحداً من خير أولئك الرجال الذين ذلوا للتلاميذ تعلم العربية بما وضعوا لهم من كتب أجروها على نهج فى التأليف حديث . ولقد كان لهذه الكتب أثرها الحسن .

الشعر

محافظة في الجملة على نهج الأدب القديم

تقدمت الإشارة الى أن الضعف قد تناول الشعر فيما تناول من مظاهر الحياة في مصر ، سواء في الأغراض والمعاني ، أم في النسيج والصيغة .

ولقد كان من متقدمي الشعراء في صدر هذا العصر الذي نتحدث عنه السيد اسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) ^(١) والشيخ عبد الرحمن الجبرتي المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) ^(٢) والشيخ حسن العطار المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) ^(٣)

ولقد ظل الشعر في مصر على هذه الحال دهرًا الى أن كان عصرُ اسماعيل فتأثر ، بقدر ما ، في صياغته ونسجه ، وفي أغراضه ومعانيه بالرجوع الى الآداب القديمة

(١) قال السيد اسماعيل الخشاب متغزلاً :

يا شقيق البدر نوراً وسنا وأخا الغُصن اذا ما انعطفا
يا أبي منك جيناً مشرقاً لو بدا للنيرين انكسفا
بغيتي منك رضاب ورضا وعلى الدنيا ومن فيها العفا

الكتاب

(٢) قال يصف بركة الفيل :

انظر الى بركة الفيل التي نخرت لها الغزاة نخرًا من مطالعها
وخل طرفك محفوقاً بيهجتها تهيم وجدًا وحبًا في بدائعها

الحدثي

(٣) قال يصف بركة الأزبكية :

بالأزبكية طابت لي مسرات ولد لي من بديع الأسس أوقات
حيث المياه بها والفلك ساجحة كأنها الزهر تحويها السماوات
وقد أدير بها دور مشيدة كأنها لبدور الحسن هالات
والماء حين سرى رطب النسيم به وحل فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع فوقها نقط من فضة واحمرار الورد طعنات

العطار

من جهة . ودخول العلوم الحديثة من جهة أخرى . وكان من الشعراء المصريين في ذلك الحين الشيخ علي أبو النصر المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨٠ م) ^(١) وعبد الله باشا فكري المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) ^(٢) والشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٦ م) .

وقد طفر الشعر طفرة عظيمة على لسان محمود باشا سامي البارودي فهو الذي رد الشعر العربي الى أزكى أيامه ، حتى شاكل الشريف الرضي في جزالة الشعر ومتانة النسيج وقوة الكلام ، ولم يتخلف عن متقدمي الشعراء في شيء من مطالب الشعر ، فلقد تغزل كما تغزلوا ، ووصف كما وصفوا ، ووقف بالديار ، وبكى النوى

(١) قال متغزلا :

أسرت بمرهف الألفاظ قلباً
بروحى أفنديك ومن لصب
هواك بمهجتي لو أنكرته
هتكت بدمعي الجارى هواك
مجال أن أعيش بغير سقم
متى أحرمت أجفاني لقاكا

وقال مادحاً :

أصاحت الخيل آذاناً لصرخته
تعشق الدرع مذ شددت لفائفه
تعلم الركض أيام الخفاض به
واهتز كل هزبر عند ما عطسا
وأبغض المهد لما أبصر الفرسا
فما امتطى الخيل الا هو قد فرسا

(٢) قال في استعطاف المغفور له توفيق باشا :

كأني توجّه وجهه الساحة الكبرى
وقف خاضعاً واستوهب الاذن والتمس
وبلغ لدى الباب الخديويّ حاجة
لدى باب ستمح الراحتين مؤمل
مليكي ومولاي العزيز وسيدي
لئن كان أقوام على تقولوا
حلفت بما بين الخطيم وزمزم
ولا كانت لي في الشر باع ولا يد
وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرا
قبولاً وقبلاً سدة الباب لي عسرا
لذي أمل يرجو له البشر والبشري
صَفُوح عن الزلات يلتمس العذرا
ومن أرتجى آلاء معروفه العُمرَا
بأمر فقد جاءوا بما زوروا نُكرا
وبالباب والميزاب والكعبة الغرا
ولا كنت من يبغى مدى عمره الشرا

الشعر العربي

شعر توفيق باشا

والأحجار ، ومدح كما مدحوا ، ولكن في قصيد وانصاف ، وهجا كما هجوا ولكن في غير إغماش ولا إسراف ، وعاتب الاخوان ولكن في غير قلة ، وشكا الزمان ولكن في غير ذلّة . على أنه قد أربى عليهم بما جال في فنون المعاني التي تجلت بها الحضارة الجديدة ، وما وصف من مخترعات أخرجها العلم الحديث .

والعجيب أن طبيعة العصر الذي نشأ فيه البارودي والبيئته التي نجم فيها ونوع التعليم الذي قُدّر أن يؤخذه ، لم يكن من شأنها أن تطبع مثله على كل هذا البيان ! ولكنها الموهبة الالهية التي يختص بها الله من يشاء من عباده .

وإذا كان هناك أثر للجهد في شاعرية البارودي فمن حفظه لشعر المتقدمين وتقليب نظره في دواوين فحول شعرائهم من أمثال أبي نواس وأبي تمام والبحتري والشريف الرضي والمتنبي بدليل معارضته لكثير من قصائدهم واختياره الجيد من شعرهم في كتاب ممتع يتألف من أربعة أجزاء . وكان أكبر معوان له على طلب دواوين السابقين من الشعراء وتحرى صحة العبارة أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصفي الذي سبقت الاشارة اليه .

وللبارودي في هذا الباب مزيتان لا يحصيها التاريخ لكثير من رجال التاريخ ، أولاها : أنه انفرد من بين الشعراء في مصر بهذه القوة زمانا طويلا غير مشارك ولا مدافع . والثانية : أنه على إكثاره وضربه في كل فنون الكلام ، كان أكثر شعره جيدا (١)

(١) قال البارودي يصف الحرب :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا
ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزين للناس الفرار من الردى
وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا
سقينا بكأس لا يفوق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها
وانى صهيرات ألم بنى الخطب

وقال متغزلا :

غلب الوجد عليه فبكى
وتولى الصبر عنه فشكا
وقمى نظرة يشفى بها
علة الشوق فكانت مهلكا
يا لها من نظرة ما قاربت
مهبط الحكمة حتى انتهكا
نظرة ضم عليها هدبه
ثم أغراها فكانت شركا
غرست في القلب منى حبه
وسفته أدمعى حتى زكا

BH

وسطع في هذا الأفق نجم جديد هو اسماعيل صبرى باشا ، وكان شاعرا مقلا ، كالطائر الغرد ، لا يشدو الا اذا أثار شجاء مطلع القمر ، أو حرك جواه عير الزهر . وقد امتاز بظاهرتين : الافلال ، ورقة الكلام ، حتى لتحس أن شعره يسيل رقة ويفيض حنانا ، على أنه لم يكن على كل هذه الرقة وكل هذا الحنان ضعيف النسج ولا سقيم العبارة ، بل كان متين الرصف منسجم القول .

نعم ، لم يكن لصبرى طول قصائد البارودى ولا فحولة شعره ولا جزالة لفظه ، وذلك لأنه لم يخض ما خاض البارودى من معامع ، ولم يلق ما لقي من أهوال ولا كان به أن يعرض لشيء من هذا ، بل ان كل ما به أن يتفتت بما يعتلج في صدره من نحو عاطفة حب وإعجاب وحرقة جووى وطلب غفران (١) .
ويلاحظ هذين الشاعرين من غير نزاع حفى ناصف بك الذى تقدم عليه الكلام (٢) .

(١) قال اسماعيل صبرى باشا فى الغزل :

أفصر فؤادى فى الذكرى بنافة	ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا فؤاد الذى شاطرته زما	حل الصباة فأخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبة	من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما	فى الوصل ناراً وفى الهجران نيرانا

وقال فى التصوف :

يا رب أين ترى تقام جهنم	لظالمين غداً وللفجار
لم يبق عفوك فى السموات العلا	والأرض شبراً خالياً لل نار
يا رب هبتى لفضلك واكفى	شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لى أرى	غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبي محنة	علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى	ألا تضيق بأعظم الأوزار

(٢) من قوله رحمه الله :

أقتضى معى ، ان حان حينى تجاربي	وما نلتها الا بطول عنائى
وأبذل جهدى فى اكتساب معارف	ويبقى الذى حصنته بفنائى
ويجزئنى ألا أرى لى حيلة	لاعطائها من يستحق عطائى
إذا ورث الجهال أبناءهم غنى	وجاهاً فما أشق بى العلماء

وإذا كان الشعر قد ظل في الجملة ، ضعيفاً الى قيام البارودى ، فانه بنشر كتب الأدب ودواوين السابقين من الشعراء ، وظهور شعر البارودى نفسه قد جعل يقوى ويشتد في بعد أغراضه وسمومعانيه ، وجزالة لفظه ، ومثانة صياغته ، وتلاحم نسجه . ولكنه لم يتأثر بالثقافة الغربية تأثر النثروظل ، في جملة ، محافظاً على نهج الأدب القديم .

الخطابة وأنواعها

لم تكن في مصر في مستهل ذلك العصر (الجملة الفرنسية) والعصر الذى قبله خطابة ولا خطباء ، اللهم إلا خطبة الجمعة والعيدين يسلمها أئمة المساجد من مدونات وُضعت فيها سلخاً ، وقلّ منهم من كان يضعها بنفسه . وأكثرهم كان يتلوها في الورق تلاوة . وأقلهم من كان يحفظها ، وهى على كل حال خطب دينية تجمع بين حمد الله تعالى وتسبيحه وتفرد به بالألوهية والشهادة برسالة خاتم النبیین محمد صلى الله عليه وسلم ، والحض على طلب نعيم الجنة والفرار من عذاب النار بطاعة الله تعالى وتجنب ما نهى عنه من المناكر والمآثم . فان كان لهذه الخطب روعة فمن الدين وحده ، وخضوع الناس له وتشوقهم الى ثواب الله وخوفهم من عقابه لا من قوة الكلام ولا من براعة الالقاء .

والواقع أنه لم يكن هناك محل لغير هذا النوع من الخطابة ، فان الألسن في ذلك الوقت كانت معقولة بسوء الحكم ، والاسراف في القهر والظلم حتى لم يكن يستطيع الصديق أن يناجى صديقه ولو في كسر داره فيما يتصل بالأسباب العامة إلا وهو خائف يترقب . هذا الى أن الخطابة السياسية إنما تنضج وتؤتى كل ثمارها في الثورات وما إليها من الرجّات القومية والمذهبية . وذلك لأن الغرض منها تحريك السواد ، وهو لا يُطلب عادة إلا في مثل هذه الأحوال .

ولهذا لم تعرف الخطابة السياسية في مصر من أدهار طويلة إلا في الثورة العرابية . وكان من حاملي لوائها السيد عبد الله نديم ، والشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول باشا .

ولقد قُتِرَت الخطابة وهان شأنها بعد إذ أتمدت هذه الثورة في مصر ، على أن هذا الفتور لم يطل كثيراً حتى عاد شباب من المصريين يهتمون بموقفهم القومي فكانوا يجتمعون في الأندية الشبيهة بالعامية فالأندية العامة يخطب فيها بعضهم بعضاً بما يحضّر كلا منهم من عبارات تتضح بمعاني الحرية ، والوطنية . وكان أخطب خطباء هذا العصر من غير نزاع مصطفى كامل باشا المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) ، طلاقة اسان ، وتدفيق بيان ، وثبات جنان ، وجهارة صوت ، وعدوبة نبرة ، وجمال وقفة .

ثم قُتِرَت الخطابة بفتور الشعور الوطني إلى أن عقدت الجمعية التشريعية فكانت مجالاً للخطباء حتى إذا فارت فورة المصريين في مطلع سنة ١٩١٩ م وثبتت الخطابة وثبة عظيمة ، وقام الخطباء في كل مكان وعلى رأسهم سعد زغلول باشا ، وكان خطيباً بأجمع معاني الكلمة ، غير مدافع عن مكان الصدارة في الخطابة ولا منازع . ولقد ظل بعد ذلك يخطب الخطب السوانغ في البرلمان وفي غير البرلمان حتى توفي سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) .

الخطابة القضائية والاجتماعية

هناك نوعان آخران من الخطابة غير الخطابة الدينية والسياسية اللتين سبق الكلام عليهما وهما الخطابة القضائية والاجتماعية .

ونعني بالخطابة القضائية الخطابة في المحاكم من المحامين ورجال النيابة وهي — كذلك مجال لاطهار البراعة ، وتمتاز بأنها تعتمد على المنطق والقانون والبراهين العقلية ، وقد كان لانتشار المحاكم الأهلية في مصر أثر عظيم في رقي هذا النوع من الخطابة . ومن أشهر من نبغ فيه من رجال القضاء أحمد فتحي زغلول باشا ومجد توفيق سعودى بك وعبد الخالق ثروت باشا ومن رجال المحاماة نقولا توما بك والسيد أحمد الحسينى بك وأحمد لطفى بك .

أما الخطب الاجتماعية فنعني بها الخطب التي تقال في المشاكل الاجتماعية والاقتصادية قصداً إلى حلها وإصلاح فاسدها ، ومن أشهر من شهروا بها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وأحمد فتحي زغلول باشا .

النثر

تطور النثر

إلى مقدم الحملة الفرنسية كان أبلغ همّ النثر الفنى — مهما كان الغرض الذى يعقد له الكلام — مصروفا إلى تزيين العبارة بكل ما تهيأ للكاتب من المحسنات البديعية ، ملتزماً فيها السجع فى كل حال . وبحسبه أن يتم له هذا القدر من الصناعة فلا يعنيه ما يجره هذا التكلف من سُخْف فى المعانى وضعف فى نسج الألفاظ . والعلة فى هذا أنه فى ذلك العهد كانت قد نصبت المادة العلمية التى تفتقُّ العقل ، وتفسح فى المدارك ، وتجلى على النفس صورة صحيحة لما يجرى فى الحياة . يضاف الى ذلك أن المادة الأدبية فى ذلك العصر قد تسربت اليه من العصر الذى قبله مباشرة فكان يهتم بالبديعيات وأصحاب البديعيات أيما اهتمام .

ولقد ظلت للسجع المنزلة الأولى إلى أواسط حكم اسماعيل ، حتى لقد كانت الأوامر الرسمية ، والمنشورات الدورية يلتزم فيها السجع بقدر ما يبلغه جهد الكتاب . فلما بعثت معاجم اللغة وكتب الأدب القديمة بالطبع وباهتمام بعض المتأدبين بها ومراجعتهم لها أخذ النثر يدخل فى طور جديد . على أن لهذا التطور عناصر أخرى اجتمعت مع إحياء الأدب القديم . أهمها تأثير النثر بالأدب الغربى .

تأثير النثر بالأدب الغربى

وإذا كان النثر قد تأثر إلى حد بعيد بإحياء الأدب العربى القديم ، فلقد تأثر كذلك بالأدب الغربى إلى مدى غير قصير . ولقد تعلم أننا تلقينا حضارتنا القائمة عن أوربا بمن جىء بهم إلينا من أسانئتها وبمن وفدوا إلى بلادها من طلابنا . نعم ، لقد كانت العناية فى هذا الباب مصروفة أولاً إلى درس العلوم والفنون للقيام بالحاجات المادية لهذه البلاد الناشئة ، فلما أدركت مصر من هذا حظا يقوم بعض القيام بسد هذه الحاجات جعلت تتجه إلى وسائل الحضارة من الجهة الأدبية أيضا ، فأقبل القليل فى عهد اسماعيل ممن تعلموا لغات الغرب على دراسة آدابه فى مختلف أنواعها ، كما ترجم إلى العربية كثير من كتبها فى الأبواب المختلفة ، فكان لهذا أثر فى الأدب العربى عامة وفى النثر الفنى خاصة .

على أن الاقبال على درس الأدب الغربي جعل يشتد على الزمن ، حتى تجرد له عدد غير قليل من المصريين يطلبونه بباعث من أنفسهم ، أو بتدريسه لهم في المعاهد المصرية ، أو بإيفاد الحكومة لهم إلى بلاد الغرب في طلبه . وكلما قويت هذه الحركة ازداد تأثير النثر الفني بالأدب الغربي حتى بلغ ما بلغ اليوم .

وكانت أكبر مظاهر هذا التأثير : (١) أن دخلت على العربية صيغ جديدة وتعبيرات لم تؤلف من قبل ، وذلك إما لاصابة المعانى الطريفة وإما بحكم تأثير الكاتب بالأسلوب الأجنبي وخاصة إذا لم يكن وافر المحصول من فقه العربية ، مطبوع المدركة على أساليبها ، (٢) جعل المقام الأول للمعنى لا للفظ ، (٣) الاقتصار منه على ما يؤدى المعنى ويصيب الغرض المقسوم ، (٤) تناول الموضوعات والأشخاص بألوان من التحليل لم تكن معروفة من قبل ، (٥) تطور طرق النقد الأدبي واتساع دائرته في ضبط ودقة واحسان .

أنواع النثر

النثر الاجتماعى

وهو الذى يطلب به تقرير حالة اجتماعية ، أو محاولة اصلاح ناحية من نواحى الحياة العامة .

ومن أعرف من عرفوا من كتابنا الاجتماعيين : الشيخ محمد عبده وقاسم بك أمين المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) واحمد فتحى زغلول باشا والدكتور يعقوب صروف المتوفى سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) .

نثر الصحف

أما نثر الصحف فأول شروطه تعتمد السهولة فى اللفظ وعدم التعمق فى المعانى ، لأن الصحف إنما تخاطب الجماهير أولا ، فإذا هى ارتفعت عن أفهامهم ، وجاءت بالغريب عنهم لم يتحقق الغرض المطلوب بها . وانك لترى أن لغة « المجلات » العلمية والأدبية أجزل وأرصن من لغة الصحف غالبا ، كما أن معانيها أعلى ومنطقها

أدق وأوفى . وذلك لأن تلك « المجالات » إنما تخرج للخاصة ومن يلونهم من أوساط المتعلمين ، أما الصحف السياسية فإنها تخرج للجمهور كله ، فكان حقاً عليها أن تحاطبهم على قدرهم . هذا إلى أن الصحفي الذي يصدر الصحيفة كل يوم مثلاً ليس لديه متسع من الوقت لترتين الكلام والتأنق فيه ، واذكاء الذهن في الفوص على فرائد المعاني ؛ فهو في ذلك على العكس من الكاتب في « المجلة » الشهرية أو الأسبوعية .

وهذا النوع من النثر قد بدأ كذلك في ضعف اللغة ضعيفاً ركيكاً فما زال يتدرج في رقيه برق الأدب العربي حتى بلغ هذا الموضع الذي تراه في صحف اليوم .

ومن أقدر من عرفوا من كتّاب الصحف من أول نهوضها في عصر اسماعيل :

(١) أديب اسحاق المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٩٢ م) وكان شاعراً أديباً تولى الانشاء الصحفي في جريدته (مصر) في عهد الخديو اسماعيل فكان له في الصحافة يومئذ شأن مذكور بتقدم أسلوبه ولطف استشهاده .

(٢ - ٣) سليم تقي المتوفى سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) وبشاره تقيلاً باشا المتوفى سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) وكان كلاهما مثاقيقاً للانشاء الصحفي في ذلك العصر بالتهويد للأغراض بالمقدمات الفلسفية الطويلة والسخاء في الاستشهاد بما يحضر الكاتب من شعر العرب ، والمأثور عن كبار الرجال في العالم . وكان كلاهما واضح العبارة سهل الاداء .

(٤) مصطفى كامل باشا وقد تقدم لك أنه كان أخطب خطباء عصره ، وقد نضحت ملكة الخطابة على قلمه ، فكانت عبارته سهلة ، وكانت تأخذ بالباب الجمهور بما فيها من نظم خطابي يرسله في شدة وحماسة ، حتى سن في مصر أسلوباً انشائياً مميزاً من سائر الأساليب .

(٥) الشيخ علي يوسف المتوفى سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) وهو وإن لم يكن يعرف شيئاً من اللغات الأجنبية ، ولا خرج من تعلمه ومطالعاته بقسط كبير من العلوم الحديثة ، فقد استغنى بشدة نفسه وقوة ذكائه عن كثير . ولقد عاش طول

حياته الصحفية رجل كفاح ، وكان له من قوة البديهة وحضور الحجمة وسطوة القلم ما عز على كثير ممن عاصروه من صفوة الكتابيين ، وله كذلك أسلوب إنشائي يعرف من بين سائر الأساليب .

النثر الفني

النثر الفني ، هو أقدم أنواع النثر ، لأن عهد العرب بالصحافة جديد ، كما أنهم لم يعالجوا البحوث الاجتماعية الا في العصور الأخيرة .

والنثر الفني يحتاج إلى خلال : منها تحصيل قدر صالح من مفردات اللغة وإطلاع على بلاغات العرب والسابقين من أهل البيان في أشعارهم وخطبهم ، ورسائلهم وكتبهم . ومنها سعة الخيال والتفطن إلى ما ينطوى عليه الكلام من نواذر الأدب واسرار البيان ، ومنها أخذ النفس بأدراك ما في العلم من جمال . ولقد كان النثر الفني في صدر هذا العصر الذي نتحدث عنه ضعيفا ، كما كانت أغراضه مقصورة على كتب المودات ورسائل التهئات والتعزيات ، وشيء من الوصف ونحو ذلك . وكان ممن أخذوا منه بحظ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي والشيخ حسن العطار .

وظل هذا النوع من النثر كذلك حتى كان عصر اسماعيل فجعل يعلو وينسجم بما ذكرنا من أسباب . ثم أخذ يرقى حتى بلغ المنزلة التي نراها اليوم .

ومن أعرف من عرفوا من النثر الأدبيين من عهد اسماعيل إلى الآن «من قبضوا الى رحمة الله» : عبد الله باشا فكري^(١) والشيخ حسين المرصفي والشيخ

(١) أمثلة من النثر في ذلك العصر :

كتب عبد الله باشا فكري المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ ، وهو بالاستانة في يوم برد كثير الأمطار . كتبت اليك والأمطار ساجمة بطلها ووبلها ، وعساكر البرد هاجمة بخيلها ورجلها ، والساء متلفعة أذيال السحاب ، وكأن الشمس خافت من الطل فتوارت بالجباب ، والجو مسكى الزداء ، عنبري الأرجاء ، كأنه وعليه ثوب الغيم مزور ، قد وجل من صولة البرد فلبس فروة السمور ، والغمام على الأفق بكلا كله وقد هز من البرق بيض مناصله ، ونثر في الجو طرائف مطارفه ، وجاد على الأرض بتليده وطارفه ، وثقل على

على الليثي والشيخ محمد عبده و ابراهيم بك المويلحي و ابراهيم بك اللقاني والشيخ
ابراهيم اليازجي والشيخ أحمد مفتاح والشيخ عبدالكريم سلمان وحفني بك ناصف
والسيد مصطفي لظفي المنفلوطي .

= كاهل الهواء كالطير بل جناحه بالماء ، وقرب حتى كاد يمسك بالدين ، ويعتصر بالراحتين ؛ والبرق كأنه
مرآة مذهبة تبدو وتختفي ، أو جذوة ملتهبة توقد وتطفأ ، والرعد يهدد بزواجر زماجره السحاب فيكفيها ،
والطير يتلو سطور الندى في طروس الثرى فيملها ، ويطرب بأفنان الألحان أفنان البان فيعلها ويثنها ،
ويقرأ على رءوس الأغصان أو رواده الحسان فيقريها ويرقيها ، وقوس السماء يرمى بسهام وبله جنوب
الشقائق فيصمها ويديمها ، والريح تسمع أخلاف الغائم فتتمرها ، وترضع بدرها بنات النبات في جمور
أراضيها فتربيها ، وترضع بدرها تيجان القضببان لتجعله عقوداً في راقياها أو دموعاً في أماقها . وكان
الحرخاف من بنادق البرد ومدافع الرعد تفر الى مصر ونواحيها ، وأصبح تزيل من فيها لكرم أهلها ، وكان
غيرها يجلت عليه فلم تقبله عندها ضيفاً ، أو غلط الناس في حساب الفصول فظنوا شتاها صيفاً .

وكتب الشيخ محمد عبده في وصف نهج البلاغة :

أوفى لي حكم القدر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة صدقة بلا تعمل . أصبته على تغير حال وتبلبل
بال ، وتراح أشغال ، وعطلة من أعمال ، فحسبته تسلية ، وحيلة للتخيلة ، فتصفحت بعض صفحاته ،
وتأملت جملا من عباراته ، من مواضع مختلفات ، ومواضيع متفرقات ، وكان يخيل لي في كل مقام أن
حروبا شبت ، وغارات شنت ، وأن للبلاغة دولة وللفضاحة صولة ، وأن للأوهام عرامة

فأنا الا والحق متتصر ، والباطل منكسر ، ومرج الشك في جمود ، وهرج الريب في ركود ،
وأن مديرتك الدولة وباسل تلك الصولة ، هو حامل لوائها الغالب ، أمير المؤمنين على بن أبي طالب ،
بل كنت كلما انتقلت من موضع الى موضع أحس بتغير المشاهد ، وتحول المعاهد ، فتارة كنت أجدني
في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية ، في حلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ،
وتدنو من القلوب الصافية .

وكتب المرحوم حفني بك ناصف الى سماحة السيد توفيق البكري :

كثاني الى السيد السندي ولا أجشمه الجواب عنه فذلك مالا أنتظره منه ، وإنما أسأله أن ينشط الى
قراءته ، ويتنزل الى مطالعته ، وله الرأي بعد ذلك أن يحاسب نفسه أو يزيديا ، ويحكم عليها أولها .
فقد تنفع الذكرى اذا كان هجرهم دلالا فأما إن ملالا فلا تقعا =

زرت السيد ويعلم الله أن شوقى الى لقائه ، كحرصى على بقاءه ، وكفى بشهوده كشفنى بوجوده ، فقد بعدُ والله عهدُ هذا التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتصرم الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان ، فسألت عنه فقيل لى انه خرج لشيع زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أزل أعدُ الحظاظ وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن الدار ، وظهر الاستبشارُ على وجوه الزوار ، وجاء السيد فى مركبه ، وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهينما بكاله ، فرى يعرف وجوه القوم حتى حاذانى ، وكبر على عينيه أن يرانى ، فغادرنى ومن على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى ، وجر السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا فى هذه الحال أوهم جارى انى فى دارى وأظهر للناس أن شدة الألفة سُقط الكلفة ، ومرَّ السيد بعد ذلك من أمامى ثلاث مرات ومن الغريب أنه لم يستدرك ما فات ...

تمرؤن الديار ولم تعوجوا كلامكم على إذا حرام

وكنت أظن مكانتى عند السيد لا تنكر ، وأن عهدى لديه لا يخفى ، فإذا أنا لست فى العير ولا فى النفير ، وغيرى عند السيد كثير ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير ...

B

ومن مدت العليا اليه يمينها فأكبر انسان لديه صغير

ولا ادعى أنى أوازي السيد صانه الله فى علو حسبه أو أدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى مناصبه ورتبه ، أو أكثره فى فضته وذهبه ، وإنما أقول ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره للسلام ، وتأيد جامعة الاسلام ، وأن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصا للخلاص ، ومن يتردد اجابة لدعوة الاخلاص ، وأن لا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص الشوارد ، بقباء الموالد ، ورواد الطرف ، بأرباب الحرف .

فا كل من لا قيت صاحب حاجة ولا كل من قابلت سائلك العرفا

فان حسن عند السيد أن يفضى عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يفضى عن جميع الناس ، والا فلماذا يطوف على بعض الضيوف ، ويحييمهم بصنوف من المعروف

ولا أروم بحمد الله منزلة غيرى أحقُّ بها منى اذا راما

وإنما أصون نفسى عن المهانة والضعفة ، ولا أعرضها للضييق وفى الدنيا سعة

B

وأكرم نفسى لئنى إن أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فلا يصعّر السيد من خده ، فقد رضيت بما ألزمنى من بعده ، ولا يفض من عينه ، فهذا فراقى بينى وبينه ، وليتخذنى صاحباً من بعيد ، ولا يكلمنى الا يوم الوعيد .

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن اذا متنا أشد تغانيا =

ومى على السيد السلام على الدوام . ومبارك اذا لبس جديدا ، وكل عام وهو بخير اذا
استقبل عيدا ، ومرحى إذا أصاب ، وشيعته السلامة اذا غاب ، وقدوما مباركا اذا آب ، وبالرفاء والبنين
اذا أعرّس وبالطالع المسعود اذا أنجب ، ورحمة الله اذا عطس ، ونوم العافية اذا نرس ، وصح نومه
اذا استيقظ ، وهينئا اذا شرب ، وما شاء الله اذا ركب ، ونعم صباحه اذا انفجر الفجر ، وسعد مسأوه اذا
أذن العصر ، ونجح نوح اذا ثر ، ولا فض فوه اذا شعر وأجاد وأفاد اذا خطب ، وأطرب وأغرب اذا كتب ،
واذا حج البيت فحجاً مبروراً ، واذا شيع جنازتك فسعيًا مشكورًا والسلام .

وكتب السيد مصطفى لطفى المنفلوطى المتوفى سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) فى السعادة :

أطلب السعادة فى الحقول والغابات ، والسهول والجبال ، والأغراس والأشجار والأوراق والأثمار ،
والبحيرات والأنهار ، وفى منظر الشمس طالعة وغاربة ، والسحب مجتمعة ومتفرقة ، والطير غادية ورائحة ،
والنجوم ثابتة وسارية ، وأطلها فى تعهد حديقتك ، وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها ، وتشذيب أشجارها
وتنسيق أزهارها ، وفى وقوفك على ضفاف الأنهار ، وصعودك الى قمم الجبال ، واتحدارك الى بطون الأودية
والوهاد ، وفى اصغائك فى سكون الليل وهدوءه الى خريف المياه ، وصغير الرياح ، وحفيف الأوراق ،
وصرير الجنادب ، وتقيق الضفادع ، وأطلها فى مودة الاخوان ، وصدقة الأصدقاء ، واسداء المعروف ،
وتفريج كربة المكروب ، والأخذ بيد البأس المنكوب ، فى كل منظر من هذه المناظر ، أو موقف من
هذه المواقف ، جمال شريف ظاهر يستوقف النظر ، ويستلهم الفكر ويستغرق الشعور ، ويحى ميت
النفس والوجدان ، ويملا فضاء الحياة هنا وورعدا .

سأرجع التذكار العزيز المذنب

الحول المدي السوطى

المبتلى المحبته

العهد النبى الحبيب


رعوس على تروس

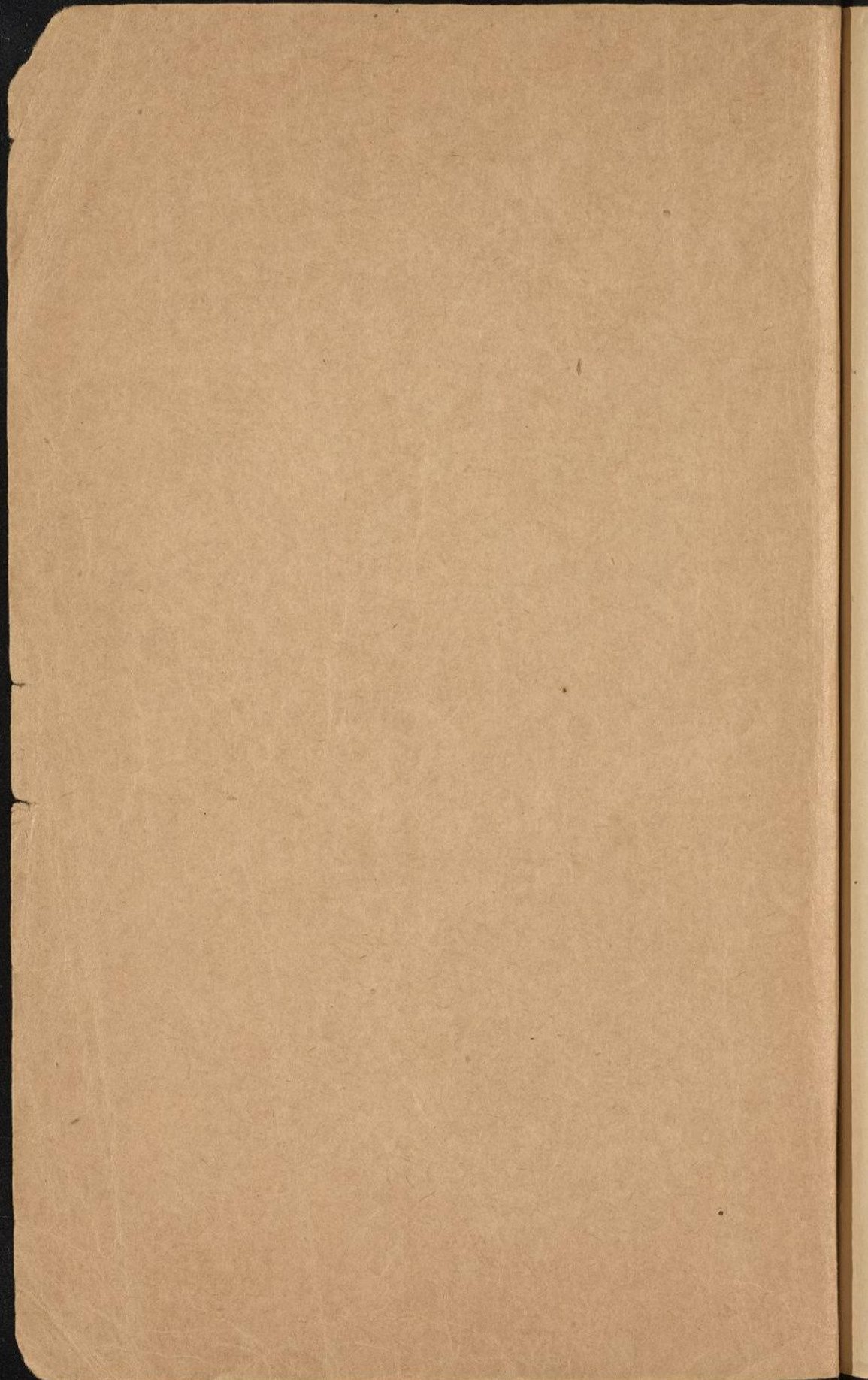
—

قال القائلون في الرواة صغروهم عن عبد الله
ابن عمير اللبيدي قال رأيت في هذا القصر
وأشار إلى ذلك ~~الخط~~ ~~الخط~~ ~~الخط~~ بالثقة رأيت
الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام مع زياد
بن عروة ثم رأيت ~~أبي~~ رأيت ~~أبي~~ رأيت
أبي زياد بن أبي عمير ~~أبي~~ رأيت
ثم رأيت رأيت ~~أبي~~ رأيت ~~أبي~~ رأيت
أبي زياد ثم رأيت رأيت ~~أبي~~ رأيت ~~أبي~~ رأيت
أبي زياد ثم رأيت ~~أبي~~ رأيت ~~أبي~~ رأيت
أبي زياد ثم رأيت ~~أبي~~ رأيت ~~أبي~~ رأيت
وأما هذا ~~أبي~~ رأيت ~~أبي~~ رأيت ~~أبي~~ رأيت

ذریعہ

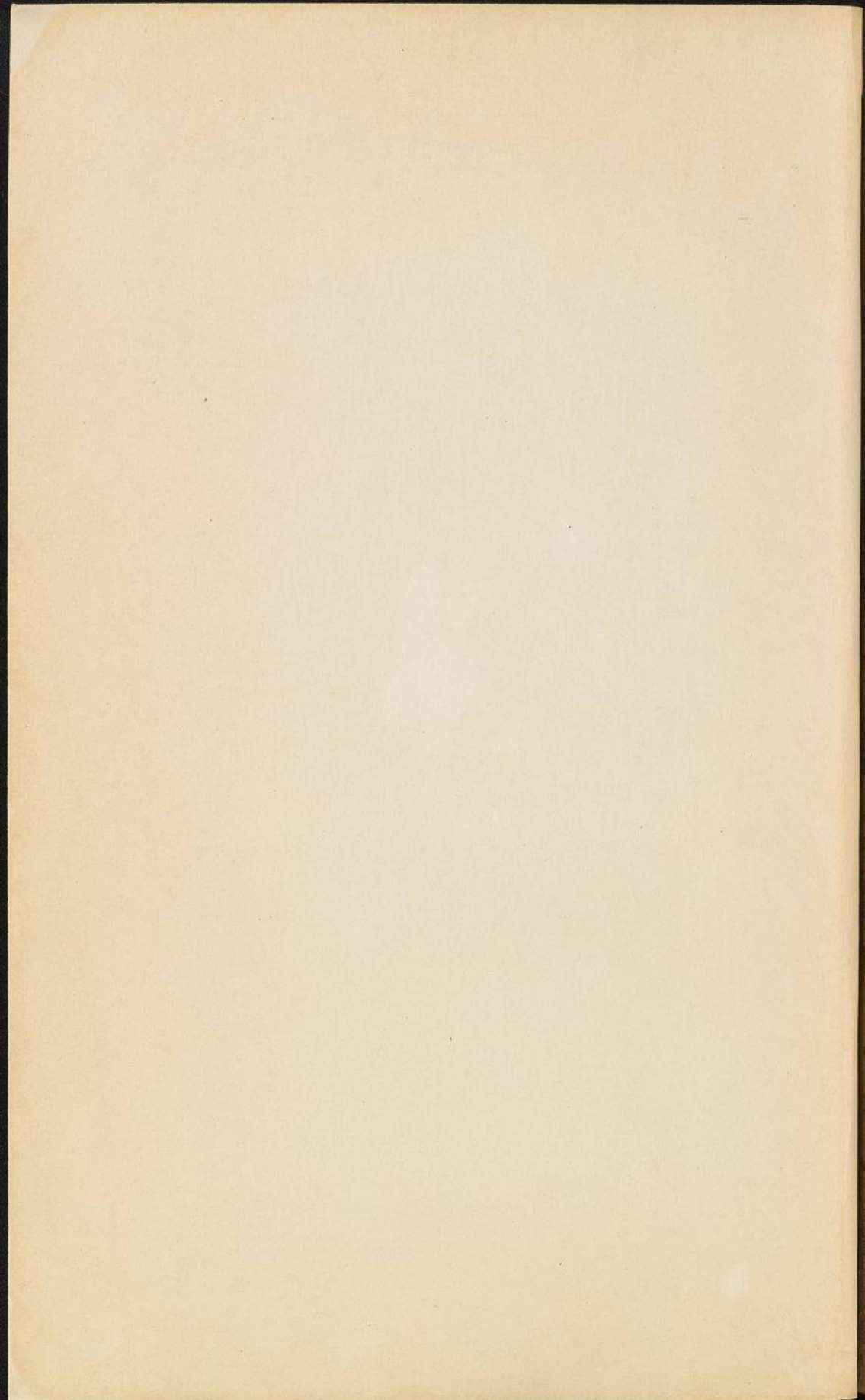
لائے افسوس - دستک و نصرت سے لیکر ایک لادہ واقفیت سے
 سچ بنا کر لادہ و قدسیت - بلکہ بالاسر سب سے لیکر
 دھیت الہیت سے لیکر انجمنہ و محبت سے لیکر
 لائے الہیہ و انما عینہ بالکے عین سے لیکر تمام ناز و
 لایم نامعلوم عین تمام و عین سے لیکر
 ناز و عین ظروف و عین اول سے لیکر
 عین قدرت سے لیکر تمام عین سے لیکر
 عین قدرت و اول سے لیکر تمام عین سے لیکر
 عین عین سے لیکر عین سے لیکر
 عین عین سے لیکر عین سے لیکر

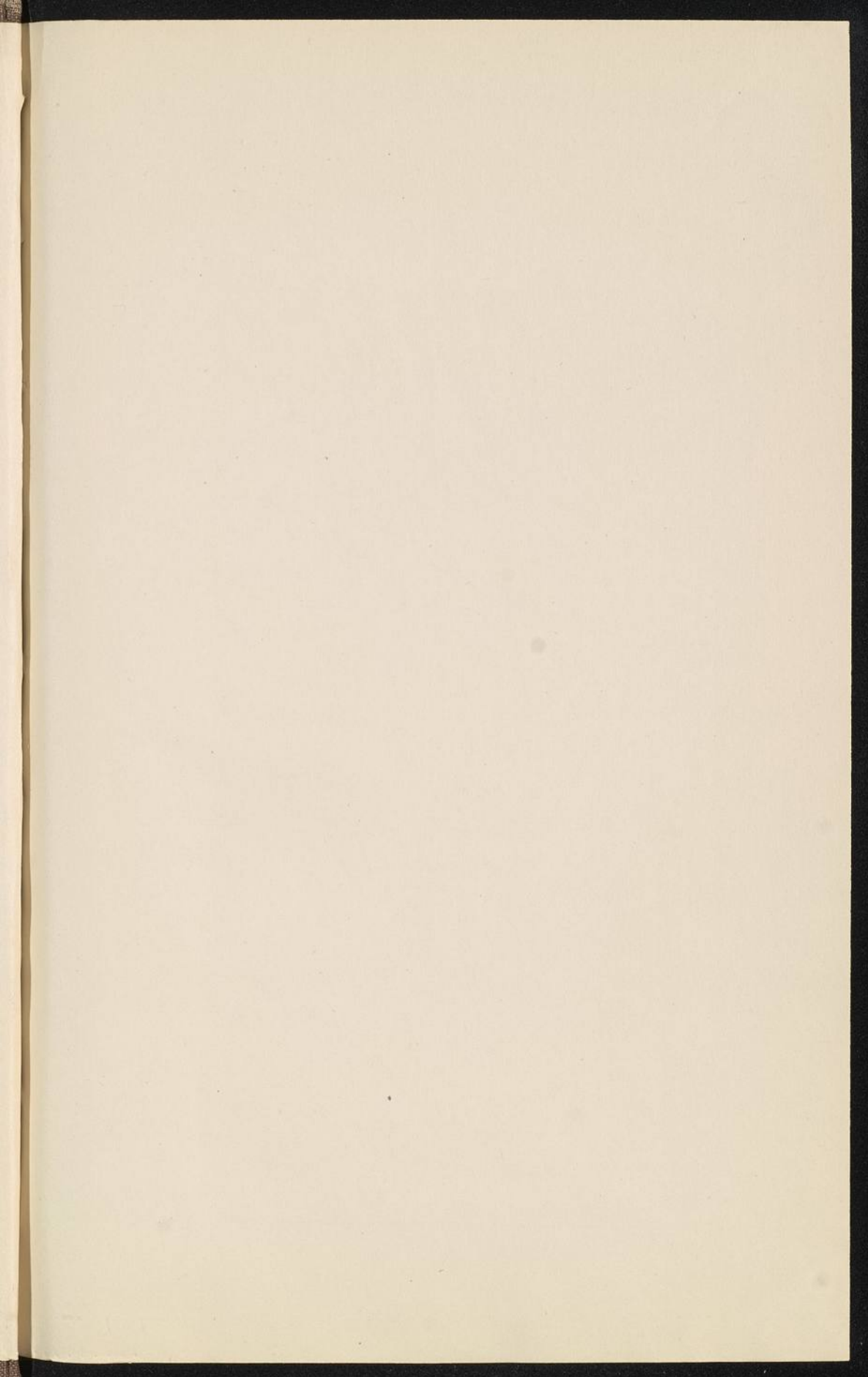
29/4/31 - 
 ک



A 34

Handwritten notes and a diagram on aged paper. The text is mostly illegible due to fading and a large stain. The diagram consists of a vertical line with several horizontal lines branching off to the left, resembling a tree or a flowchart. The word "Circus" is faintly visible at the top right of the page.





893.712
W79

BOUND

FEB 6 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58868615

893.712 W79

Mujmal fi tarikh al-